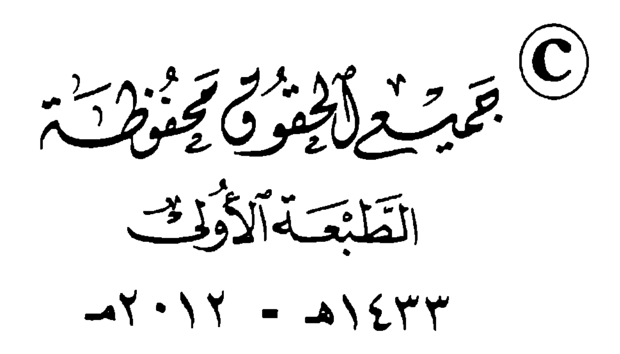
أسرار الشريعة وأطوار الطريقة وأنوار الحقيقة



العارف المتألّه
السيّد حيدر الآملي

تقديم وتنقيح
رضا محمّد حدرج

دار المحجة البيضاء



الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

ISBN: 978 - 614 - 426 - 028 - 9



الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ ـ هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ ـ ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ ـ E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

أسرار الشريعة
وأطوار الطريقة
وأنوار الحقيقة

العارف المتألّه

السيّد حيدر الآملي

تقديم وتنقيح

رضا محمد حذرج

دار المحجة البيضاء


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد فاتح أبواب المعارف الإلهيّة، وعلى آله حفظة الأسرار الربّانيّة.

وبعد

بين يدي القارىء الكريم سفر ثمين، وكتاب متين، حوى بين طياته من الغرائب والأسرار والبدائع والأنوار، ما ينعش قلب السالك وينير ظلمة الليل الحالك، وقد أودع فيه مؤلفه من الحقائق والمعارف الكشفية ما لا يوجد في غيره من الكتب السلوكية والعرفانية.. فكتاب «أسرار الشريعة وأطوار الطريقة وأنوار الحقيقة» من أروع الكتب التي تعرّضت لبيان العلوم الحقيقية وأسرار التكاليف الشرعية، وفيه جواهر نفيسة ولآلىء ثمينة، استخرجها المؤلف من بحر المعارف الإلهية والعلوم الربانية.

وذكر فيه من المطالب الإشراقية والأبحاث الذوقية، ما يحقّ لها «أن تكتب بقلم النور على خدود الحور، أو تجعل تمائم في نحور الصدور، وتبقى مدى الأعصار والدهور» فكان هذا الكناب سفراً جليلاً تقرّ به عيون العارفين، وينير الطريق أمام السالكين، وهو كما وصفه كاتبه العارف بالحقائق الذوقية الشهودية من غير إطراء لنفسه ولا إعجاب بفضله، بل مع إقراره

بالقصور والنقص والفتور، يقول في نهاية كتابه عند ذكره لوصية الكتاب أنه:

«.. كتاب عظيم الشان، غريب الأفنان، فكأنه شجرة كثيرة الثمر، قوية الأغصان. وقد أودعت لك فيها إلهامات محكمات وغرائب مستحسنات.. فينتقل بها من أسرار الشريعة ومعاني الطريقة، ويترقى إلى حظائر سرائر الحقيقة، فإنها الطرق التي أمّها المتقدّمون، وسلكها بعدهم المتأخرون. فقم بذلك حقّ القيام، واحتفظ بأسراره عن الخونة اللئام، تكن متعرّضاً بما اشتمل عليه للقيام بخدمة الملك العلاّم، وتصير بخدمته من الكمّل الأعلام.. وسلكت فيه مسلك أهل السلوك ليرتفع عن التوحيد الحقيقي سائر الشكوك، فأظهرت ما أظهرت وأوضحت بالبيان الشافي ما أثبتُّ، فلذا أوصيتك بهذا الكتاب، وأكثرت لديك في مدحه الخطاب، وقد فرقت لك فيه جملاً من الأسرار، وبيّنت لك فيه طريق الأخيار ومقامات الأبرار.. فإن أردت الاطّلاع على هذه الجواهر والغوص على هذه اللآلىء فأمعن التأمل والمطالعة في هذا الكتاب..».

فهو «كتاب جليل في فنه، عجيب في جنسه، قليل وقوع مثله.. فصُنه أيها الظافر به عن غير أهله، ولا تكن بالضنين به على من عرف محله ومحل أهله.. وأحسن الظنّ بجميع ما فيه، ولا تسرع بالردّ والإنكار لما عساه يعسر عليك العلم بمكنونه، فإنّ فيه مكتومات كثيرة وعبارات لطيفة، يحتاج في معرفتها إلى تلطيف السرّ وإصلاح المزاج، بل وقد اشتمل على مشكلات لا تكاد تتّضح إلا بعد الكشف والمعاينة، فإنّ هذا الكتاب وأضرابه ليس في مرتبة البحث ولا مقامات أهل الأنظار..».

ففيه «من الحقائق الربانية والمعارف الكشفية التي هي لبّ خلاصة أقوال أهل الله الأقدمين والكمّل العارفين رضوان الله عليهم أجمعين، فأمعن النظر، وجدّ في الطلب واعمل بما فيه لتصل إلى مقصودك، فتقف على ما فيه. فاطلب التأله وتوجه كل التوجه على الشرائط المذكورة في الكتاب؛ لتفوز من

مقامات الأبرار بالحظ الأوفر، وتنخرط في سلك أنبياء الله وأئمته وأوليائه في يوم المحشر . . . » .

وقد أطلنا في نقل بعض كلامه، وألحقنا آخره بأوله، وذلك لبيان أهمية كتابه، وترغيب القارىء بالإقبال على معانيه، والتدبّر بما يحويه، وتنوير قلبه بالعمل بما فيه، فقد بحث المؤلف في سفره الخطير هذا: الأصول والفروع في المراتب الثلاث. أعني: أهل الشريعة وأهل الطريقة وأهل الحقيقة. وذكر فيه من أسرار السلوك ما يكفي لوصول العبد إلى مالك الملوك، والاتصال بالحضرة الإلٰهية، ومشاهدة العوالم النورانية . . . فعليك بحفظه والقيام بما فيه، وأقبل بقلبك على استخراج معانيه، والله يهديك إلى سواء السبيل.

الكلام في المراتب الثلاث:

لا شك في أنّ علم باطن الشريعة هو من الأسرار الربوبيّة والنواميس الإلهيّة. . وأنّ المعارف الكشفية والحقائق الربانية هي غريبة عن غير أهلها، فإنّ هذه العلوم والمعارف لا تكاد تتضح لأهل البحث والنظر وأصحاب الاستدلال والبرهان إلا بعد الكشف والمعاينة، فليس باستطاعة كل إنسان أن يفهم هذه المطالب الرفيعة واللطائف الدقيقة. . بل يحتاج في معرفتها إلى تهذيب نفسه وتلطيف سرّه، ليصل إلى مقام الكشف، فيرى الحقائق عياناً. . وإن لم يصل إلى هذه المقامات المعنوية، فلا يتسرّع بإنكار المقامات الروحانية والعرفانية والمعارف الإلهية، لأنّ إنكار مثل هذه الأمور يصدُّ الإنسان عن بلوغ جميع المراتب الإنسانيّة، وقد يدفعه ذلك إلى إنكار السلوك إلى الله تعالى والاستهزاء به جلّت عظمته. . فإنّ منطق الحقائق العرفانية والعلوم الحقيقية لها لسان خاص، فإذا أحسّ القارىء الكريم بإشكال في فهم العبارات، وعسر عليه إدراك المطالب والإشارات، فلا يتسرّع بالردّ عليه لمجرد عدم استيعابه، أو لأنه لم يستسغها ولم يقتنع بها؛ بل عليه أن يسيء

الظنّ بقدرة فكره وعقله ومستوى ذوقه وفهمه، لا أن يبادر باتهام البيان بالضعف والهوان. . لذلك فإنّ المؤلف يوصي المطّلع على هذه الأسرار أن لا يكشفها لغير أهلها، ولا يضعها إلا في محلها، فليس كل ما يُعلم يُقال، وليس كل ما يُقال حضر وقته لكي يُقال، وليس كل ما حضر وقته لكي يُقال حضر أهله لكي يُقال. وقد ينكر بعض الأشخاص ما في هذا الكتاب وغيره من كتب الأسرار والمعارف الربوبية، وينكرون المقامات والكرامات الغيبية، ويعتقدون أنّ الأفكار العرفانية دخيلة على الإسلام، وهي حصيلة الفلسفة الأفلاطونية الجديدة والهندية والفارسية، ويتجه آخرون إلى أنها من نتاج الأفكار البوذية وغير ذلك من الادّعاءات. . ولست هنا في معرض الردّ أو الكلام عن العرفان وجذوره في الإسلام، ولكنّي أحيل من أحبّ الاطلاع على هذا الموضوع إلى كتاب (العرفان) للشهيد مطهري. .

كما يرفض البعض أيضاً ما يسمّى بظاهر وباطن الشريعة، وبالتالي فليس هناك في الإسلام ما يسمّونه بالطريقة والحقيقة، بل هناك الشريعة الإسلامية التي جاء بها النبي محمدﷺ وهي ظاهرة واضحة، وما عدا ذلك باطل وبعيد عن الشرع المقدّس. . ولكشف هذا الالتباس الذي وقع فيه المشكّكون والمعارضون، ولتوضيح ما خفي عن الآخرين من أهل الظاهر، كان لا بدّ من الكلام حول هذا الموضوع، وبيان أنّ حقيقة الإسلام هي شريعة وطريقة وحقيقة، وعليه نشرع في البحث باختصار في المراتب الثلاث.

الشريعة:

الشريعة من الشرع، و«الشرع في اللغة عبارة عن البيان والإظهار. ويقال شرع الله كذا، أي جعله طريقاً ومذهباً، ومنه المشرعة»[١].

---

(١) التعريفات، الجرجاني، ص٥٥.

و«الشريعة هي الائتمار بالتزام العبودية، وقيل: الشريعة هي الطريق في الدين»[1].

وقال ابن عربي: «الشريعة عبارة عن الأخذ بالتزام العبودية»[2].

والعرفاء وغيرهم متفقون على أنّ الشريعة مبنية على سلسلة من الحقائق والمصالح. . ولكن يختلفون في تفسير هذه المصالح والغاية منها، فالمصالح بنظر العرفاء هي من نوع الوسائل التي توصل الإنسان إلى الله تعالى، باعتبار أنّ جميع الطرق تنتهي إليه سبحانه. . أما عند غير العرفاء كالفقهاء فهم يرون أنّ هذه المصالح توصل الإنسان إلى السعادة، وهي الحدّ الأعلى عندهم. .

وفي القرآن الكريم عدّة آيات تشير إلى الشريعة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[4].

وأيضاً قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[5].

قال البيضاوي: شرع شريعة، وهي الطريقة إلى الماء، شبّه بها الدين لأنه طريق إلى ما هو سبب الحياة الأبدية. .

(ومنهاجاً) وطريقاً واضحاً في الدين من نهج الأمر إذا وضح. .

---

(١) التعريفات، الجرجاني، ص٥٥.
(٢) اصطلاح الصوفية، ابن عربي، ص٣.
(٣) سورة الجاثية، الآية: ١٨.
(٤) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

وقال الراغب: الشرع نهج الطريق الواضح، يقال شرعت له طريقاً. والشرع مصدر، ثم جُعل اسماً للطريق والنهج، فقيل له: شرع وشرعة وشريعة، واستعير ذلك للطريقة الإلهية من الدين قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ وقال الطبرسي (رحمه الله تعالى): الشرع والشريعة واحدة، وهي الطريقة الظاهرة والشريعة في الدين للطريق الذي يوصل منه إلى الحياة في النعيم، وهي الأمور التي يُعبد الله بها من جهة السمع، والأصل فيه الظهور، والمنهاج الطريق المستمر، يقال: طريق نهج ومنهج أي بيّن. وقال المبرد: الشرعة ابتداء الطريق، والمنهاج الطريق المستقيم..

الطريقة:

قال الجرجاني: «الطريقة هي السيرة المختصة بالسالكين إلى الله تعالى من قطع المنازل والترقي في المقامات»[1].

ويقول التهانوي: «هي طريق موصل إلى الله تعالى، كما أنّ الشريعة طريق موصل إلى الجنَّة، وهي أخصُّ من الشريعة لاشتمالها على أحكام الشريعة من الأعمال الصالحة البدنيَّة، والانتهاء عن المحارم والمكاره العامَّة، وعلى أحكام خاصة من الأعمال القلبية، والانتهاء عمّا سوى الله تعالى، كذا في شرح القصيدة الفارضيَّة. والحاصل أنها سيرة مختصة بالسالكين إلى الله تعالى مشتملةٌ على الأعمال والرياضات والعقائد المخصوصة بها، وعلى الأحكام والشريعة كلتيهما، فهي أخصُّ من الشريعة لاشتمالها عليهما»[2].

فالطريقة كما هو واضح وبيّن هي سيرة مختصة بالسالكين إلى الله تعالى.. وكلمة (الطريقة) قد وردت في القرآن الكريم، وكذلك على لسان

---

(١) التعريفات، ص٦١، كذا أيضاً في اصطلاحات الصوفية للكاشي ص٤١.

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي، ص٩١٩.

النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام ونرى ذلك جلياً في أحاديثهم وأدعيتهم عليهم السلام.

ففي القرآن الكريم يقول تعالى:

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[1].

وفي تفسير هذه الآية يقول السيد الطباطبائي في الميزان: «والمراد بالطريقة طريقة الإسلام، والاستقامة عليها لزومها والثبات على ما تقتضيه من الإيمان بالله تعالى وآياته..».

وورد عن رسول الله ﷺ: «إن استقمتم على الطريقة لعليّ في ولايته؛ أُسقيتم ماءً غدقاً، وأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أرجلكم..».

وعن عبد العظيم الحسني بإسناده إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قوله تعالى ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ يقول: لأشربنا قلوبهم الإيمان، والطريقة هي ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام والأوصياء عليهم السلام.

ويقول تعالى ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾[2].

وفي نهج البلاغة نرى أن كلمة (الطريقة) وردت على لسان الأمير عليه السلام مرّات عدة، من ذلك قوله عليه السلام:

«رحم الله امرءاً سمع حكماً فوعى، ودعي إلى رشاد فدنا.. جعل الصبر مطية نجاته، والتقوى عدّة وفاته، ركب الطريقة الغرّاء، ولزم المحجة البيضاء، اغتنم المهل، وبادر الأجل، وتزوّد من العمل».

«أعينوا أنفسكم بلزوم الطريقة المستقيمة، وهجر الأمور المكروهة..».

---

(١) سورة الجن، الآية: ١٦.

(٢) سورة طه، الآية: ١٠٤.

«بعثه والناس في ضلالة في حيرة... فبالغ ﷺ في النصيحة، ومضى في الطريقة..».

«.. وقد قلتم ربنا الله، فاستقيموا على كتابه، وعلى منهاج أمره، وعلى الطريقة الصالحة من عبادته..».

ولا يخفى أنّ الصوفية وأصحاب الطريقة والحقيقة أخذوا كثيراً من فنونهم وعلومهم، بل أخذوا أصل هذا الطريق من الإمام علي عليه السلام.

ويقول ابن أبي الحديد في شرح النهج:

«ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأصول التصوّف، وقد عرفت أنّ أرباب هذا الفن في جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون وعنده يقفون، وقد صرّح بذلك الشبلي والسري وأبو يزيد البسطامي وأبو محفوظ معروف الكرخي، ويكفيك دلالة على ذلك الخرقة التي هي شعارهم إلى اليوم، وكونهم يسندونها بإسناد متصل إليه عليه السلام».

فالطريقة إذاً ليست من بدع الصوفية وليست أمراً مغايراً للشريعة، بل هي تعني الشريعة والإيمان، وكل ما في الأمر أنّ العرفاء يعتبرون الطريقة باطن الشريعة، فكما أنّ للقرآن ظهراً وبطناً وبعض الروايات تصفه أنّ ظاهره أنيق وباطنه عميق، كذلك للشريعة ظاهر وباطن، وأنَّ هذه الأسرار والمصالح المخفيّة في الشريعة هي من نوع المراحل والمنازل التي توصل الإنسان إلى الله تعالى، بينما يرى الفقهاء أنّ هذه المصالح المخفية هي بمنزلة العلل للشريعة.

إذاً باطن الشريعة عند العرفاء هو طريق، ويسمّونه بالطريقة، وعُبّر عنه بالسير والسلوك العرفاني، فالسلوك هو طيّ الطريق، والسير هو مشاهدة آثار وخصائص المراحل والمنازل أثناء الطريق. وبعبارة أخرى الحركة التي بها يصل السالك من المبدأ إلى المقصد يسميها أهل الطريقة بالسلوك، فكما أنّ

السير من حيث الظاهر والأعمال يُسمّى بالشريعة، كذلك يُسمّى هذا النوع من السير المعنوي في اصطلاح علماء السير والسلوك بالطريقة.

ومن أقوالهم:

«من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة؛ لم يجد من هذه الطريقة شمّة».

وقال عثمان المغربي الصوفي: «من ظنّ أنه يُفتح عليه شيء من هذه الطريقة، أو يُكشف له عن سرّ من أسرارها من غير لزوم المجاهدات؛ فهو غلط».

ومن كلامهم أيضاً: «الحركة بركة» و«حركة الظواهر توجب بركات السرائر».

وفقنا الله وإياكم لما يحبّ ويرضى، وألهمنا سلوك الطريقة المثلى.

الحقيقة:

عبّر عنها الجرجاني بحق اليقين، وهو «عبارة عن فناء العبد في الحق، والبقاء به علماً وشهوداً وحالاً لا علماً فقط، فعلم كل عاقل الموت علم اليقين، فإذا عاين الملائكة فهو عين اليقين، فإذا ذاق الموت فهو حق اليقين، وقيل: علم اليقين ظاهر الشريعة، وعين اليقين الاخلاص فيها، وحق اليقين المشاهدة فيها»[١].

وحقيقة الحقائق: «هي المرتبة الأحدية الجامعة لجميع الحقائق، وتسمّى حضرة الجمع وحضرة الوجود»[٢].

---

(١) التعريفات، ص٤٠.

(٢) التعريفات، ص٤٠.

فالمقصود من حقيقة الحقائق هي ذات واجب الوجود سبحانه. وقال ابن عربي: «الحقيقة سلب آثار أوصافك عنك بأوصافه بأنه الفاعل بك فيك منك لا أنت ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾»[1].

ويعرّفها التهانوي بقوله: «الحقيقة ظهور ذات الحق من غير حجاب التعيّنات ومحو الكثرات الموهومة في نور الذات. أما الحق والحقيقة، فالحق هو الذات، والحقيقة هي الصفات، وقيل: الحقيقة هي التوحيد، وقيل هي مشاهدة الربوبية»[2].

ويقول الهجويري: «مرادهم بهذا اللفظ: إقامة العبد في محلّ وصل الله، ووقوف سرّه على التنزيه»[3].

ونجد الحقيقة في قول النبي ﷺ لحارثة:

«كيف أصبحت؟» قال: أصبحت مؤمناً حقاً. فقال ﷺ: «لكلّ حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟».

قال: رأيت أهل الجنة يتزاورون، وأهل النار يتعاوون، ورأيت عرش ربي بارزاً.

فقال ﷺ: «أصبت فالزم».

وكذلك في كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي يخاطب فيه صاحبه كميل بن زياد، يقول الشيخ العارف والفقيه الوليّ الكامل فخر الإسلام وسند الشيعة وذخر الملّة العالم بالله وبأمر الله السيد حيدر الآملي:

«وأمّا أقوال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام والتي لا توجد في «نهج البلاغة»

(١) اصطلاح الصوفية، ص٧.
(٢) كشاف اصطلاحات الفنون، ج٢، ص٨٦.
(٣) كشف المحجوب، ص٦٢٨.

لكنّها مشهورة ومعروفة، فهي كلامه الذي ذكرناه في مقدّمتنا والذي يُخاطب فيه كُمَيْلَ بْنَ زِيَادٍ النَّخَعِيّ رضي الله عنه:

كان كميل قد سأل الإمام في أوّل حديثه: مَا الحَقِيقَةُ؟

قَالَ: «مَا لَكَ وَالحَقِيقَة؟!».

قَالَ: أَوَلَسْتُ صَاحِبَ سِرِّكَ؟!

قَالَ: «بَلَى! وَلَكِنْ يَرْشَحُ عَلَيْكَ مَا يَطْفَحُ مِنّي!».

قَالَ: أَوَمِثْلُكَ يُخَيِّبُ سَائِلاً؟!

قَالَ: «الحَقِيقَةُ كَشْفُ سُبُحَاتِ الجَلاَلِ مِنْ غَيْرِ إِشَارَةٍ».

قال: زِدْنِي فِيهِ بَيَاناً!

قَالَ: «مَحْوُ المَوْهُومِ مَعَ صَحْوِ المَعْلُومِ».

قَالَ: زِدْنِي فِيهِ بَيَاناً!

قَالَ: «هَتْكُ السِّتْرِ لِغَلَبَةِ السِّرّ».

قَالَ: زِدْنِي فِيهِ بَيَاناً!

قَالَ: «جَذْبُ الأَحَدِيَّةِ بِصِفَةِ التَّوْحِيدِ».

قَالَ: زِدْنِي فِيهِ بَيَاناً!

قَالَ: «نُورٌ يُشْرِقُ مِنْ صُبْحِ الأَزَلِ، فَتَلُوحُ عَلَى هَيْكَلِ التَّوحِيدِ آثَارُهُ».

قَالَ: زِدْنِي فِيهِ بَيَاناً!

قَالَ: «أَطْفِىء السِّرَاجَ فَقَدْ طَلَعَ الصُّبْحُ!».

وقد أورد السيد حيدر كلاماً في شرح هذه المحاورة[١].

فالحقيقة هي نهاية الطريق، والشريعة طريقة الوصول إلى الحقيقة أي

---

(١) انظر كتابه «جامع الأسرار» ص١٧٠.

التوحيد والفناء، ولا حقيقة بدون شريعة.

وجاء في رسالة القشيري:

«الشريعة أمر بالتزام العبودية، والحقيقة مشاهدة الربوبية. فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول، وكل حقيقة غير مقيّدة بالشريعة فغير محصول. فالشريعة جاءت بتكليف الخلق، والحقيقة إنباءٌ عن تعريف الحقّ، فالشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده. والشريعة قيام بما أمر، والحقيقة شهود لما قضى وقدَّر، وأخفى وأظهر»[1].

ويقول الهجويري:

«الشريعة تكون بدون حقيقة رياءً، وتكون الحقيقة بدون شريعة نفاقاً، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ فالمجاهدة شريعة، والهداية حقيقة. والأولى هي حفظ العبد لأحكام الظاهر على نفسه، والثانية هي حفظ الحقّ لأحوال الباطن عن العبد.

والشريعة من المكاسب، والحقيقة من المواهب، وإذا صار هذا مسَلَّماً فإنه يوجد فرق كبير بينهما»[2].

كلام المؤلف في المراتب الثلاث:

بعد هذا كله يتّضح لنا أنّ الشريعة والطريقة والحقيقة على حقيقة واحدة، وليس هناك بين هذه المراتب مغايرة حقيقية أو تضاد أو خلاف كما يتصوّر البعض.

يقول المؤلف في مقدمة كتابه: «ويتحقّق أنّ الشريعة والطريقة والحقيقة

---

(١) الرسالة القشيريّة، أبو القاسم القشيري، ص٤٣.

(٢) كشف المحجوب، ص٦٢٧.

مترادفة صادقة على حقيقة واحدة باعتبارات مختلفة، وليس فيها خلاف نفس الأمر . . ».

ثم يبيّن أنّ لهذه المراتب الثلاث مقتضيات مراتب أخر التي هي متصلة في الأمر نفسه وهي: النبوة والرسالة والولاية. لأنّ الشريعة من اقتضاء الرسالة، والطريقة من اقتضاء النبوة، والحقيقة من اقتضاء الولاية. . وستقرأ ذلك مفصلاً في مقدمة المؤلف. . ثم يبيّن أنّ حقيقة هذه المراتب واحدة ويضرب على ذلك أمثلة كاسم العقل والقلم والنور على حقيقة واحدة، وكذلك الفؤاد والقلب والصدر حقيقة واحدة. .

ويثبت المؤلف أيضاً في مقدمته التي تعتبر مفتاح الدخول إلى أسرار الكتاب وفي غاية الأهمية والفائدة. . أنّ هذه أسماء صادقة على حقيقة واحدة باعتبارات مختلفة، وليس بينها تغاير في الحقيقة ويبين أيضاً أنَّ أهل الحقيقة أعظم من أهل الطريقة، وأهل الطريقة أعظم من أهل الشريعة. . ثم يعرّف المراتب الثلاث. ومن التعريفات التي ذكرها أنّ الشريعة على ما قيل هي أن تعبده، والطريقة أن تحضره، والحقيقة أن تشهده. وقيل: الشريعة أن تقيم بأمره، والطريقة أن تقوم بأمره، والحقيقة أن تقوم به. ويعضد ذلك كله قول النبيﷺ: «الشريعة أقوالي، والطريقة أفعالي، والحقيقة أحوالي، الخ. . »

وفي هذه المراتب الثلاث تنحصر جميع مراتب الناس أي العوام والخواص وخواص الخواص، أو البداية والوسط والنهاية، والكل داخل في الشرع لأنّ الشرع اسم شامل لكل ذلك، وفي هذه المراتب أشار الحق سبحانه بقوله: علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين. والمقام الأخير هو مقام الفناء واضمحلال اسم العبد في الرب عز وجل. . .

الشريعة والطريقة والحقيقة في كلام الشهيد مطهري:

يقول الشيخ الشهيد مرتضى المطهري:

«أحد موارد الاختلاف المهمّة بين العرفاء وغيرهم وخاصة الفقهاء هو ما يتعلق بنظرية العرفاء الخاصة بشأن الشريعة والطريقة والحقيقة.

العرفاء والفقهاء متّفقون على أنّ الشريعة (وهي مجموعة الأحكام والقوانين الإسلامية) مبنية على سلسلة من الحقائق والمصالح. والفقهاء يفسّرون هذه المصالح عادة بأنها أمور توصل الإنسان إلى السعادة، وهي الحدّ الأعلى الممكن للاستفادة من المواهب المادية والمعنوية. ولكن العرفاء يعتقدون أنّ جميع الطرق تنتهي إلى الله، وأنّ جميع المصالح والحقائق تكون من نوع الشرائط والإمكانات والوسائل التي تسوق الإنسان إلى الله تعالى.

الفقهاء يقولون إنّ هناك سلسلة من المصالح الخفية (المجهولة) وراء الشريعة (الأحكام والمقررات) وتلك المصالح هي بمنزلة العلل والروح للشريعة، وأنّ السبيل الوحيد لنيل تلك المصالح والوصول إليها هو في ظل تطبيق أحكام الشريعة والعمل بها، ويكتفون بهذا المقدار فقط. أما العرفاء فإنهم يعتقدون أنّ المصالح والحقائق المخفية في تشريع الأحكام هي من نوع المنازل والمراحل التي تسوق الإنسان إلى مقام القرب الإلهي، والوصول إلى الحقيقة.

يعتقد العرفاء أنّ باطن الشريعة «طريق» ويسمّونه «بالطريقة» ونهاية هذا الطريق هي «الحقيقة» أي التوحيد بالمعنى الذي أشرنا إليه سابقاً، حيث يصل العارف فيه إلى تلك المرحلة من الفناء عن ذاته وترك أنانيته بالمطلق. ولهذا يعتقد العارف بثلاثة أشياء:

الشريعة. الطريقة. الحقيقة.

فالشريعة طريقة الوصول إلى الحقيقة.

أما طريقة تفكير الفقهاء ورؤيتهم للإسلام.. فهم يعتقدون أنّ التعاليم الإسلامية يمكن اختصارها في ثلاثة أقسام:

الأول: قسم أُصول العقيدة، ويبحث في علم الكلام. ويلزم على الإنسان أن يستخدم عند البحث عن الأمور المتعلقة بأصول العقيدة طريق العقل، والايمان الثابت الذي لا يتزلزل.

الثاني: قسم الأخلاق، في هذا القسم يبيّن الإسلام سلسلة من التعاليم التي ينبغي للإنسان أن يتعامل معها عملياً كترك الرذائل الأخلاقية والتحلي بفضائلها. يقوم علم الأخلاق ببيان هذه الأمور.

الثالث: قسم الاحكام الذي يرتبط بأعمال الإنسان الخارجية، ويتعهد علم الفقه أن يبيّن مثل هذه الأمور.

وهذه الأقسام الثلاثة منفصلة عن بعضها البعض. فالعقيدة ترتبط بالعقل والفكر، وقسم الأخلاق يرتبط بالنفس والملكات والعادات النفسانية، أما قسم الأحكام فيرتبط بالأعضاء والجوارح.

ولكن العرفاء لا يعتبرون أنّ مجرّد الاعتقاد الذهني والعقلي في مجال العقائد هو أمر كافٍ، فهم يدّعون أنّ على الإنسان أن يصل إلى الأمور التي يجب أن يعتقد بها ويؤمن بها، وينبغي العمل لإزالة تلك الحجب بين الإنسان والحقائق.

وفي القسم الثاني (الأخلاق) لا ينظر العرفاء إلى الأخلاق على أنها ساكنة ومحدودة، فهم يقترحون بدلاً من الاخلاق العلمية والفلسفية، ما يسمّى «بالسير والسلوك العرفاني» الذي يتألف من أمور ومسائل خاصة.

أما في القسم الثالث (الأحكام) فلا اعتراض لديهم سوى أنهم في بعض

الموارد الخاصة يشيرون إلى جملة من الأمور التي قد تؤخذ بأنها أحاديث ضد الأحكام والأوامر الإلهية.

ويعبّر العرفاء عن هذه الأقسام الثلاثة بـ«الشريعة، الطريقة، الحقيقة» ويعتقدون أنّ الإنسان ليس مجزءاً ومركباً من ثلاثة أقسام، أي: البدن والنفس والعقل. بل إنّ هذه الأجزاء في عين الاختلاف والتمايز عن بعضها البعض متّحدة، والنسبة بينها كنسبة الظاهر إلى الباطن. وكذلك فإنّ الشريعة والطريقة والحقيقة أيضاً من هذا القبيل، فأحدها ظاهر والآخر باطن والثالث باطن الباطن. وبالاضافة إلى هذا الاختلاف يعتبر العرفاء أنّ مراتب وجود الإنسان أكثر من ثلاثة، فهم يعتقدون بمراحل ومراتب ما وراء العقل...»[1].

حول المؤلف

مؤلف هذا الكتاب القيّم هو العارف المتألّه الولي السيد حيدر الآملي «قدس سره الشريف».

قال عنه الشهيد مطهري عند ذكره لعرفاء القرن الثامن:

السيد حيدر الآملي: أحد العرفاء المحققين، وله كتاب بعنوان «جامع الأسرار» يعدّ من الكتب الدقيقة في العرفان النظري المحيي الديني، وقد طبع مؤخراً بشكل جيد. وكتابه الآخر «نصّ النصوص في شرح الفصوص». كان معاصراً لفخر المحققين الحلّي الفقيه المشهور. ولا نعلم سنة وفاته[2].

مصادر سيرته:

أورد السيد حيدر الآملي معلومات حول سيرة حياته في مقدمات نصّ

---

(١) العرفان، ص٢٧.

(٢) العرفان، ص٨٠.

النصوص وجامع الأسرار ونقد النقود وأسرار الشريعة والمحيط الأعظم، إلاّ أنه لم يكتب ترجمة مستقلة مفصلة ووافية حول سيرته الزمنية وأوضاع أسرته وأساتذته في بداية رحلة تحصيله العلمي والكتب والعلوم التي قرأها. . ويبقى لتلك الشذرات والإشارات التي بثّها في حنايا كتبه فائدة في الاطلاع على كثير من أحواله. .

وقد ترجم له الكثير من المحدّثين، نذكر منهم لمن أحبّ الزيادة في الاطلاع:

آغا بزرك الطهراني في (طبقات أعلام الشيعة) «المئة الثامنة».

عباس القمي في (الفوائد الرضوية في أحوال علماء الجعفرية).

محسن الأمين العاملي في (أعيان الشيعة).

القاضي نور الدين التستري في (مجالس المؤمنين).

محمد علي التبريزي في (ريحانة الأدب).

محمد باقر الخوانساري في (روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات).

عبد الله افندي الأصفهاني في (رياض العلماء وحياض الفضلاء).

معصوم علي شاه في (طرائف الحقائق).

إسماعيل باشا البغدادي في (هدية العارفين).

عمر كحالة في (معجم المؤلفين).

محمد جواد كوهري في (تصوّف الشيعة).

كامل مصطفى الشيبي في (الصلة بين التصوف والتشيع).

عبد الحسين زرين كوب في (دنبالة جستجو در تصوف إيران).

شهاب الدين المرعشي على ظهر (مخطوطة المحيط الأعظم).

عثمان يحيى في (مقدمة جامع الأسرار).

محمد خواجوي في (مقدمة أسرار الشريعة).

خنجر حمية في أطروحته عن (شيخ آمل)[1].

هنري كوربان في أبحاثه ودراسته.

اسمه:

هو حيدر بن علي بن حيدر، وتكاد تجمع المصادر على هذا الاسم الذي ذكره الآملي نفسه في كتبه بهذه الصورة، وقد تفرّد عمر كحالة في المستدرك على معجم المؤلفين فأطلق عليه اسم (حيدر بن حيدر) ولا نعرف مستنده في ذلك.

واعلم أنه قد يعبّر عن السيد حيدر الآملي بالسيد حيدر المازندراني، وتارة بالسيد حيدر العلوي، وأخرى بالسيد حيدر بن علي بن حيدر العلوي، ومرة بالسيد حيدر بن علي بن حيدر الآملي، فيتوهّم لذلك تعدّده، ولكنّ الحق أنّ الكل عبارة عن شخص واحد كما لا يخفى[2].

ألقابه:

وهي كثيرة منها:

ركن الدين: ذكره الآملي نفسه في ترجمته في (المحيط الأعظم)، ورقة ٦٣، وقال: «أنا ركن الدين حيدر...» وفي خاتمة (المسائل المهنائية) وهي مخطوطة مكتوبة بخط الآملي تحتوي على نص المسائل الآملية.

ركن الحق والملّة والدين: ورد في إجازة أستاذه الشيخ عبد الرحمٰن القدسي.

---

(١) (شيخ آمل حياته الروحية وفكره) أطروحة أعدت لنيل الدكتوراه اللبنانية في الفلسفة للدكتور الشيخ خنجر حمية، وقد أفدنا منها كثيراً وعليها اعتمدنا في نقل مؤلفات الآملي.

(٢) انظر الحقائق الراهنة في المائة الثامنة، ص٢١٩.

العلوي: لانتمائه إلى البيت العلوي.

الحسيني: لانتسابه إلى الإمام الحسين بن علي عليه السلام.

المازندراني: نسبة إلى مازندران أو طبرستان، وهي إقليم في شمال إيران جنوب بحر الخزر.

العبيدي والعبيدلي: نسبة إلى بعض أجداده وهو: عبيد الله بن الأعرج بن الحسين الأصغر ابن الإمام زين العابدين عليه السلام.

الآملي: وهو أشهر ألقابه، نسبة إلى (آمل) وهي البلدة التي ولد فيها ونشأ وترعرع.

نسبه:

وقد صرّح السيد الآملي بنسبه كاملاً في سياق ترجمته لنفسه، وعدّد أجداده حتى وصل إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فهو يقول:

«أنا ركن الدين حيدر، ابن تاج الدين علي بادشاه، ابن السيد ركن الدين حيدر، ابن السيد تاج الدين بادشاه، ابن السيد محمد أمير، ابن علي بادشاه، ابن أبي جعفر محمد، بن زيد، بن أبي جعفر محمد، ابن الداعي، ابن أبي جعفر محمد، بن إبراهيم بن محمد بن الحسين الكوسج، ابن إبراهيم سناء الله، ابن محمد الحرون، ابن حمزة بن عبيد الله الأعرج ابن الحسين الأصغر، ابن علي بن الحسين زين العابدين، ابن الحسين الشهيد ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب»[1].

ولادته:

ولد السيد حيدر الآملي سنة ٧١٩هـ في بلدة آمل من أعمال طبرستان أو

---

(١) المحيط الأعظم، ورقة ٦٣، وانظر أيضاً نص النصوص، ص١٤٦.

مازندران، وقد أشار الآملي إلى تاريخ ولادته إشارة موجزة في (نص النصوص) فقال:

«ثم أمرني الحق بشرح فصوص الحكم، فشرعت في شرحه. وهذا كان بعد مجاورتي بالمشهد المقدس المذكور ثلاثين سنة.. وكان ابتدائي فيه سنة إحدى وثمانين وسبعمائة (٧٨١هـ) والانتهاء منه سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة (٨٧٢هـ) أعني أنه تمَّ في سنة واحدة، بل أقلّ منها، وكان عمري في هذه الحالة ثلاثاً وستين سنة».

ونستنتج مما ذُكر أنَّ ولادته كانت سنة (٧١٩هـ).

وذكر بعضهم أنه ولد سنة (٧٢٠هـ).

نشاته:

نشأ السيد حيدر الآملي في بلدته آمل، حيث ترعرع في كنف أسرته، ودرس مبادىء العلوم وأصول العقائد، ثم انتقل إلى مدن الجوار كخراسان واستراباد، وتوجَّه بعدها إلى أصفهان لمتابعة التحصيل العلمي. وهو يعبّر عن هذه المرحلة من حياته فيقول:

«اعلم أنني في عنفوان الشباب، بل من أيام طفولتي إلى مدة ثلاثين سنة أو قريب منها، كنت في تحصيل عقائد أجدادي المعصومين، من حيث الشريعة وطريق الظاهر، المخصوصة بالطائفة الإمامية من بين الشيعة، حتى حصّلت لبّها وخلاصتها، وقرأت العلوم المتعلقة بها من المنقول والمعقول على أستاذيها، بعضها في بلدي آمل الذي هو مولدي ومسقط رأسي، ومسقط رأس آبائي وأجدادي، وبعضها في خراسان واستراباد، وبعضها في أصفهان. وهذا كان في مدّة عشرين سنة»[1].

---

(١) المحيط الأعظم، ورقة ٦٣.

وكان مشغولاً في تلك الفترة بعلوم الباطن إلى جانب انشغاله بعلوم الظاهر، وكان يتعاطى طريقة أهل السلوك، ويمارس الرياضة والخلوة. حتى أنه يصرّح بنفسه في بعض المواضع، أنه كانت تحصل له رؤى ومكاشفات نتيجة رياضاته إبان إقامته في أصفهان لتحصيل العلم، فهو يقول: «اعلم أني كنت في حالة السلوك بأصفهان..»[1].

وقد صرّح في مكان آخر بما هو قريب من ذلك، وكان ذلك قبل خروجه من (آمل) بسنة أو أقل، يقول: «رأيت مرة في خراسان وكنت في أوان السلوك وابتداء التجريد.. وهذا كان سنة ٧٤٨هـ»[2].

أساتذته ومشايخه:

لم يبيّن الآملي شيئاً عن أساتذته في بداية تحصيله العلمي، ويبقى هذا الأمر مجهولاً بالنسبة إلينا.

ولكنه يذكر أنّه بعد أن خرج من آمل مهاجراً، ووصل إلى أصفهان، وأقام فيها للمرة الثانية، بعد أن كان قد قضى فيها فترة من شبابه بقصد الدراسة، فالتقى بمشايخ المدينة، ووقع بينه وبين أحد كبار شيوخها وهو نور الدين الطهراني عقد الأخوة والفتوة، ولبس على يديه خرقة التصوف (الصورية) وتلقّى منه الذكر، وقد عبّر الآملي عن ذلك فقال:

«واجتمعت بخدمة المشايخ الذين كانوا فيه [إصفهان] ووقع من بينهم عقد الأخوة والفتوة بيني وبين الشيخ الكامل المحقق نور الدين الطهراني، وهي [أي طهران] قرية على باب اصفهان من طريق دردشت، ويسميها العوام تيران، وهو في الأصل طِهران بكسر الطاء. وكان عارفاً زاهداً مقبولاً من

(١) نص النصوص، ص١١٢.

(٢) نص النصوص، ص٢٥٦.

الخاص والعام، ولبست الخرقة الصورية من يده بعد تلقين الذكر الخاص دون العام، وحصل لي من صحبته بهذه المدة القصيرة فائدة كثيرة، قدس الله روحه العزيزة»[١].

وكانت فترة صحبته لهذا الشيخ شهراً واحداً لم تزد[٢]. وقد أجازه الشيخ الطهراني بالخرقة الصورية إجازة مفصلة يذكرها الآملي فيقول:

«وأما صورة إجازتي في الخرقة الصورية التي لبستها من الشيخ المذكور نور الدين الأصفهاني [الطهراني] فقد ضاعت صورتها، لكن حاصلها: أني لبستها منه بالشرائط المقررة بين المشايخ، وهو لبسها من المشايخ الذين كانوا قبله بالشرائط المذكورة المقررة عندهم، وكذلك بإسناد خرقة كل واحد منهم إلى الآخر إسناداً صحيحاً مرتباً على شرائط الإسناد، حتى وصل إلى الذي لبسها عن الشيخ الكامل المكمّل شيخ الطائفة أبي القاسم محمد الجنيد رحمه الله، عن خاله السقطي، عن معروف الكرخي، عن علي بن موسى الرضا، عن موسى الكاظم، عن جعفر الصادق، عن الباقر، عن زين العابدين عن الحسين الشهيد، عن علي، عن النبي، عن جبريل»[٣].

وبعد رجوعه إلى العراق وإقامته فيها مجاوراً المشهد الغروي، اشتغل بالرياضة والخلوة والمجاهدة والطاعة والعبادة وتفرغ لطلب العلوم الحقيقية اللدنية، إلا أنه لم يجد في العراق من يُركن إليه في مثل هذه العلوم، سوى شخص واحد خامل الذكر، مغمور الحال، إلا أنه كان عارفاً كاملاً، ووليّاً من أولياء الله كبيراً، وهو عبد الرحمٰن بن أحمد القدسي أو المقدسي[٤].

---

(١) المحيط الأعظم، ورقة ٦٤.
(٢) المحيط الأعظم، ورقة ٦٤.
(٣) المحيط الأعظم، ورقة ٦٥.
(٤) المحيط الأعظم، ورقة ٦٤. وانظر أيضاً ما كتبه المرعشي على ظهر المخطوطة

وقد قرأ عليه الآملي كتاب منازل السائرين مع شرح الكاشي عليه، ثم كتاب فصوص الحكم مع شرح القيصري، وغيرهما من الكتب والرسائل.. وكان يضع على ما يتمّه من الكتب شروحاً وتعليقات وحواشي[1].

ولقد أجازه القدسي هذا إجازة مفصلة، وهذه صورتها:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة على نبيه محمد وآله أجمعين، أما بعد فقد قرأ عليَّ الإمام الهمام العالم الكامل، قطب الموحدين، زبدة المتبحرين، كهف الحاج والمعتمرين، المخصوص بعناية رب العالمين، السيد ركن الحق والملة والدين، حيدر بن تاج الدين علي بادشاه الحسيني الآملي أدام الله ظله، كتاب فصوص الحكم لمحيي الدين الأعرابي مع شرح القيصري، وكتاب منازل السائرين للشيخ أبي إسماعيل الهروي رحمه الله، مع شرح الفصوص لعفيف الدين التلمساني، قراءة مُرضية، تشهد بفضله وفطنته، وكانت استفادتي منه أكثر من استفادته مني. وكان ذلك بالمشهد الشريف الغروي.. سلخ رجب المرجب سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، وكتب الفقير إلى الله تعالى، عبد الرحمن بن أحمد القدسي، تجاوز الله عن سيئاته»[2].

وفي هذه المدة أيضاً حضر الآملي على الشيخ فخر الدين الحلي المشهور بفخر المحققين، وقد ذكر الآملي صورة الإجازة التي منحه إياها فقال:

«وكنت قد قرأت على الشيخ الأعظم الأكمل سلطان العلماء والمحققين، فخر الحق والملّة والدين، ابن المطهر الحلّي، من علوم أهل

---

(١) المحيط الأعظم، ورقة ٦٤.

(٢) المحيط الأعظم، ورقة ٦٥.

البيت، خلاف الذي قرأت في العجم كتباً كثيرة في الفروع والاصول، تقليداً واستجازة، وكان يخاطبني بزين العابدين الثاني، ويعتقد فيَّ أنني دون العصمة، مما كان شاهَدَ من حسن سيرتي ولطف طريقتي، وكتب لي إجازات متعددة، منها إجازة طويلة جامعة في جميع العلوم».

وهذه صورة الإجازة كما ذكرها الآملي:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله واجب الوجود، واهب وجود كل موجود، وصلى الله على خاتم الأنبياء محمد وآله الأصفياء، أما بعد، فقد قرأ عليَّ المولى السيد الأعظم، والإمام المعظم، أفضل العلماء في العالم، أعلم فضلاء بني البشر، مرشد السالكين، غياث نفوس العارفين، محيي مراسم أجداده الطاهرين، الجامع بين المعقول والمنقول، والفروع والأصول، ذو النفس القدسية، والأخلاق النبوية، أشرف آل رسول الله، أفضل الحاج والمعتمرين، المخصوص بعناية رب العالمين، ركن الملة والحق والدين، حيدر ابن السيد السعيد تاج الدين علي بادشاه، ابن السيد محمد أمير بن علي بادشاه، ابن أبي جعفر محمد بن زيد، ابن أبي جعفر محمد ابن الداعي، ابن أبي جعفر محمد بن إبراهيم بن محمد بن الحسين الكوسج، ابن إبراهيم سناء الله ابن محمد الحرون، ابن حمزة بن عبيد الله الأعرج، ابن الحسين الأصغر ابن الإمام زين العابدين، ابن الحسين الشهيد، ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، كتاب جوامع الجامع في تفسير القرآن المجيد لأبي الفضل الطبرسي، وكتاب شرائع الإسلام للشيخ الإمام السعيد نجم الدين بن سعيد رحمه الله، وكتاب مناهج اليقين في الكلام تصنيف والدي رحمه الله، وتهذيب الأحكام للشيخ الإمام أبي جعفر الطوسي قدس الله سره. ونهج البلاغة لأمير المؤمنين عليه السلام، وشرح نهج البلاغة لكمال الدين ميثم بن علي البحراني، قراءة مُرضية تشهد بتمام فضله، وكمال علمه، وبلوغه إلى أوج مرتبة التحقيق. وقد أجزت له رواية ذلك كله بالطرق التي لنا إلى المصنفين رحمة

الله عليهم أجمعين، وأجزت له رواية جميع مصنفاتي في العلوم العقلية والنقلية، وجميع ما نقلته ورويته من كتب أصحابنا السابقين رضوان الله عليهم أجمعين، بإسنادي إليهم، خصوصاً كتب والدي قدس الله روحه، وعفى عنه. وكتب الشيخ المفيد محمد بن محمد النعمان، عنّي، عن والدي، عن جدي، وعن الشيخ السعيد نجم الدين أبي القاسم جعفر بن سعيد، وعن السيد جمال الدين أحمد بن طاوس الحسني وغيره، عن الشيخ يحيى بن محمد بن يحيى بن الفرج السوراوي، عن الشيخ الفقيه يحيى بن هبة الله بن رطبة، عن المفيد أبي علي الحسن ابن الشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، عن والده، عن الشيخ المفيد رحمه الله.

وكتب محمد بن الحسين بن يوسف المطهر في رمضان سنة إحدى وستين وسبعمائة بالحلة، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين»[١].

وهذه الوثيقة من النصوص المخطوطة، نقلنا نصّها لأهميتها وعظيم قيمتها، ولا مجال للتشكيك في صحتها، فالآملي يذكرها بنفسه. وقد افترض الطهراني في الذريعة[٢] أنَّ صاحب الإجازة هو شخص آخر غير الآملي واسمه حيدر بن علي، ولكنه عدل عن رأيه هدا، بعدما خانته الأدلة واستدرك ذلك في الطبقات[٣]، بعد أن وقع في الاشتباه والسهو.

والحق أنَّ هناك شخصاً آخر باسم حيدر وهو حيدر الموسوي التوني، وخلط كثيرٌ بينه وبين الآملي، وقد نبَّه على ذلك الخوانساري[٤]، وكذا نبَّه

(١) المحيط الأعظم، ورقة ٦٥.
(٢) الذريعة، ج٣، ص٣٠٧ ـ ٣٠٨.
(٣) طبقات أعلام الشيعة، ص٧٠.
(٤) الروضات، ج٢، ص٣٨٠.

الأصفهاني[1] على شخص آخر وهو حيدر بن علي البيهقي، وهو ممن درس عند فخر المحققين، وممَّن عُدَّ من أساتذته أيضاً نصير الدين الكاشاني الحلي المتوفى سنة ٧٧٥هـ.

وقد ذكر ذلك كثير. وذكره الآملي نفسه في جامع الأسرار فقال:

«منهم الإمام العالم والحكيم والفاضل نصير الدين الكاشي، فإني سمعتُ منه مراراً كثيرة هذا الكلام بعينه، وهو أنه يقول: نهاية ما قد علمت في مدة ثمانين سنة، هو أنَّ هذا المصنوع محتاج إلى صانع. ومع ذلك، فتيقُّن عجائز الكوفة أكثر من تيقني في هذا الباب..».

ويظهر من كلامه أنه كان من المشتغلين بالفلسفة.

وعدَّ كوهري[2] من اساتذته محمد بن أبي بكر السمناني واعتبره من شيوخه، وأنه ألبسه الخرقة ولقّنه الذكر، وهو اشتباه وفهم خاطىء لما أورده محمد خواجوي في مقدمة أسرار الشريعة بالفارسية نقلاً عن المحيط الأعظم وهو قوله:

«فذكر بعض الفقراء هذا المعنى، وهو قوله: تلقن هذا الفقير الضعيف محمد بن أبي بكر السمناني.. من الشيخ الصالح، الخ» وهو في الحقيقة ينسب خرقة المشايخ إلى كميل بن زياد، ومن جملة هؤلاء من أسماه ببعض الفقراء الذي أخذ خرقته عن الشيخ الصالح فتأمل.

وأيضاً عدّ الأصفهاني[3] من شيوخه الحسن بن حمزة الهاشمي، ولم نعثُر له على ذكر عند غيره.

---

(١) الرياض، ج٢، ص٢١٧.

(٢) تصوف الشيعة، ص٥٨ ـ ٦٠.

(٣) رياض العلماء، ج٢، ص٢١٩.

وصف العلاّمة المرعشي لنسخة «المحيط الأعظم» ومؤلفها:

كتب العلاّمة الحجّة المرعشيّ النجفيّ بظهر النسخة الخطّيّة من تفسير «المحيط الأعظم» والمكتوبة بخطّ المؤلّف السيد حيدر الآمليّ والموجودة والمحفوظة في مكتبة السيّد المرعشيّ العامّة في بلدة قم، واصفاً تلك النسخة ومؤلّفها بما يلي:

«كتاب (المحيط الأعظم) في تفسير القرآن الكريم، من تأليف العلاّمة الفقيه والمحدّث الحكيم والمتألّه المتكلّم، والعارف الأديب السيّد أبي محمّد ركن الدين حيدر بن تاج الدين علي پادشاه... ابن حمزة بن عبيد الله الأعرج ابن الحسين الأصغر ابن الإمام سيّد الساجدين عليه السلام. وُلِدَ في (مدينة) آمُل وخرج متجوّلاً من هناك نحو بلاد خراسان وجُرجان وأصفهان، ومكث في الأخيرة سنوات عديدة مستفيضاً من علمائها. ثمّ عاد إلى آمُل واتّصل بفخر الدولة ابن الشاه كيخسرو وأضحى من خواصّه. وفخر الدولة هذا هو من أولاد پادشاه أردشير بن حسن ابن تاج الدولة، وهو الذي مدحه الشاعر المعروف ظهير الدين الفاريابيّ. فدخل السيّد حيدر بذلك زمرة العرفاء، وطفق راجعاً إلى أصفهان واجتمع بالشيخ العارف نصير الدين الطهرانيّ[1] (نزيل محلّة «دردشت» والمعروفة بـ«باب شيراز» وهي من محلاّت أصفهان)، فوضع يده بيده وشرع في تعلُّم الذِّكر منه. ثمّ هاجر بعد ذلك إلى العراق حيث زار المراقد الشريفة للأئمّة هناك، وحطّ رَحْلَه في النجف الأشرف. ثمّ حجّ من هناك ورجع إلى النجف ثانية.

وقد تلقّى العلوم الرسميّة والمقدّمات من أبيه وعلماء آمُل، فأخذ العرفان عن الشيخ عبد الرحمن القدسيّ، والفقه عن فخر المحقّقين ابن العلاّمة الذي

---

(١) كذا ذكره السيد المرعشي، والصحيح أنه نور الدين الطهراني، ولعل المرعشي خلط بينه وبين نصير الدين الكاشاني، المعدود من أساتذته.

كان يخاطبه باسم «زين العابدين» وقد روى السيّد حيدر عنه بإجازة منه، وتوجد صورة تلك الإجازة في الكتاب المذكور. وقد عبّر عنه الشيخ في إجازته له بالعبارات التالية:

السيّدُ الأعظم، الإمامُ المُعظّم، أفضلُ العلماءِ في العالَم، أعلمُ فُضلاء بني آدَم، مُرشدُ السالكين، غِياثُ نفوسِ العارفين، مُحيِي مَراسم أجدادِه الطاهرين، الجامعُ بَينَ المعقولِ والمنقول، والفروعِ والأصول، ذو النفسِ القُدسيّة، والأخلاقِ النبويّة، شَرفُ آلِ رسولِ ربِّ العالَمين، أفضلُ الحاجّ والمعتمِرين، المَخصوصُ بعنايةِ ربِّ العالمين، ركنُ الملّة والدين ـ إلى آخره.

وقد كُتبت هذه الإجازة في ظهر صفحة «جوامع الجامع» للطبرسيّ والذي قرأه السيّد على فخر الدولة، وكان تأريخ الإجازة سنة ٧٦١ في الحلّة.

وقد قرأ السيّد كتابي «الفصوص» و«منازل السائرين» على الشيخ عبد الرحمن بن أحمد القدسيّ، فمنحه الإجازة، وتأريخها هو ٧٣٥.

وقد صنّف السيّد حيدر أربعة وعشرين كتاباً، ومن جملة تلك المصنّفات كتاب «المحيط الأعظم» في عدّة مجلّدات، وهذا المجلّد هو واحد من المجلّدات المذكورة. وقد كُتبت جميع صفحات هذه المخطوطة بخطّ يده. وتوجد هذه المخطوطة في خزانة كتب حجّة الإسلام والمسلمين الحاجّ الآقا حسن الحسينيّ القمّيّ المشهور بـ«سيّدي» في جملة كتب جدّه العلاّمة الحاج ميرزا أبو طالب القمّيّ الداماد المحقّق صاحب «القوانين». وقد تفضّل علينا بإدراج هذه النسخة الوحيدة في العالم لتكون ضمن كتب مكتبتي العامّة والموقوفة التي أسّستها في مدينة قم. ويوجد المجلّد الآخر بخطّ المؤلّف في مكتبة الإمام عليّ عليه السلام، وللمؤلّف المذكور كتب أُخرى من جملتها «الكشكول فيما جرى على آل الرسول» وكتاب آخر في العرفان والذي طبع

في طهران بإشراف المستشرق الفاضل «مسيو كربن» مدرّس مادّة الإلهيّات في جامعة باريس. وللسيّد حيدر مؤلّفات أُخرى كذلك في علوم مختلفة وفنون متنوّعة. وتوجد ترجمة المؤلّف في معاجم التراجم مثل: «أعيان الشيعة» و«رياض العلماء» و«الروضات» و«ريحانة الأدب» ويلزم مراجعتها. وللسيّد حيدر ذرّيّة في مازندران.

حرَّره الداعي الكَئيب شهاب الدين الحسينيّ المرعشيّ النجفيّ، ببلدةِ قم المشرَّفة حرمِ الأئمة عليهم السلام، في صَبيحةِ الخميس، ١١ مِن ذي القعدةِ سنةَ ١٣٩١ القمريّ، حامداً مصلّياً مسلّماً مستغفِراً؛ والحمدُ لله على نِعَمه وَآلآئه».

انتهى تعليق آية الله المرعشيّ بظهر كتاب تفسير «المحيط الأعظم».

كيفية أحوال وسلوك السيد حيدر الآمليّ (قدس الله سره):

يقول السيّد حيدر في خاتمة كتاب «المقدّمات من كتاب نصّ النصوص» والذي بيّن فيه كيفيّة أحواله وسلوكه في ص٥٣٥:

«لمّا كان الله قد أمرني أن أترك ما سواه، ووجّه انتباهي إليه على أكمل وجه فقد ألهمني البحث عن مكان أقيم فيه وأشتغل بطاعته وعبادته بحسب ما أمرني وأشار به عَلَيّ. فتوجّهتُ صوب مكّة شرّفها الله تعالى؛ وذلك بعد أن هجرت الوزارة والرياسة والمال والجاه والأب والأُمّ وجميع الأقارب والإخوان والأقران. فلبست لباساً رثّاً لا قيمة له، وخرجت من بلدتي (آمُل) من نواحي طبرستان من نواحي خراسان. وكنتُ وزيراً لملك تلك البلدة وهو من أعاظم ملوك فارس، لأنّه كان من أعظم أحفاد كسرى واسمه الملك السعيد فخر الدولة ابن الشاه المرحوم (شاه كيخسرو) طيّب الله ثراهما وجعل الجنّة مثواهما ـ وكان عمري آنئذٍ ثلاثين سنة...».

ويقول في ص٥٣٦ و٥٣٧ : «حتّى وصلتُ مكّة وأدّيتُ مراسم الحجّ الواجب. وكان ذلك سنة (٧٥١)... ثمّ رجعتُ بعد ذلك إلى النجف الأشرف سالماً وسكنتُ هناك، وأقمتُ مراتب الرياضة والخلوة والطاعة والعبادة كأكمل ما يكون، وأحسن ما يُتصوّر. ثمّ أفاض على قلبي ـ غير ما ذكرت ـ من «تأويل القرآن» و«شرح الفصوص» من المعاني والمعارف والحقائق والدقائق ممّا لا يمكن تفصيله وشرحه بأيّ وجه من الوجوه، لأنّها من كلمات الله التي لا تُعدّ ولا تُحصى والتي لا انتهاء ولا انقطاع لها.

ثمّ أمرني الحقّ تعالى أن أُبيّن بعضاً منها لخواصّ عباده. فشرعتُ في تصنيف كتاب في التوحيد وأسراره كما يستحقّ، وأتممتُ كتابته في أقصر مدّة وسمّيته «جامع الأسرار ومنبع الأنوار». ثمّ واصلتُ بعد ذلك تأليف «رسالة الوجود في معرفة المعبود» ثمّ «رسالة المعاد في رجوع العباد» ثمّ ألّفتُ بعدهما رسائل وكتب أُخرى، حتّى بلغت مؤلّفاتي الأربعين بين رسالة وكتاب بالعربيّة والفارسيّة. ثمّ أمرني الحقّ تعالى بتأويل القرآن الكريم، فدوّنته بعد كلّ الكتب والرسائل التي ذكرتها حتّى اكتمل في سبعة مجلّدات، وأسميتهُ «المحيط الأعظم والطود الأشمّ، في تأويل كتاب الله العزيز المُحكم» فخرج الكتاب المذكور في أبهى صورة وغاية الكمال، ومنتهى البلاغة والفصاحة بعناية الملك ذي العزّة والجلال؛ بحيث لم يسبقني إلى هذا أحد من قبل لا من جهة الترتيب ولا من جهة التحقيق أو التلفيق، وقد مرّ بيان ذلك أيضاً في الفهرست.

وبعد هذا أمرني الحقّ تعالى بشرح «فصوص الحكم» والمنسوب إلى رسول الله ﷺ والذي أوحاه في عالم الرؤيا إلى الشيخ الأعظم محيي الدين ابن عربي آمراً إيّاه وقال: «أَوْصِلْهُ إلَى عِبَادِ اللهِ المُسْتَحِقِّينَ المُسْتَعِدِّينَ». كما أوضحنا ذلك كذلك في الفهرست. فشرعتُ بكتابة هذا الشرح بحسب التقرير الذي مرّ بيانه والتحقيق الآنف الذكر.

وكان ابتداء شروعي بتأليف «شرح الفصوص» في سنة (٧٨١) للهجرة، وانتهائي منه في سنة (٧٨٢) أي أنَّ هذا الشرح انتهى واكتمل خلال سنة واحدة فقط أو أقلّ. وكان عمري يومئذٍ ٦٣ عاماً. رزقنا الله الوصول والبلوغ إلى الغاية، وهو ما قرّره الله في اللوح المحفوظ، ووفّقنا لإتمام مثله كثيراً؛ بفضله وكرمه، وما ذلك على الله بعزيز».

يقول العلاّمة العارف الكامل آية الله السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني:

«هذا وقد وضع السيّد حيدر هذا المجلّد من الكتاب بأكمله في مقدّمات كتاب (نصّ النصوص في شرح الفصوص) ثمّ شرع بعد ذلك في الكتاب نفسه، والذي يقع في مجلّدات أخرى.

ونستنتج ممّا ذُكر في ملحق التواريخ أعلاه أنّ ولادته كانت سنة (٧٢٠) وقد صرّح بذلك في مقدّمة كتاب (جامع الأسرار)».

مؤلفاته:

١ ـ **كتاب الأصول والأركان في تهذيب الأصحاب والإخوان**: وهذا الكتاب لم يعثر عليه إلى الآن.

٢ ـ **أسرار الشريعة وأطوار الطريقة وأنوار الحقيقة**: وهو هذا الكتاب الذي بين يديك.

٣ ـ **أمثلة التوحيد وأبنية التجريد**: ألّفه بالفارسية، ولم يعثر عليه إلى الآن.

٤ ـ **جامع الأسرار ومنبع الأنوار**: طبع لأول مرة في طهران بتحقيق هنري كوربان وعثمان يحيى، والكتاب من أهم كتب الآملي وأنفسها.

٥ ـ **جامع الحقائق**: ذكره الآملي في جامع الأسرار مرة واحدة، وصرّح

أنه ألّفه بالفارسية لأن طالبيه كانوا أعجاماً، ولم يعثر عليه إلى الآن.

٦ ـ **رسالة الأسماء الإلٰهية**: ذكرها الآملي مرة واحدة في نص النصوص في فهرست مؤلفاته، ولم يعثر على هذه الرسالة إلى الآن.

٧ ـ **رسالة الأمانة الإلهية في تعيين الخلافة الربّانية**: ذكرها الآملي في جامع الأسرار مراراً، ولم يعثر عليها إلى الآن.

٨ ـ **رسالة التنبيه في التنزيه**: ذكرها في نص النصوص وجامع الأسرار، وهذه الرسالة أيضاً لم يعثر عليها إلى الآن.

٩ ـ **رسالة التوحيد**: ذكرها الآملي في جامع الأسرار، ولم يتم العثور عليها إلى الآن.

١٠ ـ **رسالة الجداول أو مدارج السالكين في مراتب العارفين**: ذكرها الآملي في نص النصوص مرتين، وذكر أيضاً عنواناً قريباً وهو «منبع الجداول ومجمع الدوائر» ولعله كتاب مستقل. ولم يُعثر على هذه الرسالة إلى الآن.

١١ ـ **رسالة الحجب وخلاصة الكتب**: أشار إليها الآملي في فهرست مصنفاته في نص النصوص، كتبها بالعربية والعجمية، وإلى الآن لم يتم العثور على هذه الرسالة.

١٢ ـ **رسالة العقل والنفس**: ذكرها الآملي مرة واحدة في نص النصوص في فهرست مؤلفاته، ولم يعثر عليها إلى الآن.

١٣ ـ **رسالة العلم وتحقيقه**: ذكرها الآملي أيضاً مرة واحدة في فهرست نص النصوص. ولم يعثر عليها إلى الآن.

١٤ ـ **رسالة العلوم العالية**: لم ترد في كلمات الآملي ولا في نص من نصوصه التي بين أيدينا، ولعلها هي رسالة العلم.

١٥ ـ **رسالة الفقر وتحقيق الفخر**: ذكرها الآملي في نص النصوص.

١٦ ـ **رسالة كنز الكنوز وكشف الرموز**: ذكرها الآملي في فهرست مصنفاته في نص النصوص، ولم يعثر على هذه الرسالة إلى الآن.

١٧ ـ **رسالة المعاد في رجوع العباد**: ذكرها الآملي في نص النصوص وفي المحيط الأعظم، ولم يعثر عليها إلى الآن.

١٨ ـ **رسالة منتخب التأويل**: ذكرها الآملي في فاتحة جامع الأسرار، وتوجد نسخة في مكتبة ملك في طهران، والظاهر أن هذه الرسالة منتخبة من تأويل الرازي (نجم الدين ذية) وهي شبه حواشٍ على الكتاب قصد منها تصحيح بعض انحرافات الأصل، يقول الآملي: «وأكثر حاشيتنا على كتابه [أي الرازي] لم يكن إلا في هذه المواضع، فإنه في مثل هذا المقام يأخذ طرف الأشاعرة والجبرية، ويحكم بعدم عصمة الأنبياء والرسل»[١].

١٩ ـ **رسالة النفس في معرفة الرب**: ذكرها الآملي في فهرست مصنفاته في نص النصوص، ولم يعثر على هذه الرسالة إلى الآن.

٢٠ ـ **رسالة نقد النقود في معرفة الوجود**: ذكرها الآملي في نص النصوص في فهرست مؤلفاته، وقال إنها منتخبة من رسالة الوجود. وقد طبعت في طهران في مجلد واحد مع جامع الأسرار.

٢١ ـ **رسالة الوجود في معرفة المعبود**: ذكرها الآملي في فهرست مصنفاته في نص النصوص، لم يعثر عليها إلى الآن.

٢٢ ـ **كتاب تعيين الأقطاب والأوتاد**: ذكره الآملي في فهرست نص النصوص، ولم يعثر على هذه النسخة إلى الآن.

٢٣ ـ **المحيط الأعظم والطود الأشم في تأويل كتاب الله العزيز المحكم**: ذكره الآملي بالعنوان نفسه في نص النصوص، ومن الواضح لدينا أنه ليس

(١) المحيط الأعظم، ورقة ٢٣٤.

للآملي إلا تفسير واحد، تارة يسمّى بالمحيط الأعظم والطود الأشم، وأخرى بالمحيط الأعظم والبحر الخضم، وثالثة التأويلات، وأخرى تأويل القرآن، وكلها أسماء لمصنف واحد كما لا يخفى. وقد جاء في سبعة مجلدات كبار إلا أنه لم يبق منه سوى جزأين محفوظين في مكتبة المرعشي العامة في قم، والتفسير هذا بخط الآملي نفسه، وهو مكتوب سنة ٧٧٧هـ. وقد ورد بخط المؤلف على الورقة الأولى من الجزء الثاني من المخطوطة، مبتدئاً بتفسير الفاتحة، هكذا:

«الله مفتح الأبواب، هذا المجلد الثاني من الكتاب الموسوم بالمحيط الأعظم والبحر الخضم في تأويل كتاب الله العزيز المحكم للعبد الفقير إلى رحمة ربّه الغني، حيدر بن علي بن حيدر العلوي الحسيني الآملي أصلح الله شأنه ووفقه لإتمامه بمحمد وآله، وقد اتفق ذلك سلخ شوال بالمشهد الغروي المقدس، سنة سبع وسبعين وسبعمائة من الهجرة النبوية»[١].

والاسم هنا يختلف قليلاً عما ذكره في النصوص، فقد ذكره هناك باسم المحيط الأعظم والطود الأشم، وهنا باسم المحيط الأعظم والبحر الخضم، وقيمة هذا النص أنه يحدد لنا تاريخ تأليف الكتاب.

٢٤ ـ **المسائل الآملية**: لم يتعرّض الآملي لذكر هذه الرسالة في أي من كتبه التي بين أيدينا، ولعلّ السرّ في ذلك أنها لا تشكل مؤلفاً بالمعنى الدقيق للكلمة، بل هي جملة أسئلة وجهها الآملي في بداية إقامته في العراق إلى الشيخ فخر الدين الحلي، فأجابه عليها. ويوجد لهذه المسائل نسختان في المكتبة المركزية لجامعة طهران.

٢٥ ـ **منتخبات أنوار الشريعة**: لم يذكرها الآملي، ولعلها لغيره ومنتخب

(١) المحيط الأعظم، ورقة ١٨٢.

من بعض مصنّفاته، ويحتمل أيضاً أنّ الآملي نفسه قد لخص فيه كتاب أسرار الشريعة. ويوجد نسخة محفوظة في جامعة طهران.

٢٦ ـ **منتقى المعاد في مرتقى العباد**: ذكره الآملي في فهرست مصنفاته في نص النصوص، ولم يعثر على هذا الكتاب إلى الآن.

٢٧ ـ **منبع الدوائر ومجمع الجداول**: ذكره الآملي عدة مرات في نص النصوص، ولعله عنوان لكتاب مستقل، وقد يكون عنوان لأحد كتبه السابقة وخصوصاً رسالة الجداول.

٢٨ ـ **المبدأ والمعاد**: ذكره الآملي مرة واحدة في المحيط الأعظم.

٢٩ ـ **نهاية التوحيد في بداية التجريد**: ذكره الآملي في افتتاحيات نص النصوص ضمن فهرست مؤلفاته، وصرّح أنه منتخب من جامع الأسرار، ولم يعثر على هذا الكتاب إلى الآن.

٣٠ ـ **نص النصوص في شرح الفصوص**: وهو آخر ما صنفه الآملي وكان ذلك سنة ٧٨٢هـ كما يصرح هو بذلك، وهو في مجلدين كبيرين، ولا أثر للمجلد الثاني، أما المجلد الأول فهناك عدّة نسخ خطية منه، وقد طبع في طهران.

٣١ ـ **اصطلاحات الصوفية**: لم يذكره الآملي لا تصريحاً ولا تلميحاً، وقد وقع المترجمون في اضطراب في تحديد عنوانه، وقد أهمله المرعشي على ظهر مخطوطة المحيط، وشكك خواجوي بصحة النسبة، ويرجح جهة النفي، فلا حجة على كونه من كتبه، ولا عُثر على نسخة منه.

٣٢ ـ **زاد المسافرين**: لم يذكره الآملي ولا من ترجم له، استدركه عثمان يحيى في مقدمة جامع الأسرار اعتماداً على عبد الحسين الحائري واضع فهرست (مجلس شوراى ملى) الذي ظنَّ أنها من مصنفاته، ولم يعلق يحيى

على ذلك لا بسلب ولا إيجاب. والأرجح أنها ليست للآملي، وقد استدرك ذلك الحائري نفسه، وخط بيده في الهامش أن ما ظنّه سابقاً من كون هذه الرسالة للآملي ليس صحيحاً، وأن الرسالة لأحد شيوخ الطريقة الذهبية الرضوية.

٣٣ ـ **الكشكول فيما جرى على آل الرسول**: لم يذكره الآملي ولا أشار إليه، وتاريخ تأليف الكتاب يعود إلى سنة ٧٣٥هـ، والآملي كان في هذه السنة في عمر الخامسة عشرة (١٥)، ويجزم خواجوي أن هذا الكتاب ليس للآملي، وأدرجه ضمن الكتب المنحولة عليه، وهذا هو الأرجح.

وقد طبعه السيد الموسوي المقرم وحققه، ونشر في النجف سنة ١٩٥٣ على أساس أنه للآملي.

٣٤ ـ **رافعة الخلاف في وجه سكوت أمير المؤمنين عن الاختلاف**: وهذه من الرسائل المنسوبة إلى الآملي، ولم يذكرها في أي نص من نصوصه، وقد أبدى بعض من ترجم له تحفظهم على هذه النسبة، والأقوى أنها من التواليف المنحولة والمنسوبة للآملي، ولم يعثر على هذه الرسالة إلى الآن.

«وكتب بخطه بعض تصانيف المولى ركن الدين محمد بن علي بن محمد الجرجاني الذي فرغ من تصنيفه عام ٧٢٠ هجرية وفرغ المترجم له من كتابته عام ٧٦٢ في الغري في المدرسة الرضوية»[١].

وفاته ومدفنه:

لم يحدد أحد تاريخ وفاته، ولا يوجد ما يفيد حول هذا الأمر، والثابت أن أخباره انقطعت بعد سنة ٧٨٢هـ تاريخ إنشاء مقدمات نص النصوص.

---

(١) الحقائق الراهنة في المائة الثامنة ص٦٩.

ولا ندري أيضاً إذا كان الآملي قد دُفن في النجف أو في مسقط رأسه آمل أو في مكان آخر. ويدّعي الاستاذ محمد خواجوي أنّ في آمل مقبرة منسوبة إليه في أسفل السوق، تعرف ببقعة المير حيدر (سه تن) أي ثلاثة أجساد، وهي من أبنية العصر السلجوقي، وطراز عمارتها شبيه بقبّة ركن الدين الشيرازي العارف المشهور المتوفى سنة ٧٦٩هـ في أصفهان. ويبقى ذلك في دائرة الظنّ والحدس، وليس لدينا ما يؤكد هذا الأمر.

حول الكتاب:

الكتاب الذي بين يديك عزيزي القارىء من أهم كتب الآملي وأغناها. . وقد نشره لأول مرّة محمد خواجوي بعد وفاة كوربان بعد عثوره عليه بالصدفة كما صرّح في مقدمة أسرار الشريعة بالفارسية، وإليه يعود الفضل في اكتشاف نص الكتاب كاملاً.

والنسخة التي وقعت بين يديه رديئة الخط وقد أُغفل ذكر كاتبها، لكن يذكر الناسخ أنه قابلها على نسخة المصنّف، وقد صرح بذلك في حواشي النسخة، وتاريخ كتابتها سنة ٩٥٠هـ. وذكر خواجوي أنه يوجد صفحات متفرقة من هذا الكتاب في مكتبة جامعة طهران، وقال إنها في الواقع منتخبة من الأصل في حوالي ست صفحات، وهناك نسخة في مكتبة مجلس الشورى الاسلامي إلا أنها بتراء ناقصة، وهناك نسخة أخرى في مكتبة المرعشي محفوظة تحت رقم ٣٠٨٨، كتبت في زمن القاجاريين. هذا وقد طبع الكتاب في طهران، ونشرته مؤسسة مطالعات وتحقيقات فرهنگي سنة ١٣٦٣هـ.

خطة العمل في الكتاب:

كان عملنا في هذا الكتاب:

١ ـ تقديم الكتاب بكلمة تمهيدية حول المراتب الثلاث وحياة المؤلف.

٢ ـ تنقيح الكتاب ومراجعته وتصحيح الأخطاء المطبعية واللغوية الواردة فيه.

٣ ـ وضع اسم السورة ورقم الآية بعد الآية مباشرة بين معكوفتين كي نترك الهامش كما هو، حيث أثبتنا تصحيحات الأستاذ محمد خواجوي.

٤ ـ ترجمة الهوامش المذكورة من الفارسية إلى العربية.

٥ ـ التعليق أحياناً على بعض الأمور والإشارة إلى ذلك بكلمة (العاملي).

وأخيراً نسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبّل منّا هذا العمل بأحسن قَبول ويجعله زاداً لنا يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، إنه جواد كريم، والحمد لله ربّ العالمين.

رضا محمد حدرج

جبل عامل ـ البازورية

الجمعة ٢٣ ذو الحجة ١٤٢٢هـ

الموافق ٨ آذار ٢٠٠٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

وفق اللهم لاكماله بمحمد[1] وآله الطاهرين، الحمد لله الذي نوّر قلوب عباده بالعلوم الكشفية[2] الذوقية الشهودية، وكحّل بصيرتهم بكحل العناية الأزلية الإلهية الوهبية، حتى أوصلهم إلى أعلى مراتب المشاهدة العينية والمكاشفة القلبية، ومكّنهم على إقامة البراهين العقلية، والدلائل النقلية القطعية، بالنفوس القدسية والعقول النورية، وصلى الله على من هو هادٍ إلى أمثال هذه المقامات بالأنوار البصرية، مرشداً إلى أنواع هذه المعارف الإلهية والحقائق الربانية، والتكاليف الشرعية الدينية اللطيفة، وعلى آله وأصحابه وأهل بيته، الذين هم خلاصة الذرية[3] المرتضوية، وبعداوتهم ومحبتهم انقسمت المراتب الجنانية والجحيمية.

وبعد، فإنّ كيفية اتصال العبد بالحضرت[4] الإلهية، وقيامه بوظائف دقائق الأحوال الربوبية، ليصير قريباً من الوحدة الحقيقية، وينطمس ذاته في المرتبة الأحدية، بعد المرور على الأسماء والصفات الواقعة في المرتبة

---

(١) بمحمد النبي الأكرم.

(٢) كذا وردت في المخطوطة، وفي المطبوعة التي بين أيدينا وردت: بالعلوم الحقيقية. (العاملي).

(٣) ذرية.

(٤) بالحضرات [والصحيح: بالحضرة (العاملي)].

الواحدية، ومعرفة المظاهر العلوية والسفلية، الافاقية والانفسية، بدقائق المعالم السلوكية، ومجاهدات المعاني الرياضية، للخلاص بتهذيب النفوس البشرية، واستخراجها من القُمُص الساترة الحيوانية، إلى درجة الأوصاف الملكية، لفكّ السلاسل الجسمانية، وأغلال القيود المادية، لا يقوم به إلاّ أولو الفضل الكثير، وأهل العلم الخطير، ولا يتفطّن لسلوكه إلاّ كلّ نحرير من أهل التألّه الحقيقي، والمقام الكشفي، إذ هو مقام الأولياء والأنبياء، والأماثل من الحكماء الأذكياء. ولما كانت المعارف والتكاليف الشرعية، الواردة عن الحضرة الإلهية بواسطة الحقيقة المحمدية، قد اشتملت على هذه الخيرات السنيّة والمراتب العلية، دعاني ذلك الأمر العظيم، والشأن الجسيم إلى وضع كتاب يشتمل على المعارف الإلهية والتكاليف الدينية الشرعية، سالكاً فيه سلوك الكُمَّل من أولي الأفراد الجمعية، على وجه تطبيق بين مذهب الطائفة الحقّة الصوفية، ومذهب الطائفة الإمامية، ذاكراً للمعارف الإلهية، على المراتب الثلاث الجمعية، أعني: مرتبة الشريعة، والطريقة، والحقيقة المصطفوية.

وكل كتاب يكون جامعاً لهذه المراتب الثلاث، التي هي جامعة للمراتب المحمدية، يعني المراتب الإلهية والكونية، حاوياً لمجموع الكمالات المنسوبة إلى الأنبياء والأولياء، الذين هم خلفاء الله السبحانية، ونواب الحضرة الإلهية الربانية، وكذلك سلكت في التكاليف الشرعية، وذلك مع قلة البضاعة وتراكم العلائق والعوائق، البالغة إلى حدّ الإضاعة، لمّا رأيت من خلو الدار والديار، ودهري وعصري من الفضلاء والاعيان الكبار، وما قمت بهذا الأمر العظيم إلاّ لمّا عدم أولئك الكمّل والأقطاب، وانسدت على السالك الأبواب.

وإذا كانت العلوم منحاً إلهية، ومواهب اختصاصية، فغير مستبعد أن يدّخر منها لبعض المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين، وما أحسن ما

قيل: وكم ترك الأوائل للأواخر. أعاذنا الله من حسدٍ يسدّ باب الإنصاف، ويصدّ عن جميل الأوصاف، وإني لأستحسن قول أبي العلاء المعرّي في قوله المناسب لما نحن بصدده في هذا الباب:

شعر

لعمر أبيك ما نسب المعلّا إلى كرمٍ وفي الدنيا كريم

ولكنّ البلاد إذا اقشعرّت وصوح نبتها رعى الهشيم

ومراعياً لما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام من قوله في الحديث المشهور عنه، المتواتر منه: «ما لا يدرك كله لا يترك كله» ومن قوله عليه السلام: «لا يترك الميسور بالمعسور». فوضعت هذا الكتاب ووسمته حين رسمته، بـ**«أنوارالحقيقة وأطوار الطريقة وأسرار الشريعة»**[١]، مستمداً من الجواد أن يوفقنا فيه وفي تأليفه لسلوك سرب[٢] الرشاد ونهج السداد، ويجنّبنا فيه من الخطأ والخلل في الإصدار والإيراد إنه أكرم من أفاد وجاد.

ولا بدّ قبل الخوض في هذا البحث من تمهيد مقدمة تشتمل على فوائد جمّة للناظرين في هذا الكتاب، والفاتح لأقفال هذه الخزائن من الطلاب، وهي أن نقول: اعلم أنّ هذه المقدمة مشتملة على بيان الشريعة والطريقة والحقيقة، وبيان مراتبها ومدارجها عقلاً ونقلاً وكشفاً، والغرض منه أنه لما كان أكثر أهل الزمان ـ من خواصهم وعوامهم يظنّون أنّ الشريعة خلاف الطريقة، والطريقة خلاف الحقيقة، ويتصورون أنّ بين هذه المراتب مغايرة حقيقية، وينسبون إلى كل طائفة منهم ما لا يليق بهم خصوصاً إلى طائفة

---

(١) وذكره الآملي في جامع الأسرار بعنوان «أسرار الشريعة وأنوار الحقيقة» ومعكوساً أي «أنوار الحقيقة وأسرار الشريعة» وفي محل آخر «أسرار الشريعة وأطوار الطريقة وأنوار الحقيقة» وهو ما اختير من بين العناوين كلها (العاملي).

(٢) كذا وردت في المخطوطة وهي تعني الطريق، ويحتمل أن تكون «درب».

الموحدين من أهل الله، المسماة بالصوفية، ولم يكن سبب ذلك إلا عدم علمهم بحالهم، وقلة وقوفهم على أصولهم وقواعدهم، أردت أن أبيّن لهم الحال على ما هو عليه، وأكشف لهم الأحوال على ما ينبغي، ليحصل لهم العلم بحقيقة كل طائفة منهم، سيّما بالطائفة المخصوصة المذكورة من أهل الله، وينكشف لهم أحوالهم في طبقاتهم ومراتبهم وأصولهم وقواعدهم، ويتحقق أنّ الشريعة والطريقة والحقيقة مترادفة صادقة على حقيقة واحدة باعتبارات مختلفة، وليس فيها خلاف نفس الأمر، ويتركوا بذلك المجادلة والمعارضة مع أهل الله وخاصته، وأرباب التوحيد وخلاصته، وينزّهوا قلوبهم ونفوسهم عن ظلمة الغيّ والضلال، ويخرجوها عن دائرة الشبه والاشكال، ويكون هذا بالنسبة إلى أذهانهم الجامدة وطباعهم الخشنة كالنقوع المنضّج للطبيعة غير المستعدة للمشروب، الذي يدفع الفضلات الرديئة والأخلاط الفاسدة، ويحصل لهم بذلك الاستعداد والقابلية لاستماع الكلمات الأبية وقبولها من قائلها، لأن عبارة هؤلاء العلماء بيان الشرع النبويّ والوضع الإلهي كما سبق تحقيقه وتقدم تقريره، وفي الحقيقة هذه المراتب الثلاث مقتضيات مراتب أخر، التي هي متصلة في نفس الأمر، وهي: النبوة والرسالة والولاية. لأن الشريعة من اقتضاء الرسالة، والطريقة من اقتضاء النبوة، والحقيقة من اقتضاء الولاية. لأن الرسالة عبارة عن تبليغ ما حصل للنبي من طرف النبوة من الأحكام والسياسة والتأديب بالأخلاق والتعليم بالحكمة، وهذا عين الشريعة.

والنبوة عبارة عن إظهار ما حصل من طرف الولاية من الاطلاع على معرفة ذات الحق تعالى واسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه بحسب المظاهر لعباده ليتصفوا بصفاته، ويتخلقوا بأخلاقه، وهذا عين الطريقة. والولاية عبارة عن مشاهدة ذاته وصفاته وأفعاله في مظاهر كمالاته ومحالّ تعيّناته بعين بصيرته بعد فنائه فيه وبقائه به، وهذا عين الحقيقة. والكل راجع إلى شخص

واحد الذي هو الرسول، أو إلى حقيقة واحدة التي هي الشرع، فيطابق هذا قولنا الذي قلنا: إنّ الشرع النبوي والوضع الإلهي حقيقة واحدة مشتملة على هذه المراتب. وإنّ هذه المراتب أسماء صادقة عليها على سبيل الترادف، وامثال ذلك في غير هذه الصورة كثيرة، كاسم العقل والقلم والنور على حقيقة واحدة، التي هي حقيقة الإنسان الكبير، مثلاً بما ورد في الخبر الصحيح: «أول ما خلق الله العقل، وأول ما خلق الله القلم، وأول ما خلق الله نوري».

وكاسم الفؤاد والقلب والصدر على حقيقة واحدة التي هي حقيقة الإنسان الصغير لقوله تعالى في الفؤاد: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم/ ١١].

ولقوله في القلب: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[الشعراء/ ١٩٣ و١٩٤].

ولقوله في الصدر: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح/ ١ و٢].

ولذلك ما وقع الخلاف بين الأنبياء والرسل في الأصل الحقيقي والأساس الكلي، الذي هو الدين وأركانه، والاسلام وأصوله، لقوله تعالى فيهم: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[الشورى/ ١٣].

ولقوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[البقرة/ ١٣٢].

ولقوله من لسان نبيه ﷺ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الانعام/ ١٥٣].

ولقوله بعد ذلك كله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الروم/ ٣٠].

ومعناه أن القيام بالأركان الثلاثة من: الشريعة والطريقة والحقيقة، ورعاية حقوقها في مراتبها ومدارجها هو الدين القيّم الإلهي، والطريق المستقيم النبوي، ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ذلك من جهلهم وعمائهم.

وإذا عرفت هذا، وعرفت أنه قط ما وقع الخلاف بين الأنبياء والرسل عليهم السلام في أصول الدين وأركان الإسلام، وإن وقع الخلاف في الفروع والأحكام الجزئية فاعلم: أنّ الاختلاف في كيفية الشيء وكميته لا يدل على الاختلاف في ماهيته وحقيقته، وأنّ حقيقة الشرع في جميع الازمنة والأمكنة كانت واحدة، وكانت منزّهة عن التخالف والتغاير، وإن كانت مختلفة الأوضاع والأحكام بحسب المراتب والمدارج والاشخاص والأزمان.

ومن هذا قال جل ذكره: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[البقرة/ ٢٨٥].

وإن تحققت، عرفت أيضاً أنّ الترتيب المذكور لا ينبغي إلا كذلك، ولا يمكن خلاف الذي هو عليه من النظام والانتظام والاتقان والإحكام، كما قيل: ليس في الإمكان أبدع من هذا العالم، إذ لو كان وادخره لكان بخلاً يناقض الجود، وعجزاً ينافي القدرة، لأنه لو لم يكن كذلك، أي لو لم يكن الوجود على هذا النظام والانتظام، لم يكن إيصال كل واحدٍ واحد من عباده إلى حقّه المعيّن له بحسب الاستعداد والقابلية، لأنّ الاستعدادات مختلفة، والقابليات متفاوتة، ولا يمكن إرشاد الكل في مرتبة واحدة وطريقة واحدة، لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة/ ٤٨].

فالاختلاف مقتضى الوجود، ولا يمكن خلافه، لأنّ عباراتهم مغلقة، وإشاراتهم صعبة شديدة المأخذ، عظيمة المشرب، ليس لكل أحد أن يفهمها، ولا لكل شخص أن يدركها، وكذلك كانوا دائماً متبادرين إلى النصيحة لمريديهم، متسارعين إلى الوصية لملازميهم، كقول بعضهم لبعض مريديهم مثلاً: ألا لا تلعبنّ بك اختلاف العبارات، فإنه إذا بعثر ما في القبور

وحصّل ما في الصدور، وحضر البشر في عرصة الله تعالى يوم القيامة، لعل من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون يبعثون من أجداثهم، وهم قتلى من العبارات، ذبائح بسيوف الاشارات، عليهم دماؤها وجراحها، غفلوا عن المعاني، فضيعوا المباني.

وإذا عرفت هذا فاعلم: أنّ هذا البحث، الغرض الأقصى منه هو أن يحقق عندك وعند غيرك، أنّ هذه أسماء صادقة على حقيقة واحدة باعتبارات مختلفة، وليس بينها تغاير في الحقيقة. وإثبات هذا على سبيل التفصيل والبرهان يحتاج إلى وجوه ثلاثة: الأول تعريف الشريعة والطريقة والحقيقة، وتحقيق هذه الأسامي وتخصيصاتها، وبيان أنها أسماء صادقة على حقيقة واحدة من غير اختلاف بينها. الثاني إلى بيان أنّ أهل الحقيقة أعظم من أهل الطريقة، وأهل الطريقة من أهل الشريعة، وإن لم يكن بين هذه المراتب مغايرة. الثالث إلى بيان أن الشرع ليس بمستغنٍ عن العقل، ولا العقل عن الشرع، وغير ذلك من الأبحاث المتعلقة به.

أما الوجه الأول الذي في تعريفها وتحقيقها، وبيان اتحادها ووحدتها، فاعلم: أنّ الشريعة على ما قيل: اسم موضوع للسبل الإلهية، مشتملة على أصولها وفروعها، ورخصها وعزائمها، حسنها وأحسنها. والطريقة هي الأخذ بأحوطها وأحسنها وأقومها، وكل مسلك يسلك الإنسان أحسنه وأقومه يسمّى طريقة، قولاً كان أو فعلاً، صفة كان أو حالاً. واما الحقيقة فإثبات وجود الشيء كشفاً وعياناً، أو حالة ووجداناً.

وقيل أيضاً: الشريعة أن تعبده، والطريقة أن تحضره، والحقيقة أن تشهده.

وقيل: الشريعة أن تقيم بأمره، والطريقة أن تقوم بأمره، والحقيقة أن تقوم به.

ويعضد ذلك كله قول النبيﷺ: «الشريعة أقوالي، والطريقة أفعالي، والحقيقة أحوالي، والمعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، والخوف رفيقي، والعلم سلاحي، والحلم صاحبي، والتوكل ردائي، والقناعة كنزي، والصدق منزلي، واليقين مأواي، والفقر فخري، وبه أفتخر على سائر الأنبياء والمرسلين».

وكذلك خطابه لحارثة في قوله: «كيف اصبحت؟» قال: أصبحت مؤمناً حقاً.

فقالعليه السلام: «لكل حقٍ حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟» قال: رأيت أهل الجنة يتزاورون، وأهل النار يتعاوون، ورأيت عرش ربي بارزاً. قال: «أصبت فالزم».

فإنّ إيمانه بالغيب حق وشريعة، وكشفه ووجدانه الجنة والنار والعرش حقيقة، وزهده في الدنيا والعمل الذي كان هو فيه حتى استحق هذه الدرجة طريقة. والكل داخل في الشرع غير خارج عنه، لأنّ الشرع اسم شامل لكل ذلك كما سبق.

وقيل: إن الشرع كاللوزة الكاملة مثلاً، مشتملة على الدهن واللب والقشر، فاللوزة بأسرها كالشريعة، واللب كالطريقة، والدهن كالحقيقة.

وورد في الصلاة هذا المعنى أيضاً، وهو ما قيل: إنّ الصلاة خدمة وقربة ووصلة. فالخدمة هي الشريعة، والقربة هي الطريقة، والوصلة هي الحقيقة، واسم الصلاة جامع للكل.

وإلى هذه المراتب أشار الحق تعالى في قوله بعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين الآتي بيانها في موضعها. وعند التحقيق الشريعة عبارة عن تصديق أقوال الأنبياء قلباً، والعمل بموجبها. والطريقة عن تحقيق أفعالهم وأخلاقهم، والقيام بها وصفاً، والحقيقة عن مشاهدة أحوالهم ومقاماتهم

كشفاً، لأن الأسوة الحسنة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب/ ٢١]، لا يتحقق إلا بهذا، أي باتصاف بهذه الأوصاف فعلاً وصفة وكشفاً، لأن الأسوة الحسنة في الحقيقة عبارة عن قيام الشخص بأداء حقوق مراتب شرعية على ما ينبغي. وقد شهد بصدقه قوله السابق قبل هذا القول، وإليه أشار أيضاً سلطان الأولياء والوصيين أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «إني لأنسبن الإسلام نسبة لن ينسبها أحد قبلي، الاسلام هو التسليم، والتسليم هو التصديق، والتصديق هو اليقين، واليقين هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل الصالح» فكل من أراد التأسي بنبيه صلى الله عليه وآله على ما ينبغي، فينبغي أن يتصف بمجموع هذه الأوصاف ولا ينكر على أحد من المتصفين بها أصلاً، لأن[1].

والذاتي لا ينفك عن الذات، وقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[هود/ ١١٩] إشارة إلى هذا، ومعناه أي ولذلك الاختلاف خلقهم، والاختلاف في الصور من الاختلاف في المعنى، والاختلاف في المعنى من الاختلاف في الحقائق والأعيان، والحقائق والأعيان ليست بجعل الجاعل، فلا يكون المراد حينئذ بخلقهم وجعلهم كذلك، أعني لا يكون مراده بخلقهم على ما هم عليه من الاختلاف جبراً وقهراً، بل خلقهم يكون عبارة عن إعطاء وجودهم على حسب أعيانهم وحقائقهم التي ليست بجعل الجاعل، لأنها معدومات في الحقيقة، والمعدومات لا تكون مجعولات لأحد أصلاً، بل من معلوماته الأزلية، فافهم جيداً.

وحيث جرى عنان النزاع في هذا البحث الشريف بمسألة القوابل، وانها

---

(١) هكذا ورد في نسختي ونسخة مكتبة المرعشي ونسخة المجلس، لكن في كتاب (جامع الأسرار) جاء بعد كلمة لأن: مرجع الكل وإن اختلفت أوضاعها إلى حقيقة واحدة التي هي الشرع النبوي والوضع الإلهي كما تقدم تقريره. أما في النسخ الثلاث فهناك نصف سطر فارغ، والله أعلم.

هل هي مجعولة بجعل الجاعل أم لا، وكانت هذه المسألة من أشرف مسائل علم التوحيد، بل التوحيد لا يتم الاطلاع على حقائقه بدون تحقيقها، وطالما حصل التشاجر بين العلماء الفضلاء الكبار في هذه المسألة وخطّأ كل منهم صاحبه وزيّف قوله، أحببت أن أذكر في هذا الكتاب خلاصة ما حققه أهل الله وخاصته في هذه المسألة وما ذكره أهل الظاهر والباطن، لنكون كما شرطنا في أول الكتاب، مطبقين بين الظاهر والباطن، إذ مرتبة الجمع هي المرتبة العظمى والغاية القصوى.

إذا عرفت هذا فنقول: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[هود/ ١١٨ ـ ١١٩]: اعلم أن هذا البحث مشتمل على بيان اختلاف الحقائق والماهيات، واختلاف الناس في ذواتهم وحقائقهم وآرائهم وعقائدهم، متمسكاً بقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[هود/ ١١٨] وهذا البيان مفتقر إلى تقديم مقدمتين:

الأولى إلى أن الأعيان والماهيات بجعل الجاعل، والثانية إلى أنها ليست بجعل الجاعل، والمذهب الأول مذهب أهل الظاهر من العلماء وأرباب التقليد منهم، والمذهب الثاني مذهب أهل الله من العارفين الموحدين وبعض الحكماء.

أما الطائفة الأولى فقالوا: إن الله تعالى عليم حكيم، لا يفعل إلا على الوجه الأصلح والأنفع وعلى الوجه الذي يقتضي علمه وحكمته، و﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء/ ٢٣] وعلى هذا التقدير فاختلاف الماهيات والأعيان يكون من مقتضى علمه وحكمته، وكذلك جعلهم في الخارج وتخليقهم في عالم الشهادة يرجع إلى علمه بهم في الأزل، وجعله لهم على ما هم عليه مطابقاً بما في علمه، لقوله: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم/ ٢٧] و﴿يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[المائدة/ ١] ، لكن يبقى هاهنا اعتراضات واحتجاجات كثيرة لأن كل ماهية من الماهيات، وكل عين من الأعيان، له أن يعترض ويقول

بلسان الحال والمقال: لم جعلتني كذا وكذا، وما جعلتني كذا، كالشقي بالنسبة إلى السعيد، فإن له أن يقول: لم جعلتني شقياً وما جعلتني سعيداً، وكذلك الجاهل بالنسبة إلى العالم، والفقير إلى الغني، وبهذا يكون لهم على الله حجة من غير العكس، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[الأنعام/ ١٤٩]، وليس من هذا الالزام لهم مفر، ولا مرجع إلا التسليم والرضا بما قضى، ورجوع الأمر إلى علمه وحكمته بمقتضى إرادته ومشيئته ولا شك أن هذا الجواب غير موجه، ومن هذا قال: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[المائدة/ ١٠١]، والحق أنه اعتقاد غير مطابق.

واما الطائفة الثانية فقالوا: إن الحقائق والأعيان والماهيات ليست بجعل الجاعل، لأنها معلوماته الأزلية، والمعلومات الأزلية لا يجوز أن تكون مجعولة، لأنها لو كانت مجعولة لزم سبق العلم على المعلوم بزمان أو أزمنة أو عدم العلم بالمعلومات الأزلية قبل أن يجعلها مجعولة له، والقسمان بأسرهما باطلان فلم يبق إلا أن تكون معلوماته غير مجعولة له، وأيضاً قد تقرّر في الأصول أن العلم تابع للمعلوم، ووجود التابع الذي هو العلم بغير وجود التابع[1] الذي هو المعلوم محال، لأن العلم لا يصدق عليه أنه علم إلا إذا طابق المعلوم، وإلا يسمى جهلاً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، والمراد من قولهم: إن العلم يجب أن يكون مطابقاً للمعلوم هذا معناه، لأن كل علم لا يكون مطابقاً للمعلوم في الخارج يكون جهلاً، وبناءً على هذا لا يجوز أن تكون معلوماته الأزلية مجعولة له، وإلا ما يثبت له العلم، ويلزم منه الفساد المذكور، وهذا هو المطلوب من هذا البحث.

ووجه آخر، وهو أنه تعالى عالم بالمعدومات، وعالم بالموجودات، وكلامنا في المعلومات المعدومة أزلاً، أعني المعدومة في الخارج، الثابتة في

---

(١) كذا ومن الواضح أن الصحيح (المتبوع). (العاملي).

العلم قبل وجودها في الخارج، فإنها لا يصدق عليها أنها مجعولة، لأن الجعل إنما يتعلق بالوجود الخارجي، لا بالوجود العلمي أو الذهني، وبالموجودات لا بالمعدومات.

وإذا تقرر هذا فالأولى أن نرجع إلى الأصول والقواعد الكلية، ونبحث عن الأصل الصحيح والأساس الكلي، وهو أن نقول: لا شك ولا خفاء أن الأعيان والحقائق والماهيات من معلوماته الأزلية، وقبل الوجود الخارجي لم يكن لها أثر إلا في العلم، فالوجود لو كان بجعل الجاعل لم يكن الجاعل عالماً بها في الأزل، لأنها لو كانت بجعله لم تكن أزلية، والحال أنها أزلية، فحينئذ لا يكون بجعله أصلاً، نعم يصدق عليها أنها مجعولة بالنسبة إلى الوجود الخارجي، لا الوجود العلمي وكلامنا في الوجود العلمي، فلا تكون مجعولة بهذا المعنى، وقد أشار إلى هذا بعض الفضلاء أوضح من هذا، وهو قوله: حقيقة كل موجود عبارة عن نسبة تعينه في علم ربه أزلاً، ويسمى باصطلاح المحققين عيناً ثابتة، وباصطلاح الحكماء ماهية معدومة، ومعلومية الحقائق وعدميتها لا توصف بالجعل، إذ المجعول هو الموجود في الخارج، فما لا وجود له في الخارج لا يكون مجعولاً، فلو كان كذلك لكان للعلم القديم في تعين معلوماته فيه أزلاً أثر، مع أنها خارجة عن العالم بها، فإنها معدومة لأنفسها، لا ثبوت لها إلا في نفس العالم بها، فلو قيل بجعلها لزم إما مساوقتها للعالم بها في الوجود، أو أن يكون العالم بها محلاً لقبول الأثر في نفسه، وظرفاً لغيره، وكل ذلك محال، لأنه قادح في صرافة وحدته أزلاً، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقد أشار شارح الفصوص في مقدماته أيضاً إلى هذا وقال: الاعيان والحقائق من حيث إنها صور علمية لا توصف بأنها مجعولة، لأنها حينئذ معدومة في الخارج، والمجعول لا يكون إلا موجوداً، كما لا توصف الصور العلمية والخيالية التي في أذهاننا بأنها مجعولة ما لم توجد في الخارج، ولو

كانت كذلك لكانت الممتنعات أيضاً مجعولة، لأنها صور علمية، فالجعل إنما يتعلق بها بالنسبة إلى الخارج، وليس جعلها إلا إيجادها في الخارج، فلا تكون حينئذ قبل إيجادها مجعولة وهو المطلوب، وقال أوضح من هذا، وهو قوله: اعلم أن للأسماء صوراً معقولة في علم الله تعالى، لأنه عالم بذاته لذاته، وأسمائه وصفاته، وتلك الصور العقلية العلمية من حيث إنها عين الذات المتجلية بتعين خاص، ونسبة معينة هي المسماة بالأعيان الثابتة، سواء كانت كلية أو جزئية في اصطلاح أهل الله، ويسمى كلياتها بالماهيات والحقائق، وجزئياتها بالهويات عند أهل النظر، فالماهيات هي الصور الكلية الاسمائية المتعينة في الحضرة العلمية وتلك الصور فائضة من الذات الإلهية بالفيض الأقدس والتجلي الأول بواسطة الحب الذاتي، وطلب مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا هو، ظهورها وكمالاتها، فإن الفيض ينقسم بالفيض الأقدس والمقدس، وبالأول تحصل الأعيان الثابتة واستعداداتها الأصلية وبالثاني تحصل تلك الأعيان في الخارج مع لوازمها وتوابعها، وهذا بحث مبني على أن الفاعل والقابل يكون شيئاً واحداً، ولا يكون في الوجود إلا هو وكمالاته، فيكون فاعلاً من جهة وقابلاً من جهة أخرى، كما قالت الحكماء في العقل والعاقل والمعقول، فإنها شيء واحد في الحقيقة وكثيرة بالاعتبارات، وكذلك في العشق والعاشق والمعشوق، وإلى هذا أشار الشيخ الأعظم في فصوصه أيضاً في قوله: ومن شأن الحكم الإلهي أنه ما سوى محلاً إلا ولا بد أن يقبل روحاً إلهياً عبر عنه بالنفخ، وما هو إلا حصول الاستعداد في تلك الصورة المسوّاة لقبول فيض التجلي الدائم الذي لم يزل ولا يزال، وما بقي إلا القابل، والقابل لا يكون إلا من فيضه الأقدس، فالأمر كله منه ابتداؤه وانتهاؤه، وإليه يرجع الأمر كله كما ابتدأ منه، وعلى هذه التقادير لا يجوز أن تكون الأعيان والماهيات والقوابل بجعل الجاعل، لأنا إذا فرضنا الفاعل والقابل شيئاً واحداً، وفرضنا الفاعل ذاته والقابل أسماءه

وصفاته، وسمينا الأول بالوجود المطلق الحق، والثاني بالوجود المقيد الخلق، وسمينا الكل مظهر أسمائه وصفاته وأفعاله، والأعيان والماهيات والحقائق صور معلوماته الأزلية الأولية، فلا يكون حينئذ هذا الوجود جاعلاً لشيء يتعلق بذاته وكمالاته، لأنه كان دائماً على هذه الصفة، فكيف يصير غير هذا، وقلب الحقائق محال، خصوصاً بالنسبة إلى الواجب، والشيء قط لا يكون جاعلاً لنفسه أصلاً، وكذلك لكمالاته الذاتية وخصوصياته الاسمائية، لأن الشيء لا يخلو من وجهين، إما أن يكون واجباً لذاته، أو ممكناً لذاته، فإن كان واجباً لذاته، فكمالاته وخصوصياته وجميع ما يترتب عليها تكون حاصلة له بالذات من غير تصور جعل فيه أصلاً، وإن كان ممكناً فماهياته العلمية وأعيانه المعقولة لا تكون بجعله ولا بجعل غيره، فإن ذلك من المعلومات الأزلية الإلهية كما تقرر، وأما المترتب عليها في الوجود الخارجي وتوابعه من الكمالات والنقائص، فذلك يجوز أن يكون مجعولاً للحق، وليس كلامنا فيه، مع أنه تابع للوجود العلمي، الذي هو من معلوماته الأزلية، والممكن ليس له إلا الطلب بلسان الحال الوجود الخارجي على حسب قابليته واستعداده من الفاعل الحقيقي، مطابقاً للوجود العلمي، وهذا هو مطلوبنا من هذا البحث، ولهذا قال: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾[إبراهيم/ ٣٤]، بلسان استعدادكم وقابليتكم تابعاً للوجود العلمي الغير المجعول، وعلى هذا التقدير لا يكون شيء بجعله من ذلك الوجود، بل من الوجود الخارجي المذكور، ولا يصدق الجعل إلا عليه، أي على الوجود الخارجي، فافهم، فإنه ينفعك كثيراً في مواطن كثيرة بالنسبة إلى هذا الكتاب.

وحيث إن هذا البحث من أعظم أسرار القدر، وتحقيقه من الضروريات بالنسبة إلى هذا المكان، فلنشرع فيه بمثال مناسب، تقريباً للفهم وتوضيحاً للمبحث ونقول: اعلم أن مثال الأعيان والماهيات الممكنة في علم الحق تعالى مثال أعيان الحروف وماهياتها في ذهن الكاتب مثلاً، فإن ثبوتها في

الذهن ليس بجعل الكاتب لأن الكاتب ليس له إلا العلم بوجودها وماهياتها، أي وجودها العلمي وماهياتها الذهنية على ما هي عليها من أنفسها من الأوضاع والأشكال، ومعلوم أن العلم ليس مؤثر في المعلوم، فلا تكون حينئذ مجعولة للكاتب من هذا الوجه، نعم يصدق عليها أنها مجعولة للكاتب إذا أوجدها في الخارج، مطابقاً لما في الذهن، فالحق تعالى كذلك، فإنه إذا أوجد شيئاً في الخارج مطابقاً لما في علمه الأزلي ـ السابق على وجود ذلك الشيء، سمى مجعولاته ومخلوقاته، فأما إذا كان في علمه الأزلي الذاتي، وكان من معلوماته الأولية، فلا يُسمى مجعولاً، ولا يصدق عليه أنه من مجعولاته، لأنه تعالى ما صار عالماً به في الأزل، إلا على الوجه الذي كان هو عليه في نفسه حالة العدم، لأنه لو جعله موجوداً ثم صار به عالماً، للزم الفساد المذكور، الذي هو سبق العلم على المعلوم، أو الجهل به في آن من الآنات، والأقسام بأسرها باطلة كما عرفتها، فلا يكون معلوماته الأزلية مجعولاته وهو المطلوب، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت/ ٤٣].

ومثال آخر، وهو أن الأعيان والماهيات من شؤونه الذاتية، التي هي عبارة عن كمالاتها الغير المتناهية الكامنة في ذاته، المسماة بالصفات والأسماء والكمالات والشؤون ، كما أن الأغصان والأوراق والأثمار كلها من كمالات الشجر، وأنها حال علمها بذاتها في النواة لا تسمى شجراً، ولا موجوداً في الخارج، بل يسمى هذا العلم علم النواة بكمالاته الذاتية ومراتبها الشجرية، فكما لا ينسب علم النواة مثلاً بتفاصيل كمالاتها الذاتية في صور أوراقها وأغصانها وأزهارها وأثمارها إلى جعلها، وكذلك لا ينسب علم الحق تعالى بتفاصيل كمالاته ـ الذاتية في صور أسمائه وصفاته وأفعاله ومظاهره ومجاليه، التي هي المخلوقات العلمية أزلاً، والمكونات الذاتية المكنونة في الذات إلى جعله، ولهذا قال: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس/

٣٣] وتقديره: إذا أراد إيجاد شيء من هذه الموجودات العلمية في الخارج، يشير إليه بإبرازه من العدم إلى الوجود، ومن الكتم إلى الظهور، ويسمى ذلك الوقت مجعولاً، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض، وقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[طه/ ١٢٠] كأنه إشارة إلى شجرة الوجود المطلق الذي هو العالم تفصيلاً، والإنسان اجمالاً، وإلى أغصانها وأوراقها وأزهارها التي هي الموجودات المقيدة الخارجية، لأن كل من يشاهد هذه الشجرة على ما هي عليه من الكمالات والأسماء والصفات، يكون في ملك لا يبلى ولا يزول أزلاً وأبداً، وقد ورد في اصطلاح المحققين هذا المعنى بعينه، بحيث نسبوا الوجود العلمي إلى الأعيان الثابتة، والوجود الخارجي إلى الأكوان الخارجية، ونسبوا الأول إلى التجلي الأول الذاتي، والثاني إلى التجلي الثاني الصفاتي، كقولهم: التجلي الأول هو التجلي الذاتي، أي تجلي الذات وحدها لذاتها، وهي الحضرة الأحدية، التي لا نعت فيها ولا رسم، إذ الذات التي هي الوجود الحق المحض، وحدته عينه، لأن ما سوى الوجود من حيث هو وجود ليس إلا العدم المطلق، وهو اللاشيء المحض، فلا يحتاج في أحديته إلى وحدة وتعين يمتاز به غيره، ولا عن شيء مطلقاً، فوحدته عين ذاته، وهذه الوحدة منشأ الأحدية والواحدية، لأنها عين الذات من حيث هي هي، أعني لا بشرط شيء معه، أي المطلق الذي يشمل كونه أن لا شيء معه، وهو الأحدية، وكونه بشرط أن يكون معه شيء وهو الواحدية، والحقائق في الذات الأحدية كالشجرة في النواة، وهي غيب الغيوب، والتجلي الثاني هو الذي يظهر به أعيان الممكنات الثابتة التي هي شؤون الذات لذاته تعالى، وهو التعين الأول بصفة العالمية والقابلية، لأن الأعيان معلوماته الأول الذاتية، القابلة للتجلي الشهودي، والحق بهذا التجلي ينزل من الحضرة الأحدية إلى الحضرة الواحدية بالنسب الاسمائية، وكل هذا الكلام مطابق موافق لما ذهبنا إليه.

والغرض من الاستشهاد والاعتضاد بكلام الأكابر من أولياء الله وجهان: الأول اطمئنان قلب السامع واستظهاره في إزالة الشبهات، والثاني دفع أقوال الجهال والمنكرين لأهل الله بقدر الوسع والطاقة، وان لم ينفع، وهاهنا أبحاث كثيرة ليس هذا موضعها.

وهذه كلها مقدمات لغرض نريد أن نبينه، وهو تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[هود/١١٨]، وإذا عرفت هذه الأصول والقواعد فاعلم: أن قوله تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ إشارة إلى اختلافات الذاتية المعنوية للاعيان الثابتة في الحضرة العلمية الغيبية، وإلى الاختلافات الصورية الخارجية، المطابقة لتلك الاختلافات في الحضرة الغيبية الشهادية، وتقديره وهو أن الأعيان والماهيات العلمية[1] الأزلية الغير المجعولة، لا يزالون مختلفين في الوجودات المجعولة الخارجية وتوابعها ولوازمها من النقائص والكمالات، والآراء والاعتقادات، والأوضاع والتشكلات، إلا من رحم ربك، أي إلا ما كان في علم ربك أنه من أهل الرحمة والهداية والعناية، وبقي على صرافة فطرته ولطافة جبلته، دون أهل الخلاف والجدال والإغواء والإضلال، وما اختلف في شيء من تلك الاختلافات، وإن كان في الحقيقة هذه كلها ترجع إلى اقتضاء ذات ذلك الموجود، لأن الله تعالى له علم بحاله على ما يكون في استقباله، والعلم ليس بمؤثر كما مر، وقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، معناه أي ولذلك الاختلاف خلقهم، والمراد بالخلق الجعل، يعني خلقهم وجعلهم مختلفين في الصور والاشكال والآراء والاعتقاد، كما كانوا مختلفين في الذوات والماهيات والحقائق، أعني أعطاهم الوجود الخارجي، مطابقاً للوجود العلمي، لئلا يخالف علمه فعله، وغيبه شهادته، ولا يكون لأحد عليه اعتراض بأنك لم جعلتني كذا وكذا؟، وما جعلتني كذا وكذا؟، لأن

---

(١) اللازمة.

الفاعل ليس له إعطاء وجود القابل إلا على الوجه الذي هو عليه في نفسه، ويطلب من الفاعل ذلك الوجود بلسان الحال، وقد سبق في صورة المثال الذي كان في الكاتب والكتابة والحروف الذهنية والخارجية هذا المعنى بعينه، ومع ذلك نرجع إليه ونقول مرة أخرى.

اعلم أن هذه الأعيان والماهيات المعدومة في الخارج، الثابتة في العلم، دائماً تطلب الوجود الخارجي من الفاعل الحقيقي بلسان الحال والاستعداد، والفاعل أيضاً يقتضي ذاته دائماً إفاضة الوجود الخارجي على القوابل التي هي الأعيان والماهيات، لأنه جواد مطلق، والجواد المطلق هذا شأنه، اعني يكون مفيضاً للخيرات دائماً، وجوداً كان أو صفة، علماً كان أو حالاً، قولاً كان أو فعلاً، فإذا طلب مثلاً عين من تلك الأعيان منه تعالى، الذي هو الفاعل الحقيقي، الوجود الخارجي بلسان الحال والاستعداد، فالحق تعالى جل ذكره لا بد أن يفيض عليه ذلك الوجود الخارجي على حسب ما اقتضى استعداده وقابليته، لأن الفاعل المطلق لا يتصرف في القابل مطلقاً، إلا على الوجه الذي هو عليه من القابلية، وكذلك الجواد المطلق بالنسبة إلى السائل مطلقاً، فإنه لا يجود عليه إلاّ على الوجه الذي ينبغي، أي على الوجه الأتم[1] والأكمل، أعني على قدر قابليته واستعداده من غير إمساك وبخل، لأن البخل ممتنع في حضرته، تعالى الله عن ذلك، وعلى هذا التقدير فإذا أفاض عليهم الوجود الخارجي على الوجه المذكور، أعني بقدر القابلية والاستعداد من غير زيادة ولا نقصان، لأنه لو أفاض عليهم فوق قابليتهم ما قبلوا، وكانت إفاضته عليهم عبثاً، والعبث عليه تعالى محال، وكذا لو أفاض عليهم دون قابليتهم فائضاً، ما قبلوا من عدم قابليتهم وكانت عبثاً، فلا يكون لموجود من الموجودات عليه اعتراض بوجه من الوجوه، بأنك لم جعلتني كذا وكذا؟ وما

---

(١) الأتم الأكمل.

جعلتني كذا وكذا؟ فإنه يعلم حقيقة أن هذا الاعتراض غير موجه، لعلمه به أن هذا كان منه، ومن اقتضاء عينه وحقيقته وأنه حكم عليه تعالى بلسان حاله بأن يجعله كذا وكذا كما سبق ذكره في صورة الحروف فإن الجيم أو الدال أو أي حرف أردت تحكم على الكاتب بأن يجعلني كذا وكذا في الخارج.

ويؤيد هذا كلام الشيخ الأعظم وهو قوله: ما يحكم علينا إلا بنا، لا بل نحن نحكم علينا بنا، ولكن فيه، ولذلك قال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[الأنعام/ ١٤٩]، يعني على المحجوبين، إذا قالوا للحق لم فعلت بنا كذا وكذا مما لا يوافق اغراضهم، فيكشف لهم عن ساق وهو الأمر الذي كشفه العارفون هنا، ويرون أن الحق ما فعل بهم ما ادعوه أنه فعله، وأن ذلك منهم فإنه ما علمهم إلا على ما هم عليه، فتدحض حجتهم وتبقى الحجة لله البالغة، ومثل العرب الذين قالوا: يداك أوكتا وفوك نفخ، مناسب لهذا المقام، لأنه مثل مشهور واقع في مثل هذا الحال.

وبناءً على هذا، فكل ما يظهر من موجود من الموجودات مثلاً من الفعل أو القول، كمالاً كان أو نقصاناً، حسناً كان أو قبيحاً، يكون راجعاً إليه وإلى اقتضاءاته الذاتية، لا إلى الله ولا إلى غيره، نعم يرجع إلى الله من هذا إعطاؤه على حسب ما طلبه، أعني يكون وجود ذلك الشيء من الله، والطلب على الوجه ـ المعلوم منه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[الإسراء/ ٨٤]، ومعنى قول النبيﷺ: «كل ميسر لما خلق له» ويعضد هذين القولين قول داودعليه السلام الذي قال: «قلت لربي يا رب لماذا خلقت الخلق؟ قال لما هم عليه» أي لما هم عليه من الاستعدادات والقابليات والنقائص والكمالات، ويكفي في هذا قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، لأنه يقوم بجواب الكل عند العارف ـ المحقق كما سبق ذكره، لأن اللام الذي في ذلك للعلة، فيكون تقديره أي للاختلاف خلقهم، وقد عرفت أن الخلق بمعنى الجعل، فيرجع القول إلى ما قلناه مراراً بأنه يقول: جعلتهم كذا وكذا بمقتضى

ما كانوا عليه في عالم الذوات والماهيات، وإذا ثبتت الاختلافات في الذوات، ثبتت الاختلافات في الصفات، وإذا ثبتت الاختلافات في الصفات والذوات، ارتفعت المساواة بينهم في جميع ـ الحالات، ولهذا نطق بالحق والعدل، وصدق في القول والفعل من قال بعدم المثلية في الأشياء مطلقاً دون واجب الوجود، لأنه شاهد حقاً ونطق عدلاً.

وقد تقرر في الأصول عند المحققين من أرباب التوحيد، أن التجلي غير متكرر، وأن الحق لا يتجلى أبداً في صورة مرتين، ولا بمعنى واحد في صورتين، وكذلك أزل الأزال وأبد الآباد، والباقي باق في الأزل، والفاني فان لم يزل، وإذا رجعت إلى القاعدة الكلية، أنه ليس في الوجود غيره ولا غير أسمائه وصفاته، والكل هو وبه ومنه وإليه، عرفت أن كمالاته غير متناهية من غير تكرار، وأن الوجود كله مظهر كمالاته الغير المتناهية، وعرفت أن هذا صحيح، وقط لا يمكن في الوجود مساواة[1] من جميع الوجوه أصلاً وأبداً، وعرفت معنى قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، وعرفت سر اشارته ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، والله أعلم وأحكم.

وقد ورد عن النبي ﷺ في هذا المعنى من قوله: «من وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» وقول الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام لما سئل عن الجود فقال: «أما من المخلوق فهو الذي يؤدي ما افترض عليه، وأما الخالق فهو الذي إن أعطى وإن منع» وهذا موضع دقيق، وفيه أسرار شريفة لا يطلع عليها إلا الخواص، لأنها رشحة من أسرار القدر، المنهي إفشاءها عند غير أهلها، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾[النساء/٥٨]، فكأنه تعالى جل ذكره أشار إلى هذا فقال: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب

(١) المساواة.

بشر لأنها سر مخصوص بخواص الأولياء وكبار الأنبياء، إشارة إلى ما ذكرناه من هذه المباحث، وإنما طولنا الكلام في هذه المسألة لكونها من مهمات علم التوحيد، بل هي الركن الأعظم والمطلوب الأهم فلهذا طولنا الكلام فيها، لكونها قد اشتملت على جواهر نفيسة ولآلىء ثمينة، استخرجتها النفوس القدسية المطهرة عن التلويثات الظلمانية، المانعة من التأهل للقيام بالمقامات التوحيدية الإلهية أفادوها من تأخر عنهم، قدس الله أرواحهم الزكية، وأفاض عليهم الإشراقات القدسية ورزقنا الله الانعكاس علينا من كمالاتهم وتجلياتهم بعد الاستمداد منه والطلب، إنه جواد كريم.

وإذا عرفت ما تلوناه عليك من هذه المباحث التي يحق لها أن تكتب بقلم النور على خدود الحور، أو تجعل تمائم في نحور الصدور، وتبقى مد[1] الأعصار والدهور، وانتقش[2] في القوة البصيرية منك، وجعلته بمكان في خزانتي الحافظة والمفكرة، فنرجع إلى ما كنا بصدده أولاً فنقول: اعلم أن مراتب جميع الناس عوامهم وخواصهم وخواص خواصهم منحصرة في مراتب ثلاث، أعني البداية والوسط والنهاية، لأن المراتب وإن لم تنحصر بحسب الأشخاص والجزئيات، فإنها منحصرة بحسب الأنواع والكليات، فالشريعة اسم للوضع الإلهي، والشرع النبوي من حيث البداية، والطريقة اسم له من حيث الوسط، والحقيقة اسم له من حيث النهاية، ولا تخرج المراتب وإن كثرت عن هذه الثلاث، فيكون هو جامع للكل كما سبق تقريره، أعني يكون الشرع اسماً جامعاً للمراتب المذكورة كلها، لأن الأولى مرتبة العوام، والثانية مرتبة الخواص، والثالثة مرتبة خاص الخاص، والمكلفون وذوو العقول بأجمعهم ليسوا بخارجين عنها، فتكون هذه المراتب شاملة للكل، ومعطية حق الكل، وتكون كل واحدة منها حقاً في نفسها، ولذلك لا يجوز

---

(١) مدى.

(٢) انقش.

إنكار مرتبة منها، ولا مذمة أحد من أهلها، فإن الأُسوة الحسنة ما تتم إلا برعاية هذه المراتب كلها، وإلى تغايرهم وتخالفهم بحسب الاستعدادات والقابلية في هذه المراتب قال: و﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[المائدة/٤٨] ووالله ثم والله لو لم يكن في القرآن إلا هذه الآية، لكفت برهاناً على صدق ما قلناه، فضلاً من أن ثلث القرآن مشحوناً بأمثال ذلك دون الأخبار والآثار المروية الصحيحة، وإن تحققت عرفت أن الإسلام والإيمان والإيقان من اقتضاء هذه المراتب، وواقع على ترتيبها، وكذلك الوحي والإلهام والكشف، وكذلك النبوة والرسالة والولاية، وكذلك علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، وكذلك الأقوال والأفعال والأحوال المترتبة على الشريعة والطريقة والحقيقة، وغير ذلك من المراتب التثليثية، وبل الوجود كله واقع على هذه المراتب، كالتثليث الفردية الموجبة لكثرة الاعتبارية مثلاً، أو التثليث الاعتبارية الذهنية، كاعتبار العلم والعالم والمعلوم، أو التثليث الفردية الخارجية، كاعتبار الحضرة الأحدية الواحدية والربوبية بالنسبة إلى العوالم الغيبية، وكاعتبار العلم والأمر والإرادة بالنسبة إلى العوالم الكونية، والتي بإزائها من القابلية من المعلوم والمأمور والمراد، أو كاعتبار الملك والملكوت والجبروت، أو عالم العقول والنفوس والمحسوس، أو الثليث[1] المخصوصة بالتثليث المحمدية، المقتضية لمقامه لقوله: «حبب إلي من دنياكم ثلاث، الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة» وما شاكل ذلك بالغاً ما بلغ، فحينئذ كما لا يجوز الانكار على أقوال الأنبياء عليهم السلام وعلى القائلين والقائمين بأدائها المخصوصة بأهل الشريعة وأهل البدايات، فكذلك لا يجوز الإنكار على أفعال الأنبياء عليهم السلام وعلى

---

(١) التثلث

الموصوفين بها والقائمين بأدائها المخصوصة بأرباب الطريقة وأهل الوسط، وكما لا يجوز الإنكار على أقوالهم وأفعالهم، فكذلك لا يجوز الإنكار على أحوالهم المعبرة عنها بالحقيقة، وعلى المتصفين بها والمخصوصين بمراتبها من أهل الحقيقة وأرباب النهاية.

وبالجملة لا يجوز الإنكار على أحد من أرباب الشريعة والطريقة والحقيقة «وأوتيت جوامع الكلم وبعثت لأتمم مكارم الأخلاق» إشارة إلى هذا كما أشرنا إليه، لأن الخلق ليسوا متساويين[١] حتى كان تكميلهم في مرتبة واحدة ومقام واحد بل الخلق متفاوتون في الاستعداد[٢] أو القابلية، ويجب إيصال كل واحد منهم إلى حقه المعين له بحسب الاستعداد والقابلية، ومن هذا صاروا مأمورين نكلم[٣] الناس على قدر عقولهم.

وإن قلت: يلزم من هذا حقية كل طائفة من طوائف الناس بما عليهم من الأديان والملل والاراء والاعتقاد[٤]، وليس الكل حقاً عند الكل. قلت: كل من يكون على الشريعة والطريقة والحقيقة على ما قررناه ويقوم بأداء هذه المراتب على ما هي عليها أو بواحدة منها فهو حق وطريقه حق ودينه صحيح، وهو على صراط مستقيم ودين قويم، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف/ ٤٠، والروم/ ٣٠] إشارة إلى هذا، وكل من لم يكن كذلك فهو ليس بحق وليس على صراط مستقيم ودينه ليس بصحيح، بل هو ضال مضل باطل مبطل، والبعد عنه واجب، وهذه قاعدة مطردة بين أرباب التحقيق، وعليها بناء كل أصول وأساس كل فروع،

---

(١) متساوين.

(٢) الاستعدادات.

(٣) بتكلم

(٤) الاعتقادات.

وإليه أشار الحق تعالى مخاطباً لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[يوسف/ ١٠٥]، ويشهد بذلك أيضاً اصطلاحهم في تعريف الشيخ والمرشد، وهو قولهم: الشيخ هو الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة، البالغ إلى حد التكميل فيها، لعلمه بآفات النفوس وأدوائها وأمراضها، ومعرفته بدائها وقدرته على شفائها، والقيام بها إن استعدت ووفقت لاهتدائها، وكذلك ما ورد في تعريف العلم والعالم المتصف به، لأنهم قسموا العلم بالقشر[1] واللب ولب اللب، وأرادوا به المراتب المذكورة ورعاية حقوقها، وهو قولهم: القشر كل علم ظاهر يصون به العلم الباطن، الذي هو لبه عن الفساد، كالشريعة للطريقة، والطريقة للحقيقة، فإن من لم يصن حاله وطريقته بالشريعة فسد حاله وآلت طريقته هوى وهوساً ووسوسة، ومن لم يتوصل بالطريقة إلى الحقيقة ولم يحفظها بها فسدت حقيقته وآلت إلى الزندقة والإلحاد، واللب هو العقل المنور بنور القدس، الصافي عن قشور الأوهام والتخيلات، ولب اللب هو مادة النور الإلهي القدسي الذي يتأيد به العقل، فيصفو عن القشور المذكورة، ويدرك العلوم المتعالية إدراك القلب المتعلق بالكون، المصون عن الفهم، المحجوب بالعلم الرسمي، وذلك من حسن السابقة المقتضي لخير الخاتمة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء/ ١٠١].

وإذا عرفت هذه القواعد والضوابط، وتحققت المقصود من وضع هذه المراتب فاعلم أن الشرع وضع إلهي وترتيب رباني، واجب على الأنبياء والأولياء عليهم السلام القيام به وبأركانه، والأمر بإقامة أمتهم عليها، أعني يجب عليهم تكميل الخلق في المراتب الثلاث الجامعة لجميع المراتب، ولا يجوز

---

(١) إلى القشر.

الاخلال بواحدة منها، وألا يلزم الإخلال بالواجب منهم، وهذا مستحيل بالنسبة إليهم، لأنهم معصومون عن الخطأ وأفعال القبائح، ولا يصدر منهم أمثال ذلك أصلاً، ولهذا كانوا دائماً يراعون المراتب المذكورة، كما هو معلوم من شرائعهم وأديانهم من آدم إلى محمد عليه السلام، وسيما ما سبق من قول نبينا صلى الله عليه وآله، الذي هو أعلمهم وأكملهم وأعظمهم، وهو قوله: «الشريعة أقوالي والطريقة أفعالي والحقيقة أحوالي»... الحديث بتمامه، ويعضد هذا أيضاً إرشاد إبراهيم عليه السلام لأمته وقومه في صورة الكواكب والقمر والشمس، لأن الأول ارشاد للعوام، والثاني للخواص، والثالث لخاص الخاص على حسب الترتيب المعلوم من الشريعة والطريقة والحقيقة.

وبيان ذلك وهو أن الأول إشارة إلى نور الحس والذي في مقامه في طلب الحق والعبور عنه، كأهل الشريعة وأهل الظاهر والعوام، لأن الكوكب في العالم بمثابة نور الحس في الإنسان، والثاني إشارة إلى نور العقل والذي في مقامه في طلب الحق والعبور عنه، كأهل الطريقة وأهل الباطن والخواص، لأن القمر في العالم بمثابة نور العقل في الإنسان، والثالث إشارة إلى نور القدس المسمى بنور الحق والذي في طلب الحق والعبور عنه، كأهل الحقيقة وأهل باطن الباطن وخاص الخاص، لأن نور الشمس في العالم بمثابة نور القدس في الإنسان، لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[الزمر/ ٢٢]، وإنما يلزم العبور عنه، أعني عن نور الحق، لأن الرائي والمرئي والنور الذي هو الواسطة بينهما ثلاثة أشياء وهو عين الكثرة، ومشاهد في عالم التوحيد لا يقتضي هذا، فيجب العبور عنه حتى يثبت التوحيد، وذلك يكون بفناء العارف في المعروف، والشاهد في المشهود، وأما الذي قال بعض المفسرين في هذا بأن إبراهيم عليه السلام كان طفلاً صغيراً ولم يكن له أهلية بين الكواكب والقمر والشمس وربه، فذلك خطأ محض، وبل كفر صرف، جلّ مقام الأنبياء والأولياء عليهم السلام عن أمثال ذلك، لأنهم

معصومون، والمعصوم يجب أن يكون معصوماً من الصغير إلى الكبير، في أقواله وأفعاله وأحواله ودينه واعتقاده وسره وعلانيته، ولا يصدر منه الفعل القبيح أصلاً، لا سهواً ولا نسياناً، ولا عمداً ولا خطأ، والذي قال أيضاً البعض الآخر منهم، إنه كان في ابتداء سلوكه ومبدأ معرفته بنظره العقلي وإدراكه الفكري، كما هو عادة علماء المعقول ليس بصحيح أصلاً، لأن هذا كان في زمان نبوته وحال دعوته لأمته، وهو زمان كماله وكمال عقله ومعرفته وفطنته وذكائه، وأيضاً نبوة الأنبياء والرسل ومعارفهم وحقائقهم ليست كسبية نظرية، حتى يقال فيهم هذا، لأن نبوتهم ورسالتهم وولايتهم عطاء إلهي محض، وإنعام رباني صرف من غير علة ولا سبب صادر عنهم، لقوله تعالى بالنسبة إلى نبينا ﷺ : ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[النساء/ ١١٣] ولقوله بالنسبة إلى سليمان عليه السلام : ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[ص/ ٣٩]، ولقوله بالنسبة إلى عيسى عليه السلام : ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[مريم/ ٣٠، ٣١]، ولقوله بالنسبة إلى يحيى عليه السلام : ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[مريم/ ١٢] وأمثال ذلك كثيرة في القرآن، يكفي للتنبيه هذا المقدار، ومع ذلك الذي يشهد بأن قضية إبراهيم عليه السلام كان في[1] زمان نبوته ودعوته لأمته قوله تعالى في مواضع منها: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[الأنعام/ ٨٠ ـ ٨٣]، وكفى بالله حاكماً وشهيداً، لأنه لو لم يكن هذا في زمان نبوته ودعوته ما قال تعالى وحاجّه قومه، وسبب ذلك وهو أن بعض

---

(١) في عهد نبوته وزمان دعوته.

قومه كانوا يعبدون الكواكب ويسجدون لها، وبعض قومه يعبدون القمر ويسجدون له، وبعض قومه يعبدون الشمس ويسجدون لها، وغير ذلك من الأصنام والأوثان، وكان يهديهم بحسب الظاهر والتوحيد الإلهي أي وجود إله واحد، خالق كل موجود ومنشئه، وبحسب الباطن والتوحيد الوجودي إلى مشاهدة وجود واحد، موجد كل شيء ومظهره الذي ليس في الوجود غيره، لقوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام/ ٧٩]، وقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ في المواضع الثلاث ليس عند التحقيق إلا استفهام انكار، وتقديره، أن هذا الشيء المخلوق والمحدث المصنوع في معرض الأفول والزوال من الكواكب والقمر والشمس، أيجوز أن يكون ربي ورب كل شيء؟ لا والله لا يجوز، وليس هو ربي ولا رب كل شيء، بل هو مخلوق من مخلوقاته، ومصنوع من مصنوعاته، أو يقول أبنور هذا الشيء المخلوق المحدث الذي هو نور الحس أو نور العقل أو نور القدس أو المجموع اعرف ربي؟ وهل يمكن معرفته بقوة هذه الأنوار الثلاثة؟ لا والله لا يمكن، بل لا يمكن إلا بالعبور عنها والعروج عن مراتبها، لأن الوصول إلى معرفته الحقيقية مشاهدة ذاته المطلقة لا يمكن إلا به وبنوره الحقيقي، كما قال النبي ﷺ: «عرفت ربي بربي» وقال بعض العارفين من أمته: سبحان من لا يوصل[1] إليه إلا به. وكل عاقل يعرف أن مشاهدة جرم الشمس وشعاعها المشرقة لا يمكن إلا بنور الشمس، (ومثل أهل الشريعة في معرفة الحق) بقوة نور الحس، كمثل شخص يطلب مشاهدة جرم الشمس في ظلمة الليل بقوة نور الكواكب، ومعلوم أنه لا يجدها أبداً، (ومثل أهل الطريقة في معرفة الحق) بقوة نور العقل، كمثل شخص يطلب مشاهدة جرم الشمس في ظلمة الليل بقوة نور القمر، ومعلوم أنه لا يجدها أبداً، (ومثل

---

(١) يصل.

أهل الحقيقة في معرفة الحق) بقوة نور القدس كمثل شخص يشاهدها الشمس، ومعلوم أنه يشاهدها، لكن مع اعتبار الشاهد والمشهود، وليس هذا بتوحيد صرف، فالدقيقة في هذا وهي أن كل من شاهد نور الشمس بنور الشمس، كما أنه لا يقدر أن يصل إلى الشمس حقيقة إلا بعد حصول المناسبة بينه وبينها من الصفاء والنورية والكمال والشرف وغير ذلك، فكذلك كل من شاهد الحق فإنه لا يقدر أن يصل إليه إلا بعد حصول المناسبة بينه وبينه من التجرد والاستغناء والتقديس والتنزيه وأمثال ذلك، المعبر عنه بالتخلق بأخلاقه، لقول النبي ﷺ: «تخلقوا بأخلاق الله»، وقوله تعالى في الحديث القدسي: «كنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله» إشارة إلى هذا، ولهذا قال العارف: ليس كل من سلك وصل، ولا كل من وصل حصل، ولا كل من حصل حصل، ولا كل من حصل فصل، ولا كل من فصل وصل، ولا كل من وصل أوصل، ولبيان المناسبة قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن لله تعالى شراباً لأوليائه، إذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طربوا، وإذا طربوا طابوا، وإذا طابوا ذابوا، وإذا ذابوا خلصوا، وإذا خلصوا طلبوا، وإذا طلبوا وجدوا، وإذا وجدوا وصلوا، وإذا وصلوا اتصلوا، وإذا اتصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم» ولعدم المناسبة بينه وبين نبيه عليه السلام قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[الأنفال/١٧] وقال النبي ﷺ: «من رآني فقد رأى الحق»، وقال غيره: سبحاني ما أعظم شأني، وأنا الحق وأمثال ذلك، وهذا المقام يسمى مقام الفناء في التوحيد، أعني مقام فناء العارف في المعروف، والمحب في المحبوب، والشاهد في المشهود، بمحو الاثنينية الاعتبارية، ورفع الأنانية المانعة عن الوصول إليه، كقول بعضهم فيه.

شعر

بيني وبينك اني ينازعني فارفع بلطفك إني من البين

وليس المراد بهذا الفناء فناء الأعيان، حتى يتوهم المحجوب منه ذلك

بل المراد به الفناء في العرفان على الوجه الذي قررناه مراراً، لأن الأنبياء والرسل والأولياء والعارفين منهم، كانوا فانين فيه باقين به، وأعيانهم كانت موجودة، مع أنهم فانين، فافهم جداً، فإن فناء نبيناﷺ في الله لا يمنعه عن المآكل والمشارب والمناكح أيضاً، وفي قوله: «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل» إشارة إلى مقام الفناء، وقوله: ﴿أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[فصلت/ ٦] إشارة إلى مقام البقاء، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾[العنكبوت/ ٤٣]، ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[القصص/ ٨٨]، و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[الرحمٰن/ ٢٦و ٢٧] إشارة إليه.

ومثال فناء العبد في الرب إن لم تفهم هذه العبارة، كفناء نور الكواكب في نور الشمس عند استوائها في قطب الفلك، أو فناء الأمواج في البحر على التواتر والتوالي، كما قيل:

البحر بحر على ما كان في قدم   إن الحوادث أمواج وأنهار

ولهذا قيل: الباقي باق في الأزل، والفاني فان لم يزل، وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين إشارة إلى المعارف الثلاث، ولهذا حق اليقين خص بمقام الفناء واضمحلال رسم العبد في الرب كما أشاروا إليه، إنما ثبت الحق عند اضمحلال الرسم، وبالجملة فإذا حصل للشخص هذا الفناء، وفنى وجوده في وجود الحق، وذاته في ذاته وصفاته في صفاته، وانمحى رسمه وزال عنه اسمه، كفناء نور الكواكب في نور الشمس، وشاهد الحق بالحق على ما هو عليه في مظاهر كمالاته وصفاته، وعرف معنى ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، وشاهد سر قوله ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾[البقرة/ ١١٥]، عرف أن العارف لمَ قال إذا تم الفقر فهو الله ولمَ قال سبحاني ما أعظم شأني، ولمَ قال: من مثلي وهل في الدارين غيري، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[التحريم/ ٨]، هداية إلى

طلب هذا النور الذي يفني ظلمة وجوده، ويوصله إلى ربه بقوة المناسبة والنورية والصفاء والتجرد، وعدم التقيد والتعلق بالغير، ولهذا قال في جوابهم: ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾[الحديد/ ١٣]، ومعناه: أي ارجعوا إلى ورائكم الذي هو العدم الأصلي، والغناء الجبلي اللازم لذوات الإمكان ووجود الحدثان، قوموا عن عين بصيرتكم، واخرجوا أنفسكم من ظلمات الأنانية والغيرية، ثم بعد ذلك فالتمسوا النور الحقيقي، الموجب لبقائكم أبد الآباد، بدخولكم في جنة الذات وعرصة الصفات وعوالم التجليات الغير المتناهية، وعند التحقيق قوله جل ذكره: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾[النور/ ٣٥] إلى آخره اشارة إلى مشاهدة هذا النور في المراتب الثلاث، لأن المشكاة إشارة إلى عالم الملك، وهو بمثابة الشريعة، والزجاجة إلى عالم الملكوت، وهو بمثابة الطريقة، والمصباح إلى عالم الجبروت، وهو بمثابة الحقيقة، والشجرة إلى حضرة العزة، وهو بمثابة الوجود المطلق، الصادر منها جميع المقيدات، المعبرة عنها بالممكنات، لأن النور بالاتفاق وجود، والظلمة عدم، وقوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾[النور/ ٣٥] إشارة إلى النور الأخير الذي هو السبب في الشهود والوصول، والعلة في المناسبة بينه وبين عبيده، ولهذا قال عقيبه: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[النور/ ٣٥] تنبيه لعبيده، لكي يتحققوا أن حصول نور المشاهدة موقوف على رفع ظلمة وجودهم الإضافي المجازي، وفي هذا المثال والآيات التي قبله أسرار لا يحتملها اطباق السماوات والأرض، كما قال: ﴿لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[الكهف/ ١٠٩]، والغرض من إيراده، أي إيراد هذا المثال وتكرار هذه الآيات والأقوال، أنها شواهد عدل على صدق ما قلناه، وصحة ما بيّناه من حصول النور والمشاهدة، ورفع الاثنينية الاعتبارية وغير ذلك،

ونبينا ﷺ نظراً إلى هذا النور وإرشاداً لأمته إلى طلبه قال في دعائه: «اللهم اجعل لي نوراً في قلبي ونوراً في سمعي ونوراً في بصري ونوراً في لحمي ونوراً في دمي ونوراً في عظامي ونوراً من بين يدي ونوراً من خلفي ونوراً من تحتي ونوراً من فوقي ونوراً عن يميني ونوراً عن شمالي ونوراً في قبري، اللهم زدني[1] نوراً وأعطني نوراً واجعل لي نوراً بحق حقك يا أرحم الراحمين».

وإذا تحقق هذا فنرجع إلى الغرض ونقول: اعلم أن المراد من مجموع هذا البحث أن الأنبياء والرسل عليهم السلام دائماً كانوا مراعين لهذه المراتب الثلاث، وآمرين لأمتهم بمراعاتها، والقيام بأداء حقوقها من الشريعة والطريقة والحقيقة، فيجب على كل عاقل القيام بها بقدر القوة والطاقة، والاجتهاد في مراعاتها نظراً إلى تحصيل كماله وسعادته، بعد نظره على الانقياد الصرف والمطاوعة المحضة، وعلى هذا ذهب مذهب أهل الله وخاصته، وأرباب التوحيد وخلاصته، فطوبى لعبد يقفو أثرهم، ويضع قدمه قدمهم، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وحيث تقرر هذا وتحقق أن الشريعة والطريقة والحقيقة أسماء صادقة على حقيقة واحدة، التي هي الشرع، وليس بين هذه المراتب مغايرة، فلنشرع في الوجه الثاني، الذي هو في بيان ترجيح كل واحدة من أهل هذه المراتب على الأخرى، وهو هذا:

الوجه الثاني في بيان أن أهل الحقيقة هم أعلى مرتبة من أهل الطريقة، وأهل الطريقة من أهل الشريعة

اعلم أن الشريعة والطريقة والحقيقة وإن كانت بحسب الحقيقة واحدة،

---

(١) زد لي.

لكن الحقيقة أعلى من الطريقة، والطريقة من الشريعة، وكذلك أهلها، لأن الشريعة مرتبة أولية، والطريقة مرتبة وسطية، والحقيقة مرتبة منتهانية، فكما أن البداية يكون كمالها بالوسط، فكذلك الوسط يكون كمالها بالنهاية، وكما أن الوسط لا يحصل بدون البداية، فكذلك النهاية لا تحصل بدون الوسط، أعني كما لا يصح وجود ما فوقها بدون ما تحتها ويصح بالعكس، فكذلك لا يصح وجود الوسط بدون البداية، ووجود النهاية بدون الوسط، ويجوز بعكس ذلك، أعني تصح الشريعة من غير الطريقة، ولا تصح الطريقة من غير الشريعة، وتصح الطريقة من غير الحقيقة، ولا تصح الحقيقة من غير الطريقة كما سبق ذكره، وذلك لأن كل واحدة منها كمال للآخر، كالوسط للبداية، والنهاية للوسط، فحينئذ الشريعة والطريقة والحقيقة وإن لم تكن بينها مغايرة في الحقيقة، لكن كمال الشريعة لا يكون إلا بالطريقة، كما أن كمال الطريقة لا يكون إلا بالحقيقة، وعلى هذا التقدير فالكامل المكمل يكون هو الجامع لهذه المراتب كلها، لأن الجامع بين الشيئين أو بين المقامين لا بد وأن يكون أفضل منهما وأكمل، كأهل الحقيقة بالنسبة إلى أهل الشريعة والطريقة، ولهذا صار نبينا صلى الله عليه وآله أعظم الأنبياء وأشرفهم، فإنه كان جامعاً للكل، لقوله «أوتيت جوامع الكلم»، وقد عرفت سر هذا الخبر بوجوه كثيرة، وهذا[1] غير تلك الوجوه، والمراد أن المرتبة الجامعية التي هي مخصوصة به وبأمته من أرباب الحقيقة هي[2] أعظم المراتب وأعلاها وأشرفها وأسناها، وقوله ﷺ «قبلتي ما بين المشرق والمغرب»، اشارة إلى هذا، لأنه أراد به بيان مقام الجمعية، لأن المشرق قبلة عيسى، والمغرب قبلة موسى، وما بينهما قبلته، فيكون هو جامعاً لهما، أي جامعاً لمقاميهما، اللذين هما عبارة عن قبلتيهما، (وهذا بحسب الظاهر)، (فأما بحسب الباطن) فالمشرق عالم

---

(١) هذه.

(٢) وهي.

الأرواح والروحانيات مطلقاً، والمغرب عالم الأجسام والجسمانيات كذلك، أو عالم الظاهر وعالم الباطن وغير ذلك من العوالم، وما بينهما البرزخ الجامع الذي هو مقامه صورة ومعنى، كالحضرة الواحدية المخصوصة بالحقيقة الإنسانية، التي هي حقيقة وصورة كصورة الإنسان الجامع بين العالمين، التي هي مظاهره، أو معنى كجامعيته لمعاني الأنبياء والرسل كلها، أو صورة كجامعيته لصورة شرائعهم وأديانهم بأسرها، كما ستعرفه مفصلاً وعرفته مجملاً، فكمال موسى عليه السلام وأمته كان في الاطلاع على حقائق عالم الأجسام والجسمانيات ومدارجها ومراتبها، وكمال عيسى عليه السلام وأمته كان في الاطلاع على حقائق عالم الأرواح والروحانيات ومدارجها ومراتبها، وكمال محمد صلى الله عليه وآله وأمته كان في الاطلاع على كليهما، أي عالمي الأرواح والأجسام، ولهذا (قال تعالى في حقه) ونوره الذي هو عبارة عن حقيقته: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾[النور/ ٣٥] و(قال في حق أمته): ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[البقرة/ ١٤٣] الآية.

(وأما وجه المشابهة بين العالمين[1] والمغرب والمشرق الصوري والمعنوي)، وهو أن المشرق الصوري عبارة عن موضع طلوع الشمس وانتشار أنوارها وإشراقها على عالم المحسوس، لتصير بها مشرقة نيرة، والمشرق المعنوي عبارة عن موضع طلوع شمس الحقيقة وانتشار أنوارها وإشراقها التي هي الأرواح والنفوس على أراضي الأجسام والأجساد الكدرة، لتصير بها مشرقة نيرة حية باقية ببقائها، كما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[الزمر/ ٦٩]، وقال الإمام عليه السلام: «نور يشرق من صبح الأزل فيلوح على هياكل التوحيد آثاره»، فيكون بينهما مناسبة ما، وكذلك المغرب، لأن المغرب الصوري عبارة عن موضع أفول نور الشمس وجرمها واختفائها

---

(١) الظاهر ـ الباطن.

فيه، والمغرب المعنوي عبارة عن موضع أفول نور شمس الحقيقة واختفاء شعاعها التي هي الأرواح والنفوس، لأن أنوارها تغرب فيه وتختفي اختفاء الشمس الصورية في مغربها، ولهذا قال: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف/ ٨٦]، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[آل عمران/ ١٩٠]، فيكون بينهما مناسبة ما أيضاً، ونور نبيناﷺ حيث لم يكن من عالم الأرواح الصرف، ولا من عالم الأجسام المحض، قال: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾[النور/ ٣٥]، ومعناه أنه ليس من أرباب عالم الظاهر والمحسوسات، ولا من أهل عالم الباطن والمعقولات، بل غيرهما وفوقهما بمراتب غير متناهية، إذ ليس هو في مقام الأنبياء الذي هو الحكم بحسب الظواهر مطلقاً، ولا من مقام الأولياء الذي هو الحكم بحسب الباطن مطلقاً، بل غيرهما بحسب المقامات والمعلومات، وفوقهما بحسب الجامعية والمجموعية، ويعرف هذا شرائعهم وأديانهم كما سبق ذكره، ولهذا جاء موسى عليه السلام بتكميل الظواهر مضافاً إليه تكميل بعض البواطن، وقد حقق هذا في التوراة وما فيها من الأحكام، وجاء عيسى عليه السلام بتكميل البواطن مضافاً إليه تكميل بعض الظواهر، وقد حقق هذا في الإنجيل وما فيه من الأسرار، وجاء نبيناﷺ «بتكميل الطرفين والجمع بين المرتبتين» لقوله: «أُوتيت جوامع الكلم»، ولقوله: «قبلتي ما بين المشرق والمغرب»، وقد حقق هذا أيضاً في القرآن وما فيه من الأحكام والأسرار الجامعة لهذه المعاني، وبالحقيقة تسميته بالقرآن لم يكن إلا لجمعيته، لأن القرء في اللغة هو الجمع، ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا القرآن الناطق، وأنا كتاب الله الجامع»، لأنه جامع[1] للمرتبتين، حاو[2] للمقامين، أي الظاهر والباطن، وقال غيره من العارفين:

---

(١) جامعاً.

(٢) حاوياً.

شعر

أنا القرآن والسبع المثاني ... وروح الروح لا روح الأواني

وذلك أيضاً لجامعية المرتبة الجمعية المحمدية وقد أورد بعض الفضلاء هذا المعنى بعينه في بعض تصانيفه وهو قوله: لما كان التكميل الموسوي في طريق الكمال المطلق النوعي، «كان ميله إلى تكميل الجزء الأخس للإنسان وهو البدن»، ولذلك شحنت التوراة ببيان مصالح المعاش، ولما كان عيسى عليه السلام أكمل منه، «كان تكميله للجزء الأشرف منه وهو النفس»، ولذلك شحن الانجيل ببيان مصالح المعاد، ولما كان محمد صلى الله عليه وآله قد حاز الكمال المطلق النوعي، كان تكميله لجزأي الإنسان معاً، فإن كمال المركب هو اكمال جميع اجزائه المادية والصورية، وهو سلوك الفضيلة، وهذا هو السر[1] في رفع الرهبانية في دينه، ففقهاء أمته عليه السلام وعلماؤها مشبهون بموسى عليه السلام في تكميل الظواهر، والحكماء الإسلامية وأمثالهم من أرباب المعقول مشبهون بعيسى عليه السلام في تكميل البواطن، والعارفون المحققون مشبهون بمحمد صلى الله عليه وآله في تكميل البواطن والظواهر، لقيامهم بالمراتب الثلاث المذكورة من الشريعة والطريقة والحقيقة، ويعضد ذلك قول سلطان العارفين مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، الذي قال: (الشريعة نهر[2] والحقيقة بحر، فالفقهاء حول النهر يطوفون، والحكماء في البحر على الدر يغوصون، والعارفون على سفن النجاة يسيرون).

وإذا عرفت هذا فقس عليه أهل الشريعة وأهل الطريقة وأهل الحقيقة، فإن كل واحدة منها بازاء تلك المراتب، فإن أهل الشريعة بازاء الفقهاء ومن في مرتبتهم، وأهل الطريقة بازاء العلماء والحكماء ومن في مقامهم، وأهل

---

(١) هو سر رفع الرهبانية.

(٢) النسخة الثانية لا تحوي كلمة نهر.

الحقيقة بازاء العارفين ومن في منازلهم، وكذلك موسى وأُمته وعيسى وأُمته ومحمد عليه السلام وأمته، فإن كل واحد منهم بازاء كل واحدة منهم، فالمرتبة الجامعية حينئذ تكون مخصوصة بالعارفين المحققين من أُمة محمد صلى الله عليه وآله المعبرة عنهم بأهل الحقيقة، ويكونون هم أعلى وأعظم وأشرف وأفضل من أهل المرتبتين الباقيتين، وهذا هو المقصود من هذا البحث في هذا الوجه، ولعظمة قدرهم وجلالة شأنهم انتظموا تارة في سلك الله وملائكته، لقوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[آل عمران/ ١٨]، وتارة في سلك الله وحده، لقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾[آل عمران/ ٧]، ولهذا خصوا أيضاً في التقسيم بخاص الخاص والمقربين والسابقين، لأن التقسيم وقع على العوام والخواص وخاص الخاص، وعلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال والمقربين، وعلى الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات، وفي الكل الأخير مخصوص بهم، كما بيناه غير مرة عقلاً ونقلاً، ودليل آخر على ذلك، أي على خصوصيتهم بهذا المقام قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[آل عمران/ ٧]، لأن القائل بأن الكل من عند ربنا على التحقيق ليسوا إلا هم، بخلاف الأشاعرة والمجبرة المحجوبين بأنفسهم عن هذا المقام، لأن المشاهدة الكل عن الرب الحقيقي بحيث لا يلزم نقص[1] في تقديسه وتنزيهه، موقوفة على التوحيد الصرف برفع الاثنينية الاعتبارية مطلقاً، المعبر عنها بالتوحيد الفعلي والوصفي والذاتي أيضاً، وليس لغيرهم هذه المرتبة، ولا يعتقدون فيها، فضلاً عن حصولها، وقوله عقيبه: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[البقرة/ ٢٦٩] تأكيد لهذا المعنى، ومعناه أن هذا السر الشريف العظيم لا يعرفه على ما ينبغي إلا أولو الألباب من عباده، الموصوفين

---

(١) نفي.

بالرسوخ في العلم الحقيقي والتوحيد الفعلي والوصفي والذاتي، وقد عرفت تحقيق أولي الألباب والراسخين في العلم عند تعريف الشيخ والمرشد.

وإذا ثبت هذا وتقرر أن مرتبة أهل الحقيقة من جميع الوجوه أعلى من مرتبة أهل الطريقة والشريعة، وإن كانوا هم في الحقيقة واحدة، فلنشرع في الوجه الثالث، وبيان احتياج الشرع إلى العقل، واحتياج العقل إلى الشرع، واعتضاد كل واحد منهما بالآخر، لئلا يتوهم الجاهل أن الشرعيات خلاف العقل، وان العقليات خلاف الشرع، فإن كثير من الناس وقعوا في هذا، وضلوا[1] وأضلوا كثيراً من عباد الله بغير علم، لقوله تعالى فيهم وفي مخاصميهم حين المنازعة في الآخرة: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾[فصلت/ ٢٩]، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن والله أعلم وأحكم، وهو يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الوجه الثالث في بيان احتياج العقل إلى الشرع، وافتقار الشرع إليه، واعتضاد كل واحد منهما بالآخر

اعلم أن هذا البحث يحتاج إلى مقدمة، وهي أن تعرف أن الأنبياء والأولياء عليهم السلام كلهم أطباء النفوس ومعالجو القلوب، كما أن الحكماء والأطباء كلهم أطباء الأبدان ومعالجو الجسد، أعني كما أن أطباء الأبدان يعرفون إزالة الأمراض البدنية عن أبدان المرضى الصورية بحسن معالجتهم ولطف طبابتهم بواسطة الأشربة والمعاجين، فكذلك أطباء النفوس، فإنهم يعرفون إزالة الأمراض النفسانية عن نفوس المرضى المعنوية بحسن معالجتهم ولطف إرشادهم وهدايتهم بواسطة العلوم والمعارف الحقيقية، ولهذا ورد في اصطلاحهم في تعريف الطب الروحاني والطبيب الروحاني والشيخ والمرشد

---

(١) فضلوا.

ما يوافق ذلك كقولهم في الطب الروحاني: الطب الروحاني هو العلم بكمالات القلوب وآفاتها وأمراضها وأدوائها وبكيفية حفظ صحتها واعتدالها ورد أمراضها عنها، وكقولهم في الطبيب: الطبيب الروحاني هو الشيخ، العارف بذلك، القادر على الإرشاد والتكميل، وكقولهم في الشيخ السابق ذكره: الشيخ هو الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة، البالغ إلى حد التكميل فيها، لعلمه بآفات النفوس وأمراضها وأدوائها، ومعرفته بدوائها، وقدرته على شفائها، والقيام بهداها إن استعدت ووفقت لاهتدائها، فكما أن المريض الصوري لا يجوز له الاعتراض على الطبيب الصوري في علاجه ودوائه وتركيب الأدوية والأشربة والمعاجين وغير ذلك، فكذلك المريض المعنوي فإنه لا يجوز له الاعتراض على الطبيب المعنوي في إرشاده وهدايته وكيفية رياضاته ومجاهداته في التكاليف الشاقة والأعمال البدنية الصعبة، لأن الاعتراض على الطبيب مطلقاً صورياً كان أو معنوياً، لا يزيد في المريض إلا المرض، لأن المريض الصوري إذا اعترض على الطبيب الصوري، ينفر منه الطبيب ويترك علاجه، وإذا ترك علاجه زاد مرضه أو مات وهلك، وكلاهما قبيح، ومع قبحه يوجب للهلاك الصوري، وزوال الحياة عن صاحبها، وكذلك المريض المعنوي، فإنه إذا اعترض على الطبيب المعنوي تنفر الطبيب منه وترك علاجه الذي هو إرشاده، وإذا ترك علاجه زاد مرضه المعنوي الذي هو الضلال، لقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[البقرة/ ١٠]، أو مات بالموت الحقيقي الذي هو الكفر والنفاق، لقوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[الأنعام/ ١٢٢]، وكلاهما قبيح ومع قبحه موجب للهلاك الأبدي والشقاء السرمدي، فحينئذ كما أن المريض الصوري الذي يريد الصحة الكلية، يجب عليه تناول الأشربة المنفرة للطبع من يد الطبيب الصوري طوعاً وكرهاً من غير اعتراض ولا منع، فكذلك المريض

المعنوي الذي هو الصحة الكلية، فإنه يجب عليه أيضاً تناول الأشربة المنفرة للطبع، التي هي التكاليف الشاقة على أنواع طبقاتها من يد الطبيب المعنوي طوعاً وكرهاً من غير اعتراض ولا منع، وإلى هذا المعنى إشارة الحق تعالى في قوله بالنسبة إلى نبينا محمدﷺ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء/ ٦٥].

والمراد من هذا البحث في هذه المقدمة أن يتحقق عندك وعند غيرك أن القواعد التي قد تقدم تقديرها، والضوابط التي قد تقرر تمهيدها، خصوصاً من بحث الشريعة والطريقة والحقيقة حق وصدق، وكل واحدة منها في نفسها لا ينبغي إلا كذلك، ولا يعترض أحد على أحد منهم في شيء منها ولا يقول إن هذا خلاف العقل أو خلاف النقل، لأن كل ما يكون خلاف عقل زيد مثلاً لا يجب أن يكون خلاف عقل عمرو، خصوصاً عقول الأنبياء والأولياءعليهم السلام، فإن عقولهم أكمل العقول، كما أن نفوسهم أكمل النفوس، والتفاوت بين[1] عقولهم وعقول الخلق بعينه التفاوت بين نفوسهم ونفوس الخلق، ومعلوم أن بينهما بون بعيد، ومن أنكر ذلك فهو جاهل سفيه، مكابر لعقله، لا يلتفت إليه، وليس هو المخاطب بهذا الكلام، وكذلك النقل، لأنك ما أنت في صدد أن كل نقل ورد في الوجود سمعته وعرفته، وإن سمعته وعرفته عرفت معناه وتحققت فحواه، لأن هناك نقل كثير ما قرع سمعك أبداً ذكره، ولا عرفت معناه، كما قال جل ذكره: «اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» ومعلوم أن أكثر الأوضاع الشرعية والأحكام الإلهية خلاف الإدراكات العقلية والتصرفات الحسية، فلا يجوز حينئذ الاعتراض على واحدة منها، لأن الأنبياء والأولياء عليهم

---

(١) بينهم وبين عقول الخلق.

السلام، الذين حكموا بها، لو لم يكن موافقاً لعقلهم لم يكونوا مأمورين من عند الله بأدائها وما حكموا بها، ولا كلفوا العباد بالقيام بأركانها، وكل ما يكون موافقاً لعقلهم، يكون موافقاً لعقل جميع العقلاء، غاية ما في الباب يكون خلاف عقلك وعقل مثلك، فلا يلزم من هذا أنه ليس بمعقول، ولا موافقاً للعقل في نفس الأمر، وبسبب أن أكثر العقول عاجزة عن فهم الأوضاع الشرعية والقوانين الإلهية، وأن أكثر أسرارها وأحكامها خارجة عن طور عقل الخلق خصوصاً أهل الظاهر منع رسول الله ﷺ السؤال عن كيفيته وكميته، مثل ـ السؤال أن الظهر مثلاً لم كانت أربعة والمغرب ثلاثاً، والصبح ركعتان وكذلك باقي الأركان الشرعية، ومثال عجز العقل عن إدراك أسرار الشرع وأحكامه، كعجزه عن إدراك سر ملك الموت، فإن العقل ما له قوة أن يدرك أن هناك ملك واحد، له قوة أن يقبض في ساعة واحدة نفس مائة الف إنسان أو حيوان مع بعد المسافة من المشرق إلى المغرب، وكذلك عن سر جبرائيل عليه السلام، فإنه لا يعرف ولا يدرك أن[1] ملك واحد كيف ينزل في آن واحد من السابعة على رأي ومن العرش على رأي إلى الأرض، ويوحي إلى نبي من الأنبياء، ويرجع في ذلك الآن أو غيره من الأنات، وعلى هذا التقدير ليس للمكلف العاقل أصلح من التسليم للأوامر الإلهية والأحكام الشرعية، والتصديق بها مع عدم السؤال عن ماهيتها وحقيقتها، لأنه ليس في الشرع شيء خلاف العقل أصلاً، ولا في العقل الصحيح خلاف الشرع شيء أيضاً، وعند التحقيق ليس بناء التكاليف الشرعية والقوانين الإلهية إلا على العقل والعاقل، وكذلك ظهور الشرع وإجراء أحكامه، فإن الكل موافق للعقل، مطابق لنظر العاقل إذا كان صحيحاً، وبل مدار الوجود كله ليس إلاّ على[2]

---

(١) أن ملكاً واحداً ينزل من السابعة.

(٢) إلا العقل.

العقل والعاقل، وبه ابتدأ الوجود عند الإيجاد، وبه يختم[1] عند الاعدام، وفيه قيل: سبحان من ابتدأ بالعقل واختتم[2] بالعاقل، وقد ورد في الحديث النبوي: «أول ما خلق الله العقل، فقال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، فقال عزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحب إلي منك، بك آخذ وبك أعطي، وبك أثيب وبك أعاقب. . . » الحديث.

وبالجملة مثال الشرع والعقل واحتياج كل واحد منهما إلى الآخر مثال الروح والبدن، واحتياج كل واحد منهما إلى الآخر، أعني كما أن تصرف الروح وظهور صفاته وكمالاته لا يمكن إلا بالجسد وما اشتمل عليه من القوى والأعضاء، فكذلك تصرف الشرع وظهور مراتبه وكمالاته، فإنه لا يمكن إلا بالعقل ومراتبه وأقسامه، وقد عرفت مراتب العقل أن منها العقل الهيولاني والعقل بالفعل والعقل بالملكة والعقل المستفاد، فالشرع دائر على هذه المراتب، لأن الأولى والثانية مرتبة العوام، والثالثة مرتبة الخواص، والرابعة مرتبة خاص الخاص من الأنبياء والأولياء صلوات الله عليهم أجمعين.

والغرض أن الشرع ليس بمستغن عن العقل، ولا العقل عن الشرع، وقد ذهب إلى هذا أكثر العلماء والعارفين، وأكثر الحكماء الإسلاميين، ومنهم الشيخ الكامل أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني تغمده الله بغفرانه، فإنه ذكر في كتابه المسمى بتفصيل النشأتين في تحصيل السعادتين بيان ذلك مفصلاً، وهو قوله: اعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لن يتبين إلا بالعقل، والعقل كالأس والشرع كالبناء، ولن يغني أُس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أُس، وأيضاً فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن

(١) انختم.

(٢) يختم.

بصر، فلهذا قال: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾[المائدة/ ١٦]، وأيضاً فالعقل كالسراج والشرع كالزيت الذي يمده، فما لم يكن زيت لم يشعل السراج، وما لم يكن سراج لم يضيء الزيت، وعلى هذا نبّه بقوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[النور/ ٣٥] والمراد نور الشرع على[1] نور العقل، فإنه لا يضيء إلا به، وأيضاً فالشرع عقل من خارج، والعقل شرع من داخل، وهما يتعاضدان[2]، بل يتحدان[3]، ولكون الشرع عقلاً من خارج، سلب الله اسم العقل من الكافر في غير موضع من القرآن، نحو ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة/ ١٧١]، ولكون العقل شرعاً من داخل قال الله تعالى في صفة[4] العقل: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الروم/ ٣٠]، فسمى العقل ديناً، ولكونهما متحدين قال: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[النور/ ٣٥]، أي نور العقل ونور الشرع، ثم قال: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[النور/ ٣٥]، فجعلهما نوراً واحداً، فالعقل إذا فقد، عجز الشرع عن أكثر الأمور الكلية، كما إذا فقد الشرع، فإن العقل يعجز عن أكثر الأمور الجزئية، وذلك لأن الشرع كالعين والعقل كالنور أو بالعكس، ولا يستغني أحدهما عن الآخر، ثم اعلم أن العقل بنفسه قليل الغناء[5] (لا يكاد)[6] لا يتوصل إلا إلى معرفة كليات

(١) نور العقل على نور الشرع.

(٢) متعاضدان.

(٣) متحدان.

(٤) وصف.

(٥) الفناء.

(٦) لا توجد في النسخة المطبوعة.

الشيء[1] دون جزئياته[2]، نحو أن يعلم جملة حسن اعتقاد الحق وقول الصدق وتعاطي الجميل وحسن استعمال المعدلة[3] وملازمة العفة ونحو ذلك، من غير أن يعرف ذلك في شيء شيء، والشرع يعرف كليات الشيء[4] وجزئياته[5]، ويبين ما الذي يجب أن يعتقد في شيء شيء، وما الذي هو معدله[6] في شيء شيء، ولا يعرفها[7] العقل مثلاً أن لحم الخنزير والدم والخمر محرمة[8]، وأنه يجب أن يتحاشى[9] من تناول الطعام في وقت معلوم، وأن لا ينكح ذوات المحارم، وأن لا يجامع المرأة في حال الحيض، فإن أشباه ذلك لا سبيل إليها إلا[10] بالشرع، فالشرع نظام الاعتقادات الصحيحة والأفعال المستقيمة، والدال على مصالح الدنيا والآخرة، من عدل عنه فقد ضل سواء السبيل، ولأجل أنه[11] لا سبيل للعقل إلى معرفة ذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء/ ١٥] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾[طه/ ١٣٤]، وإلى العقل والشرع أشار بالفضل والرحمة بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النساء/ ٨٣]، وعنى بالقليل المصطفين الأخيار، ثم شرع في بيان من لم يتخصص بالشرع وعبادة الرب، وبيان أنه

(١) الأشياء.
(٢) جزئياتها.
(٣) العدالة.
(٤) الأشياء.
(٥) لا توجد في النسخة المطبوعة.
(٦) معدلة.
(٧) لا يعرفنا.
(٨) محرم.
(٩) يتحامى.
(١٠) لا توجد في النسخة المطبوعة.
(١١) أن.

ليس بإنسان ولا عاقل وإن كان اسمه إنساناً أو عاقلاً، وقال:

لما كان الإنسان إنما يصير إنساناً بالعقل، ولو توهمنا العقل عنه مرتفعاً، لخرج كونه إنساناً، ولم يكن إذاً بحسب[1] الشبح[2]إلا مثل بهيمة مهملة، أو صورة ممثلة، والعقل لن يكمل بل لا يكون عقلاً إلا بعد الاهتداء[3] بالشرع كما تقدم، ولذلك نفى العقل عن الكافر[4] لما تعرى[5] عن الاهتداء[6] بالشرع في غير موضع من القرآن، والاهتداء بالشرع هو عبادة الله تعالى، فالإنسان إذن[7] في الحقيقة هو الذي يعبد الله، ولذلك خلق، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات/ ٥٦]، وكما قال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[البينة/ ٥]، وكل من[8] أوجد لفعل فمتى لم يوجد منه ذلك الفعل كان في حكم المعدوم. وكذلك[9] ما يسلب عن الشيء اسمه إذا وجد فعله ناقصاً، كقولهم للفرس الردي: ليس هذا بفرس، وللإنسان الرذل: ليس هو بإنسان ويقال: فلان لا عين له ولا أذن إذا بطل فعل عينه وأذنه، وإن كان شبحهما باقياً، وعلى هذا قال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[البقرة/ ١٧١] فيمن لم ينتفع بهذه الأعضاء، والإنسان[10] يحصل له من الإنسانية بقدر ما يحصل له من العبادة

---

(١) في النسخ الخطية تخطيت بحسب، وفي المطبوعة تخطينا بحسب.

(٢) الشبح الماثل إلا في النسخة المطبوعة.

(٣) اهتدائه.

(٤) عن الكفار.

(٥) تعيروا.

(٦) الهداية.

(٧) إذاً.

(٨) ما.

(٩) كذلك.

(١٠) فالإنسان.

التي لأجلها خلق، فمن قام بالعبادة حق القيام فقد استكمل الإنسانية، ومن رفضها فقد انسلخ من الإنسانية، فصار حيواناً ادون[1] حيوان، كما قال في صفة الكفار، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[الفرقان/ ٤٤]، وقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[الأنفال/ ٢٢]، فلم يرض[2] أن جعلهم أنعاماً ودواب حتى جعلهم أضل منها، وجعلهم من أشرارها، وأخرج كلامهم من[3] جملة البيان، فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾[الأنفال/ ٣٥]، تنبيهاً أنهم كالطيور التي تمكوا وتصدوا[4]، ونبه تعالى بنكتة لطيفة، أن الإنسان لا يكون إنساناً إلا بالدين ولا ذا بيان إلا بقدرته على الاتيان بالحقائق الدينية، فقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[الرحمن/ ١ - ٤]، فابتدأ بتعليم القرآن ثم بتعليم البيان، ولم يدخل الواو بينهما، وكان الوجه على تعارف[5] الناس أن يقول: خلق الإنسان وعلمه البيان وعلمه القرآن، فإن ايجاد الإنسان بحسب نظرنا مقدم على تعليم البيان، وتعليم البيان مقدم على تعليم القرآن، لكن لما لم يعد الإنسان إنساناً ما لم يتخصص بالقرآن، ابتدأ بالقرآن ثم قال خلق الإنسان، تنبيهاً على أن بتعليم القرآن جعله إنساناً على الحقيقة، ثم قال علمه البيان تنبيهاً على أن البيان الحقيقي المختص بالإنسان يحصل بعد معرفة القرآن، فنبه بهذا الترتيب المخصوص، وترك حرف العطف منه، وجعل كل جملة بدلاً مما قبلها لا عطفاً لأن الإنسان ما لم يكن عارفاً برسوم العبادة متخصصاً بها، لا يكون إنساناً، وإن كلامه ما لم يكن على مقتضى الشرع لا يكون بياناً.

---

(١) أو دون.

(٢) فلم ير أن.

(٣) عن.

(٤) تمكوا وتصدى.

(٥) متعارف.

فإن قيل: فعلى ما ذكرت[١] لا يصح أن يقال كل كافر[٢] إنسان، وقد سماهم الله تعالى بذلك في عامة القرآن.

قيل: إنا لم نقل لا يسمى الكافر إنساناً على تعارف الكافة، بل قضية[٣] العقل والشرع يقتضي أن لا يسمى به إلا مجازاً ما لم يوجد منه الفعل المختص به، ثم إن سمي به على سبيل تعارف الكافة[٤] فليس بمنكر[٥]، فكثير من الأسماء تستعمل على هذا الوجه، فبين الشرع أن ليس استعماله على ما استعملوه، كقولهم الغنى، فإنّهم استعملوه في كثرة المال[٦]، فقالوا «ليس الغنى بكثرة المال، إنما الغنى غنى النفس» فبين أن الغنى ليس هو كثرة المال، وقال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾[النساء/ ٦]، أي كثير الاعراض، فاستعمله على ما هو متعارف، وجملة الأمر أن اسم الشيء إذا أطلقه الحكيم على سبيل المدح يتناول الأشرف، كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[الزخرف/ ٤٤]، ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[الشرح/ ٤]، وإن كان الذكر قد يقال للمحمود والمذموم، وعلى هذا يمدح كل شيء بلفظ نوعه فيقال: فلان هو إنسان، وهذا السيف سيف، ولهذا قيل: الإنسان المطلق هو نبي زمانه[٧]، وقال بعض العلماء: قول من قال الإنسان هو الحي الناطق المايت صحيح، وليس معناه ما توهم[٨] كثير من الناس من له الحياة الحيوانية والموت

---

(١) ذكرته.

(٢) للكافر انسان.

(٣) بل قلنا.

(٤) العامة.

(٥) ذلك بمنكر.

(٦) وبين الشرع أن الغنى ليس هو كثرة المال، قال عليه الصلاة والسلام ليس الغنى... الخ في المطبوعة.

(٧) نبي كل زمان.

(٨) توهمه.

الحيواني والنطق الذي هو في الإنسان بالقوة، وإنما أُريد بالحي من كان له الحياة المذكورة في قوله[1] ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[الرحمن/ ٤]، وبالمايت[2] من جعل قوتي الشهوية والغضبية مقهورتين على مقتضى الشريعة، فحينئذ[3] ميتاً بالإرادة، حياً بالطبيعة، كما قيل: مت بالإرادة تحيا بالطبيعة، وبالحقيقة عن هذا الموت اخبر نبيناﷺ في قوله: «موتوا قبل أن تموتوا». وكذلك أمير المؤمنين﵇ في قوله: «قد أحيا عقله وأمات نفسه حتى دق جليله ولطف غليظه وبرق لامع كثير البرق فأبان له الطريق وسلك به السبيل وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه» وأمثال ذلك كبيرة في هذا الباب، فاطلب من مظانها، والله أعلم وأحكم وهو يقول الحق وهو يهدي السبيل.

هذا آخر بحث الشريعة والطريقة والحقيقة، وآخر بحث احتياج العقل إلى الشرع واحتياج الشرع إليه بقدر هذا المقام، ولهذه[4] الأبحاث أبحاث أخر، وهي من توابعها ولوازمها، وبل ولا تتحقق هذه الأبحاث على ما ينبغي إلا بها وهي أصلان[5] وقاعدتان، الأصل الأول في الضوابط الكلية المقررة بين الأنبياء والأولياء والرسل﵈ لإرشاد الخلائق وهدايتهم إلى الطريق المستقيم والدين القويم، والأصل الثاني في تعيين كمال كل موجود من الموجودات، وكيفية سلوكه إليه واتصافه به، والقاعدة الأولى في بحث الأصول الخمسة، وكيفية تدويرها في المراتب الثلاث من الشريعة والطريقة والحقيقة، والقاعدة الثانية في الفروع الخمسة، وكيفية تدويرها في المراتب

---

(١) لينذر من كان حياً والمنطق البيان المذكور بقوله: علمه الخ (المطبوعة).

(٢) بالميت.

(٣) فيكون حينئذ.

(٤) ولهذا.

(٥) وهي في أصلين.

الثلاث أيضاً، إذا تقرر هذا فنقول وبالله التوفيق:

الأصل الأول في الضوابط الكلية المقررة بين الأنبياء والرسل عليهم السلام لإرشاد الخلائق وهدايتهم إلى الطريق المستقيم والدين القويم

اعلم أن الضوابط الكلية والقواعد الجمالية المقررة بين الأنبياء والرسل والأولياء والأئمة من آدم إلى نبينا صلى الله عليه وآله وعليهم أجمعين، ومنه إلى المهدي عليه السلام هي إيصال كل إنسان إلى كماله المعين له بحسب الاستعداد والقابلية، وإخراجه من درك النقصان والجهل بحسب الطاقة والجهد، لقوله تعالى فيهم: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة/ ١٥١]، لأن غرضه تعالى من إيجاد الخلق لم يكن إلا هذا، كما أشار إليه في كتابه الكريم في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات/ ٥٦]، وفي قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾[الطلاق/ ١٢]، وفي قوله في الحديث القدسي: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق» وقوله أيضاً: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[النور/ ٢١] إشارة إليه، ومعناه ولولا فضل الله عليكم بإنزال الكتب ورحمته بإرسال الرسل، ما زكى منكم من جهله وكفره أبداً، لأن الشيء إذا كان بالقوة لا بد له من آخر يخرجه إلى الفعل، فكمال الذي للموجودات والمخلوقات بالقوة لولا الأنبياء والرسل وتكميل قوتي العلمية والعملية، اللتان هما في الإنسان بالقوة ما ترقى أحد من النقصان إلى الكمال أبداً، وقول نبينا عليه السلام «أُوتيت جوامع الكلم، وبعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، دال على هذا، لأنه يقول: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق الذي وضعوها الأنبياء قبلي، وكان[1] تمامها

---

(١) وكانت.

موقوفاً[١] على بعثتي في عالم الشهادة، وإن كان جميع الأنبياء والرسل في عالم الغيب والشهادة كانوا خلفائي ونوابي ومظهر[٢] من مظاهري، كما قال: «آدم ومن دونه تحت لوائي» وقال: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» وهذا المكان يحتاج إلى مقدمات عقلية، ثم إلى كلمات خطابية نقررها أولاً، ونرجع بعدها إلى الغرض.

فمنها أن تعرف: أن كل ذات لها استعداد فيض من الفيوض[٣] الإلهي، ولم يمنع منه مانع لم يحرم منه، لا في عالم الغيب ولا في عالم الشهادة، وطلب الفيض إنما يمكن لمن علم شيئين، أحدهما وجود هذا الفيض بالنفس التام، وثانيهما أن كل ذات حصل لها هذا الفيض اقتضى كمالها، وهذان العلمان يقارنان استعداد قبول ذلك الفيض في جميع الأحوال.

ومنها أن تعرف أن للنفس الناطقة قوتي علم وعمل، ولكل واحدة منهما[٤] مراتب في الكمال والنقصان، وأكملها فيها ما يسمى عقلاً مستفاداً، وهو حصول العلوم الكسبية بالفعل. المتعلقة بالأمور العلمية والعملية، والطريق الصواب هو المؤدي إليها، دون الحيرة التي هي التردد في الاعتقاد، والضلال الذي هو سلوك طريق الخطأ، ونعم الله تعالى وإن كانت غير متناهية، إلا أنها متفاوتة في الكمال، وأعلاها مرتبة العقائد اليقينية في الأصول الدينية، إذ من حصلت له هذه المرتبة خلص من العذاب السرمد، وحصل بالنعيم المؤبد.

ومنها أن الله تعالى يفعل لغرض لا عائد إليه، تعالى الله عن ذلك علواً

---

(١) موقوفة.

(٢) مظهراً.

(٣) من الفيض الإلهي وإن لم يمنع منه لم يحرم لا في عالم الغيب.

(٤) منها.

كبيراً، بل هو نفع للعباد، لأن الفاعل لا لغرض عابث، والعبث عليه محال، ولأن القرآن ناطق به كقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [البقرة/ ٢٥١] الآية، وكقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[الدخان/ ٣٨] وهاهنا مسائل:

الأولى أن اللطف واجب على[1] الله تعالى، واللطف ما كان معه المكلف أقرب إلى الطاعة وأبعد من المعصية، لأنه لائق بحكمته وكرمه ورحمته، ولا نعني بالوجوب إلا ذلك، ولأن من أراد من آخر فعلاً وعلم أنه يرجح فعله عند فعل نوع ما من اللطف به، وهو قادر عليه، ولا ضرر في فعله عليه ولا على غيره، ولا على ذلك المكلف، فإنه إن لم يفعل به كان ناقضاً لغرضه، ونقض الغرض على الحكيم محال، وإنزال الكتب وإرسال الرسل لطف، والتكليف أيضاً لطف، فيجب جميع ذلك على الله تعالى عقلاً، لئلا يناقض فعله غرضه الذي أشار إليه في كتابه في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات/ ٥٦].

ووجه آخر: وهو أنه تعالى خلق الشهوات في بني آدم، وأقدرهم على مقتضاها، ولم تف عقول كثير منهم بإدراك الحسن والقبح، وبسبب استيلاء الجهل على أكثرهم يسهل فعل القبيح والإخلال بالحسن، ويسهل اختلال نظام النوع في إبلاغ قوة الشهوية والغضبية ومقتضاهما، ومع إنزال الكتب وإرسال الرسل وإيجاب طاعتهم على الناس، يكون معه الناس إلى الصلاح[2] أقرب، ومن الفساد أبعد، فهذا هو اللطف، فيجب عليه، ولأنه لولا أن يفعل ذلك لكان تاركاً للحسن وفاعلاً للقبيح، وهما محالان على الله تعالى، وبالجملة يجب عليه اللطف مع عباده لئلا يلزم بإخلاله هذه المفاسد، والعلم بهذه المقدمات

---

(١) عليه تعالى.

(٢) صلاحهم.

من ضروريات هذا البحث، وأكثرها بل بأجمعها منقولة[١] من كتب أرباب[٢] الظاهر وأهل المنقول منهم، لأنه مطابق موافق لأغراض أهل الباطن.

وإذا عرفت هذا فنرجع إلى الغرض ونقول: اعلم أن الكمال والنقصان بحسب كل شخص من الأشخاص ونوع من الأنواع كما ستعرفه في موضعه، وأما الكمال مطلقاً فهو منحصر في معرفة الله تعالى وعبادته على حسب طبقاتها ومراتبها، وأما النقصان مطلقاً فهو الذي يكون بازاء هذه المعرفة، أو الكمال على حسب مراتبها ومدارجها أيضاً، وحيث إن تحصيل هذه الكمالات والإخراج من هذه النقصانات لم يكن يتيسر إلا بتكميل قوتي العلم والعمل ومقتضاهما، فجميع سعيهم واجتهادهم وإرشادهم ودعوتهم كان في تكميل القوتين، وتحصيل هاتين القاعدتين، المشار إلى الأولى بالأصول، وإلى الثانية بالفروع، ولهذا ما تعدى أوامرهم ونواهيهم من حيث الإجمال عنهما، وإن استقريت عرفت[٣] تحقيق هذا من غير شك ولا شبهة، والذي قيل إن جميع أوامر الله ونواهيه منحصرة في كلمتين من قول نبيناﷺ اللتين هما التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله فهو مطابق لهذا القول، لأن من قام بحق هاتين الكلمتين وما اشتمل عليهما من الأوامر والنواهي، فقد قام بجميع أحكام الله الشرعية وأوامرها ونواهيها[٤]، فكذلك أيضاً في تلك الصورة، فإن كان من قام بالأصول والفروع المذكورة على ما ينبغي فقد قام بجميع أوامر الله ونواهيه، ووصل إلى كماله المعين له بحسب الاستعداد والقابلية. وغرضه تعالى من ذلك أن تحصل[٥] العلة الغائية من إيجاد الخلق

---

(١) منقول.

(٢) أصحاب.

(٣) عرف.

(٤) أوامره ونواهيه.

(٥) تحصيل.

وتكليفهم، ولا يقع فعلها عبثاً ومهملاً، لأن العبث والإهمال من الحكيم الكامل قبيح، وبل مستحيل كما أشرنا إليه غير مرة، وأشار إليه هو في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[الدخان/ ٣٨]، وحيث إن جميع الناس كانوا منحصرين في طبقات ثلاث، التي هي البداية والوسط والنهاية، فانحصرت مراتب إرشادهم وهدايتهم إجمالاً في هذه الثلاث، المعبرة عنها بالشريعة والطريقة والحقيقة، وحيث إنهم مع هذا الحصر ليسوا في مرتبة واحدة من حيث الذوات والماهيات، بل مختلفين فيها وفي الاستعدادات والقابليات المرتبة عليهما أيضاً، اقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية نظم هذا الترتيب اجمالاً وتفصيلاً، ليمكن إيصال كل واحد منهم إلى كماله المعين له، وإخراجهم من النقصان الذي هم فيه قوة وفعلاً، وبناءً على هذا اختلفت التكاليف بحسب كل طائفة، بل بحسب كل نوع وصنف وشخص، وإن كان من حيث الإجمال حكمهم واحد[١]، ومن هذا صار تكليف كل طائفة من الطوائف المذكورة خلاف طائفة أخرى من حيث الفروع والأحكام، لا من حيث الأصول والقواعد، أعني صار تكليف أهل الشريعة وكمالهم ومعرفتهم غير تكليف أهل الطريقة وكمالهم ومعرفتهم، وكذلك أهل الحقيقة فإن كمالهم ومعرفتهم غير كمال أهل الطريقة وكمالهم[٢]ومعرفتهم، وقد عرفت هذا عند تفصيل كل طائفة من الطوائف الثلاث على الأخرى[٣]، شرفاً ورتبة، مع اتحادهم في المقصد، ومن هذا كان تكليف الأنبياء والرسل والأولياء والأوصياء ومن تابعهم[٤] غير تكليف الخلائق بعد مشاركتهم في تكليفهم من غير العكس، لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[هود/ ١١٢] وقوله صلى الله

(١) واحداً.

(٢) ليس فيها كمالهم.

(٣) الآخر.

(٤) من في زمرتهم.

عليه وآله: «شيبتني سورة هود» ومن هذا يعرف قدرهم ومنزلتهم عند الله. وشرفهم ورفعتهم عند الخلق، وهاهنا سؤالان:

الأول أنهم لمَ خُصوا بهذه المراتب من بني النوع دون غيرهم، والثاني أنهم لما صاروا مكلفين بزيادة تكليف مع عظمة قدرهم وجلالة شأنهم.

أما جواب السؤال الأول، فهو أن الله تعالى حيث خلق الخلق وكلفهم بتكليف معين، وليس لهم علم بذلك التكليف، يجب عليه تعالى أن يعلمهم التكليف ليقومون به، ويخرجون عن عهدته، ويحصل به غرضه تعالى منهم، ولا يقع فعله عبثاً كما بيناه وقررناه قبل هذا، وهذا يسمى لطفاً عند أهل الظاهر، وعند أهل الباطن عناية، وإذا كان كذلك ولم يكن لكل واحد منهم استعداد أخذ هذا التكليف منه تعالى بنفسه، لعدم المناسبة وبعد الجنسية لقوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[الشورى/ ٥١]، وجب عليه تعالى عقلاً تعيين جماعة يكون بينه وبينهم مناسبة ما، حتى يأخذون منه ذلك التكليف وحياً وإلهاماً، ويوصله إلى المكلفين من عبيده بحكم المناسبة أيضاً لقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[الأنعام/ ٩] فهؤلاء الجماعة هم الأنبياء والرسل بالأصالة، والأولياء والأوصياء بالتبعية، لقوله فيهم على الإطلاق والتقييد، ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[النساء/ ١٦٣ ـ ١٦٥].

وإن قلت: هذا بيان علة الاحتياج إلى جماعة يكونون واسطة بين الله وبين الخلق في إيصال تكليفهم إليهم، لا بيان خصوصيتهم بذلك.

قلنا: علة خصوصيتهم بذلك المناسبة الذاتية بينه وبينهم، الآتية بيانها بعد هذه الكلمات من الاتصاف بصفاته، والتخلق بأخلاقه، لقوله: كنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله، ولقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[الأنفال/ ١٧].

وإن قلت: فتلك المناسبة الذاتية ممن حصلت لهم؟ أو من أين حصلت؟ وبأي وجه حصلت؟

قلنا: هاهنا قولان: الأول على طريق أهل الشرع وأهل الظاهر، وذلك راجع إلى عناية الله وإعطائه لهم هذه المراتب والمقامات، لقوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الجمعة/ ٤]، ولقوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[الأنبياء/ ٢٣].

والثاني على طريق أرباب الباطن وأهل الحقيقة، وذلك راجع إلى بحث الأعيان والماهيات، وإنها بجعل الجاعل أم لا، وقد بسطنا الكلام فيها في الأبحاث السابقة، وبينا أن استحقاق تلك المناصب لهم من اقتضاء ذواتهم وماهياتهم بمقتضى علمه تعالى بها، لأن العلم تابع للمعلوم، والمعلوم لا يوجد إلا على الوجه الذي كان مقرراً في نفس العالم، وهاهنا أبحاث وأسرار لا يعرفها إلا أهلها، وقد بينا أكثرها أولاً، وهذا المقام مما حذرت[1] الأنبياء والأوصياء والأولياء والعارفين من الكمل إفشائه وإظهاره، لأنه سر من أسرار القدر، كقول سلطان الأولياء والعارفين مولانا أمير المؤمنين عليه السلام لما سئل عن القضاء والقدر فقال: «ألا إن القدر سر من سر الله وحرز من حرز الله مرفوع في حجاب الله مطوي عن خلق الله مختوم بخاتم الله سابق في علم الله، وضع عن العباد علمه، ورفع فوقه شهادتهم، ومنع عقولهم بأنهم لا ينالونه لا بحقيقة الربانية، ولا بقدرة الصمدانية، ولا بعظمة

(١) حظرت.

النورانية ولا بقوة الوحدانية، لأنه بحرز آخر خالص لله عز وجل، عمقه ما بين السماء والأرض، عرضه ما بين المشرق والمغرب، اسود كالليل الدامس، كثير الحيات والحيتان، يعلو مرة ويسفل أخرى، في قعر شمس تضيء، ولا ينبغي أن يطلع عليها إلا الصمد، فمن تطلع إليها فقد ضاد الله في حكمه ونازعه في سلطانه، وكشف عن سره وستره، وباء بغضب من الله، ومأواه جهنم وبئس المَصير» وهذا كلام لا مزيد عليه في هذا الباب، وكيف لا يكون كذلك وهو صادر عن سيد الأولياء وخاتم الأوصياء، الجامع بجميع مراتبهم ومعطيهم إياها في عالم النور، وإن تأخر عنهم في عالم الظهور، ومع ذلك أي جماعة فرض فيهم هذه المناصب، يمكن عليهم هذا الاعتراض، ويلزم من هذا إما دور وإما ترجيح من غير مرجح، وإما الاخلال بالواجب منه تعالى، والكل مستحيل بالنسبة إلى حضرته، فيجب عليه تعيينهم وتخصيصهم بمقتضى علمه وحكمته لقوله أيضاً تأكيداً للأقوال المذكورة: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾[ص/ ٤٦ و٤٧].

وإذا عرفت هذا، لا بد من بيان المناسبة الواقعة بينهم وبين الحق بوجه، وبينهم وبين الخلق بوجه آخر، أما الأولى، أي المناسبة التي بينهم وبين الحق فتلك بوجهين، الأول من حيث العقل، والثاني من حيث النقل، أما العقل، فالعقل الصحيح يحكم بأن بين الذاتين أو الشخصين مثلاً لو لم يكن مناسبة لم يمكن تصور المحبة بينهما أصلاً، لأن أعظم شرط المحبة المناسبة الذاتية ثم العارضية، وتلك بأنواع كما هي مذكورة في الكتب الحكمية في باب المحبة، وكذلك في كتب المحققين من أرباب التوحيد، حتى ذهب بعض الحكماء إلى أن الله تعالى لا يجوز له أن يحب أحداً أو يحبه أحد، لأن المحبة تقتضي الجنسية، وليس للواجب مع الممكن جنسية بوجه من الوجوه، فلا يجوز له محبة أصلاً، وهذا الكلام ليس له أصل، لكن ذكرناه تنبيهاً لك على فساد عقائدهم وقواعدهم، والغرض أنه لا بد في المحبة من المناسبة ذاتية كانت أو

عرضية، كما ورد في اصطلاح أهل الله، وهو قولهم: المحبة الأصلية هي محبة الذات عينها لذاتها، لا باعتبار أمر زائد، لأنها أصل جميع أنواع المحبة، فكل ما بين اثنين فهي إما لمناسبة في ذاتهما، أو لاتحاد في وصف أو مرتبة أو حال أو فعل، فمناسبتهم مع الله حينئذ يكون من حيث تقديسهم وتنزيههم من دنس البشرية ورجس الحدوث والامكان، واتصافهم بالأوصاف الربانية والأخلاق الإلهية، والدليل على ذلك وهو أنهم إذا كانوا في عالم البشرية وحكم الطبيعة، لم يتمكنوا من هذا. كما قال النبي ﷺ: «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل» بل لا بد لهم من الانسلاخ عن عالم البشرية، والاتصاف بالصفات الإلهية، ليتمكنوا من هذا، لأنه ورد في الخبر الصحيح إنه إذا كان من عالم البشرية الصرفة لم يتمكن من أخذ الوحي بنفسه لعدم المناسبة، بل كان يحتاج إلى جبرائيل في صورة دحية الكلبي وغيره، لئلا يحصل له غيبة عن عالم الحس، وانزعاج في النفس، ويتمكن من الإبلاغ والرسالة والدعوة والإرشاد، وقد كان يحصل له غشيان في بعض الأوقات عند نزول الوحي، وكان يقول لعائشة: «كلميني يا حميراء كلميني يا حميراء» ليرجع من تلك العوالم إلى عالم الحس والشهادة، ويقوم بالأمر المأمور به من ابلاغ الرسالة، ويعضد ذلك حال موسى عليه السلام حيث قال: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[الأعراف/ ١٤٢]، لأن ذلك كان من اقتضاء البشرية والطبيعة الحيوانية، وإلا كلم الله موسى تكليماً في حال التجرد، والمناسبة الحقيقية شاهد عدل، لأنه في ذلك الوقت تكلم مع الله، وما حصل له هذه الحالة حتى قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾[طه/ ١٧، ١٨]، وكذلك نبينا ﷺ ليلة المعراج الذي[1] هو الانسلاخ عن عالم البشرية حيث قال

(١) التي.

تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[النجم/ ١٠]، فإن ذلك كان في حال التجرد والمناسبة الذاتية من غير واسطة ملك أو جبرائيل، وورد أنه أوحى إليه تعالى ثلاثين ألف خبر أو اكثر في ساعة واحدة أو أقل، وفي هذا المقام قال جبرائيل: لو دنوت أنملة لاحترقت، وهذا أيضاً يدل على شرف الإنسان وفضيلته على الملك وغيره، هذا من طرفهم، وأما من طرف الحق فيكفي فيه قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[الحجر/ ٢٩] لأن هذا القول دال على شيئين: الأول المناسبة بينه وبين عبيده، والثاني على شرف الإنسان وفضيلته على الملك، وقد ورد في اصطلاحهم ما يؤكد ذلك، وهو قولهم: المناسبة الذاتية بين الحق وعبده من وجهين. إما أن لا يؤثر أحكام تغير العبد وصفات كثرته في أحكام وجوب الحق ووحدته، بل يتأثر منها وتنصبغ ظلمة كثرته بنور وحدته، وإما بأن يتصف العبد بصفات الحق ويتحقق بأسمائه كلها، فإن اتفق الأمران، فذلك العبد هو الكامل المقصود بعينه، وإن اتفق الأمر الأول بدون الثاني، فهو المحبوب المقرب، وحصول الثاني بدون الأول[1] محال، وفي كلا الأمرين مراتب كثيرة، أما في الأمر الأول فيجب شدة غلبة نور الوحدة على الكثرة وضعفها، وقوة استيلاء أحكام الوجوب على أحكام الإيمان وضعفه، وأما في الأمر الثاني فيجب استيعاب تحققه بالاسماء كلها، وعدمه بالتحقق ببعضها دون البعض، وهاهنا أبحاث كثيرة بالنسبة إلى أرباب الظاهر من المعتزلة والأشاعرة، وأرباب التوحيد من المتقدمين والمتأخرين منهم، وليس هذا موضع تلك الأبحاث، فاطلب من مظانها.

وأما الوجه الثاني الذي هو من حيث النقل فلقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[المائدة/ ٥٤]، ولقوله في

---

(١) وحصول الأول بدون الثاني محال.

الحديث القدسي: «ألا طال شوق الأبرار إلى لقائي، وإني لأشد شوقاً إليهم» ولقوله فيه: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق» لأن هذه كلها تشهد بالمحبة من طرف الحق أولاً، ثم من طرف العبد آخراً، والمحبة كما تقرر لا يكون إلا بعد حصول المناسبة والمؤانسة، وقول نبينا ﷺ: «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل» إشارة إلى هذا، لأنه من عالم الوحدة الصرفة، ومقام رفع البشرية بالكلية، التي هي الاتصاف بالصفات الإلهية، والتخلق بالأخلاق الربانية، ومعلوم أن هذا لا يكون إلا بعد فناء أوصاف الرب، وفناء وجوده في وجوده، كفناء القطرة في البحر، وفناء الجليد في الماء، وإن لم تفهم هذه الإشارات في صور هذه المناسبات. نضرب لك مثلاً تفهم منه مطلوبك من غير شك، وذلك المثل وهو أن تعرف أن النار مثلاً نوراني مضيء شفاف، يحصل منه الطبخ والنضج والإضاءة وغير ذلك، والفحم أو الحطب ظلماني مظلم كدر، ما يحصل منه هذه الفوائد، وبل في طبعه البرودة والغلظة واليبوسة وغير ذلك لكن إذا حصل له مجاورة النار تدريجاً أو دفعياً واتصف به، صار ناراً وصدق عليه أنه نوراني مضيء شفاف، ويحصل منه كلّ ما يحصل من النار من الطبخ والنضج والإضاءة وغير ذلك من الأوصاف، ومن هذا قال النبي ﷺ: «من رآني فقد رأى الحق» وقال بعض أولياء أمته: سبحاني ما أعظم شأني، وقال غيره: أنا الحق، وقال: أنا من أهوى ومن أهوى أنا، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[العنكبوت/٤٣]، هذا بالنسبة إلى[1] المناسبة الحاصلة بين الأنبياء والحق تعالى جل ذكره، وأما بالنسبة إلى[2] المناسبة الحاصلة بينهم وبين الخلق فتلك أيضاً بوجهين، الأول العقل، والثاني النقل، أما العقل فالذي تقدم ذكره من حيث الإمكان والحدوث والبشرية والخلقية،

---

(١) «إلى» ساقطة في النسخة الثانية.

(٢) «إلى» ساقطة في النسخة الثانية.

فإن الناس وبل الموجودات كلها من هذه الحيثية سواء لأن الموجودات منحصرة في الواجب والممكن، والواجب واحد بالاتفاق، فلم يبق إلا الممكن، والممكنات من حيث ذواتهم وماهياتهم متساوية كما هو معلوم عند أهله. وأما النقل فلقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾[الكهف/ ١١٠]، ولقوله: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[الفرقان/ ٧]، فإن ذلك كله يدل على بشريته، ومناسبته للخلق في أوصافهم البشرية وأخلاقهم الطبيعية.

وإذا عرفت المناسبة التي بينهم وبين الخلق فاعلم: إن بينهم وبين الملك أيضاً مناسبة، وكذلك بين الله وبين الملك، وأما المناسبة التي بينهم وبين الملك فلقوله تعالى على العموم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[فصلت/ ٣٠]، وعلى الخصوص: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾[النجم/ ٥ و٦]، وكذلك ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[الشعراء/ ١٩٣]، وأما المناسبة التي بين الله وبين الملك فلتقديسهم وتنزيههم عن نقائص البشرية وحسائس[1] الجسمانية ودنس الطبيعة الحيوانية، ولقوله تعالى فيهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[البقرة/ ٣٠]، لأن هذا كلام صادر من اقتضاء ذواتهم ومقتضى مقاماتهم، لقولهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[الصافات/ ١٦٤]، وذلك المقام ليس إلا مقام التقديس والتنزيه والتسبيح، ويدل على ذلك كله تعليم الله لهم في قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[البقرة/ ٣٢]، لأن التعليم لا يتيسر إلا بالمناسبة بين المعلم والمتعلم، كما قال تعالى لآدم عليه السلام حيث شاهد فيه المناسبة بينه وبينهم، وهو قوله: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ

---

(١) في النسخة الثانية (خصائص).

﴿تَكْتُمُونَ﴾[البقرة/ ٣٣]، وإذا عرفت هذا فقس عليه حال الأولياء والأوصياء وأمثالهم، فإنهم يأخذون منه العلوم والحقائق من غير واسطة أحد، لقوله تعالى فيهم: ﴿ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[الكهف/ ٦٥]، ولقوله في الإنسان مطلقاً، ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾[العلق/ ٣ ـ٥] ولقوله فيهم: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾[الرحمن/ ١ ـ ٤]، وأمثال ذلك[1] كثيرة في هذا الباب، والله أعلم وأحكم، هذا بالنسبة إلى السؤال الأول.

وأما السؤال الثاني، فهو أنهم لم صاروا مكلفين بتكليف زيادة، مع عظمة قدرهم وجلالة شأنهم، فجواب ذلك من وجهين أيضاً، الأول: باستعدادهم الحاصل لهم في الأزل من غير سبب سابق وعمل لاحق، كما بيناه في المباحث السابقة بحكم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾[الأنبياء/ ١٠١] وقوله: ﴿هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾[ص/ ٣٩]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾[الجمعة/ ٤]، وأما الثاني فلزيادة مجاهدتهم وسعيهم ورياضاتهم في طاعة الله وتحصيل مرضاته، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء/ ١١٤]، أما نبينا صلى الله عليه وآله فرياضته ومجاهدته بعد الجهاد والحرب مع الكفار وحمل ايذائهم لقوله: «ما أُوذي نبي بمثل ما أُوذيت»، معلومة مشهورة، خصوصاً ما ورد في القرآن من قوله تعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾[طه/ ١، ٢] الآية، وما روي عن عائشة: أنه قام في الليل للصلاة والتهجد حتى تورمت قدماه، فقالت يا رسول الله: ما ورد فيك ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[الفتح/ ٢]، فقال لها: «أفلا أكون عبداً شكوراً»، وأما الأنبياء عليهم السلام

---

(١) فافهم ذلك.

فرياضتهم ومجاهدتهم معلومة من كتبهم وصحفهم مفصلاً، وعلى الإجمال من القرآن، وذلك لا يخفى على أحد من العلماء، ونعم الشاهد القرآن، ونعم الدليل البرهان، وكفى بالله شهيداً، وهو يقول الحق وهو يهدي السبيل، وهاهنا أبحاث كثيرة نختصر منها على هذا، ونشرع في القاعدة الثانية، وتعيين كمال كل موجود وسيره وسلوكه صورة ومعنى بحسب هذا المقام، وهي هذه وبالله التوفيق.

الأصل الثاني في تعيين كمال كل موجود من الموجودات الروحانية والجسمانية صورة ومعنى

اعلم أن السير والسلوك وطلب الكمال ليس مخصوصاً بالإنسان فقط، بل جميع الموجودات والمخلوقات، علوية كانت أو سفلية، فإنها في السير والسلوك وطلب الكمال، وله توجه إلى مطلوبه ومقصوده، ويشهد بذلك النقل والعقل، أما النقل فكقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[الأنعام/ ٣٨] وكقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ. . .﴾[الحج/ ١٨] الآية، وكقوله: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[النور/ ٤١]، وكقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء/ ٤٤] وهذه[١] الأقوال الأربعة دلالات قاطعة على أن الكل مكلفون[٢] ومأمورون بحسب قابليتهم واستعدادهم. لأن القول الأول يشمل الأرض وأهلها، والقول الثاني يشمل السماوات والأرض وما بينهما، والقول الثالث يشمل الكل على التعيين، والقول الرابع يشمل الكل على الاطلاق،

---

(١) وفي هذه.

(٢) في النسخة الثانية مكلفين ومأمورين.

فيعلم من هذا أن الكل متوجهون إلى الله تعالى، سائرون إليه، طالبون معرفته وعبادته، لأن السجدة والصلاة هاهنا بمعنى العبودية والمعرفة، لا بمعنى السجدة المتعارفة في الشرع، وكذلك التسبيح، لأن تسبيحهم وصلاتهم لو كان من قسم صلاة الإنسان وتسبيحهم، لعرفوها وفهموها، لكن لما لم يعرفوها بشهادة الله لهم في قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء/ ٤٤]، عرفنا أنها ليست من تلك الأقسام، فحينئذ صلاة كل موجود وسجدته وتسبيحه يكون مناسباً لحاله، وعند التحقيق تسبيح كل موجود غير الإنسان هو الذي هو عليه من الأوضاع والأفعال والأخلاق والأحوال، لقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾[الإسراء/ ٨٤]، وكذلك صلاته وسجدته، والمراد من الكل واحد، وهو معرفة الله أو عبادته لقوله فيهما، أما المعرفة فلقوله: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق» وأما العبادة فلقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات/ ٥٦]، ومثال ذلك روح الإنسان وبدنه وأعضاؤه وقواه، فإن الكل ساجدون له، منقادون لأمره، مطيعون لأحكامه، وهذه هو الصلاة الحقيقية والسجدة المعنوية والتسبيح والذكر المعنويان وغير ذلك، والمراد من هذا المثال أن نسبة جميع العالم بالنسبة إلى روح الإنسان هذا هو بعينه، لأن العالم بأسره بدن الإنسان الكبير. وجميع ما في ضمنه وما اشتمل عليه بمثابة أعضائه وجوارحه وقواه، فتسبيح الكل وصلاتهم وسجدتهم بالنسبة إليه يكون مطاوعتهم فيما ينهاهم ويأمرهم، وتسبيح هذين المظهرين وسجدتهما هو تسبيح الحق وسجدته في الحقيقة، لأن الروح الجزئي الإنساني كما هو خليفة الله في البدن، فالروح الكلي الإنساني خليفة الله في العالم، وليس مظهره الحقيقي أيضاً إلا الإنسان الذي هو خليفة الله، فيكون السجدة والتسبيح لهما حقيقة، السجدة والتسبيح لله، لقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء/ ٨٠] ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[العنكبوت/ ٤٣]، ومن هذا ورد في

الشكر الحقيقي من بعض الأئمةعليهم السلام: أنه صرف كل عضو فيما خلق لأجله، وقيل: إن كل موجود من الموجودات العلوية والسفلية بالنسبة إلى الإنسان الكبير، هو في الذي خلق لأجله، إلا الإنسان. يعني ليس هناك موجود يخالفه في أمره ونهيه وطاعته وعبادته إلا الإنسان، فإنه في حالة المخالفة لله تعالى، ليس في أمره وطاعته كأنفسنا في بعض الأوقات بالنسبة إلى روحنا وعقلنا، وإن كانت تلك المخالفة أيضاً عين الموافقة في الحقيقة، لأن كل مخالفة فرض في العالم من حيث الأوامر الشرعية ونواهيها، فهو موافق لعلم الله به أزل الأزل وأبد الآباد، لوجوب تطابق العلم المعلوم، أي معلوم كان، كما قال بعض العارفين في هذا المعنى: من خالف الله في أمره لم يخالفه، ومن خالفه في مراده منه، وافقه في مراده به، وإلى هذا أشار أمير المؤمنينعليه السلام في بعض خطبه بالنسبة إلى آدمعليه السلام أو ذريته في قوله: «وأسكنه جنته وأرغد فيها أكله وأوعز إليه فيما نهاه عنه، وأعلمه أن في الإقدام عليه التعرض لمعصيته والمخاطرة بمنزلته، فأقدم على ما نهاه عنه موافاة لسابق علمه، فأهبطه بعد التوبة ليعمر أرضه بنسله» ويدل على هذا أيضاً قوله في موضع آخر: «اعلموا علماً يقيناً أن الله لم يجعل للعبد وإن عظمت حيلته واشتدت طلبته وقويت مكيدته أكثر مما سمى له في الذكر الحكيم، ولم يحل بين العبد في ضعفه وقلة حيلته وبين أن يبلغ ما سمى في الذكر الحكيم، والعارف لهذا العامل به، أعظم الناس راحة في منفعة، والتارك له، الشاك فيه، أعظم الناس شغلاً في مضرة، ورب منعم عليه مستدرج بالنعمى، ورب مبتلى مصنوع له بالبلوى، فزد أيها المستنفع في شكرك، وقصر من عجلتك، وقف عند منتهى رزقك» وكذلك قول النبيصلى الله عليه وآله: «جفّ القلم بما هو كائن»، وقوله: «كل ميسر لما خلق له»، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾[القمر/ ٥٢]، وقوله: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام/ ٥٩]، وليس مرادنا بهذا إثبات مسألة الجبر، ولا إثبات قول من قال: إن كل

ما علم الله تعالى وقوعه، يجب وقوعه، وكلّ ما علم الله تعالى بعدم وقوعه يستحيل وقوعه، بل مرادنا أنه لا يقع شيء في الوجود خلاف علم الله تعالى، موافقاً كان ذلك الشيء أو مخالفاً، وهذا شمة من بحر سر القدر، المنهي عن كشف أسراره كما سبق أولاً من قول أمير المؤمنين عليه السلام، فإنه أجل وأنفع ما ورد في هذا المعنى، فعليك بالتأمل لمعانيه، والملاحظة للأسرار الكامنة فيه.

إذا عرفت هذا فنقول: اعلم حيث ثبت أن كل موجود له صلاة وتسبيح وسجدة، ثبت أن كل موجود له حياة ونطق ومعرفة، وهذا هو الكمال المقصود من الكل، أما الحياة فتلك حقيقية ومجازية، أما الحقيقية، فقد تقرر أن الحياة الحقيقية هي العلم والمعرفة، أي العلم بالله والمعرفة به، وهذه حاصلة لكل موجود بحكم قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[لقمان/ ٢٥]، لأن هذا إقرار بألوهيته ووحدانيته، وهذا المقدار يكفي في المعرفة الجبلية دون الكسبية، وكذلك قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[الإسراء/ ٤٤] لأن التسبيح للشيء يكون مسبوقاً عن معرفة، لأن التسبيح بدون المعرفة مستحيل، جبلية كانت أو كسبية، وأما المجازية، فقد تقرر أن كل موجود له حياة بحسبه، ويشهد به قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[الأنبياء/ ٣٠]، فهذا الماء إن قلنا من المركبات. فذلك ظاهر، لأن جزء كل مركب ماء عنصري صوري، الذي تركب به بدن الإنسان لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾[الفرقان/ ٥٤]، وإن قلنا من البسائط، كذلك يرجع إلى الهيولى الكلية التي كان العرش عليه قبل إيجاد العالم وما فيه، لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود/ ٧]. وبالجملة للكل حياة مناسبة لحاله، فإن شئت سمها علماً ومعرفة، وإن شئت سمها ماء عنصرياً. وإن شئت هيولى كلياً لا مشاحة في الألفاظ. وأما النطق فذلك أيضاً مجازي وحقيقي، أما المجازي فلقوله تعالى: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ

شَيْءٍ﴾[فصلت/ ٢١]، ولقول النبيﷺ: يشهد للمؤذن كل رطب ويابس، ويستغفر لطالب العلم كل شيء حتى الحيتان في البحر والطير في السماء، فإن هذين القولين دالان على أن لهم نطق[1]، وأظهر وأبين من ذلك تسبيح الحصا في كفّ نبيناﷺ، وهو الجماد وأنين الخشبة الذي هو النبات، وتكلم الذراع المشوي لأن المولدات منحصرة في هذه الثلاث، وأما العنصريات والطبيعيات فقد تقدم تقديره. وأما الحقيقي، فالنطق الحقيقي هو التعقل مطلقاً، وتعقل الشيء ذاته وذات موجده هو النطق الحقيقي، وقد سبق بيان ذلك بحكم الآية والخبر، والدليل على أنهم عرفوه وسبحوه لأنهم[2] ولو لم يعرفوه لم يسبحوه، لأن الشيء المجهول الغير المعلوم[3] لا يسبحه أحد أصلاً.

وأما المعرفة، فتلك أيضاً حقيقية ومجازية، أعني جبلية وكسبية، أما الجبلية الحقيقية فقد شهدت به الآية في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[لقمان/ ٢٥]، وشهد به قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾[الأعراف/ ١٧٢]، وإن قلت: هذا ضمير راجع إلى ذرية آدم لا إلى الموجودات مطلقاً، قلنا: هذا صحيح، إنه ضمير إلى ذرية آدم، لكن آدم يشمل الإنسان الكبير والصغير، وهذا ضمير إلى آدم الكبير، الذي هو العالم وما فيه من الموجودات، لأن الكل ذرية له، كما أشار إليه الحق في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[النساء/ ١]، والمراد بالرجال والنساء، الذكورة والأنوثة الحاصلة في كل موجود من الموجودات العلوية والسفلية، المشار إليه في قوله: ﴿جَعَلَ

(١) نطقاً.

(٢) هكذا وردت العبارة والصحيح: والدليل على أنهم عرفوه فسبحوه أنهم لو لم يعرفوه لم يسبحوه(العاملي).

(٣) الأصح: غير المعلوم.

﴿فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾[الرعد/ ٣]، أي الإناث والذكور، والذي قيل: وفي كل شيء له آية، تدل على أنه واحد، أيضاً دليل على هذا، وأما الكسبية المجازية، فتلك مخصوصة بالإنسان والملك والجن، مع أن لهم معارف جبلية سابقة على الكسبية، وقد تقدم ذكرها بوجوه كثيرة، والعود إلى ما سبق غير مستحسن، فارجع إلى هذا من حيث النقل الممزوج بالعقل، وأما من حيث العقل الممزوج بالكشف والذوق فاعلم: أنه قد تقرر عند أهل الله باتفاق أكثر العقلاء أن الوجود واحد، وذلك دائر بين المحب والمحبوب، والعارف والمعروف. والطالب والمطلوب، بشهادة قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾[المائدة/ ٥٤]، وقوله: فأحببت أن أعرف، فالمحبوب الحقيقي عند التحقيق يكون هو الله فقط، والمحب له ما سواه من المخلوقات والموجودات، جماداً كان أو نباتاً أو حيواناً أو إنساناً أو جناً أو ملكاً كما قيل:

وكل مليح حسنه من جماله ... معار له بل حسن كل مليحة

وكما قيل:

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول

وبناء على هذا يصدق على الكل أنهم محبون له، متوجهون إليه، سائرون إلى حضرته، وإن حقق عرف أن المحب والمحبوب والطالب والمطلوب والعارف والمعروف[1]، لأن في هذه الاعتبارات يلزم الغيرية والكثرة ومشاهدة الغير، وهذا خلاف التوحيد الحقيقي، والمقصد ليس إلا التوحيد، فيجب حينئذ مشاهدة وجود واحد باعتبارين، بوجه باعتبار أن لا تعتبر معه أحد غيره أصلاً، وهو اعتبار الحضرة الأحدية ومقام الإطلاق والوحدة، والثاني باعتبار أن تعتبره مع أسمائه وصفاته واقعاً له والمظاهر التي

---

(١) كذا في النسختين يمكن أن يكون خبره محذوف أي واحداً، ويمكن من سهو القلم أن يكون هكذا عرف أنه المحب الخ.

بازائها، المعبر عنها بالأكوان، وبالنسبة إلى الأول قيل:

لقد كنت دهراً قبل أن يكشف الغطاء   أخالك أني ذاكر لك شاكر
فلما أضاء الليل أصبحت عارفاً   بأنك مذكور وذكر وذاكر

وقيل: لا يحب الله إلا الله، ولا يعرف الله إلا الله، ولا يذكر الله إلا الله، وبالنسبة إلى الثاني قيل: ليس في الوجود سوى الله تعالى وأسماؤه وصفاته وافعاله، فالكل[1] هو وبه ومنه وإليه، وقال هو بنفسه: هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم وقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾[فصلت/ ٥٣ و٥٤].

وفيه قيل:

جمالك في كل الحقائق سافر   وليس له إلا جلالك ساتر
تجليت للأكوان خلف ستورها   فنمت بما ضمت عليه الستائر

وقيل:

تجلى لي المحبوب من كل وجهة   فشاهدته في كل معنى وصورة

والغرض واحد، وهو إثبات أن كل شيء له سير وسلوك صورة ومعنى، وقد ثبت ذلك والحمد لله، وحيث إنه كان على سبيل الإجمال، فالواجب أن نشرع فيه على سبيل التفصيل بعون الله وحسن توفيقه، وهو هذا:

اعلم أن لكل موجود سيران، صوري ومعنوي، أما السير الصوري للجماد فهو أنه يصل إلى مرتبة النبات كالمرجان، فإنه ينبت[2] ويحصل له اغصان وأوراق وشعب كالنبات والشجر، وأما السير المعنوي له، فهو أن

---

(١) بل كل.

(٢) نبت.

يصير جزء بدون الإنسان على أي وجه كان، أعني في صورة الأغذية والأشربة والمعاجين وغير ذلك، وأما السير الصوري للنبات، فهو أن يصل إلى مرتبة الحيوان كالنخل، فإن له تعشق وتحبب كالحيوان إلى نخل آخر، بقوة المناسبة التي بينه وبينه، وغير ذلك من المناسبة مع الحيوان، لأنه إذا قطع رأسه يموت، وإذا غرق في الماء يموت، وأمثال ذلك، وكل[1] ذلك من خصال الحيوان، وأما السير المعنوي له، فهو أن يصير جزء بدن الإنسان على أي وجه يكون، بالأغذية كانت أو بغيرها، وأما السير الصوري للحيوان، فهو أن يصل إلى مرتبة الإنسان، ويحصل له النطق والتكلم، كالقرد والببغاء وغير ذلك من الحيوانات، وأما السير المعنوي فهو أن يصير جزء بدن الإنسان على أي وجه كان والسر في ذلك كله أن كمال جميع الموجودات دون الإنسان هو وصوله إلى الإنسان فقط، وكمال الإنسان في وصوله إلى الحق فقط، فحينئذ توجه جميع العالمين يكون إلى الإنسان صورة ومعنى، كبيراً كان الإنسان أو صغيراً، لحصول كمالهم المعين لهم في الأزل، وتوجه الإنسان إلى الحق تعالى مطلقاً لحصول كمالهم المعين لهم في الأزل، فافهم جيداً، وإليه الإشارة: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الجاثية/ ١٣]، وأبلغ من ذلك قوله لنبيناﷺ: لولاك لما خلقت الأفلاك، أي لولاك لما خلقت العالم وما فيه. وأما السير الصوري للإنسان، فهو أن يصير ملكاً ويحصل له الطهارة والتجرد من ملابس الصورة البشرية وخسائس الطبيعة الحسية، وأما السير المعنوي له، فهو أن يحصل له مرتبة النبوة والرسالة والولاية، ويصل منها إلى مرتبة الوحدة الصرفة، التي هي عبارة عن رفع الاثنينية الاعتبارية لقول النبيﷺ: «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل» وقوله أيضاً: «من رآني فقد رأى الحق» لأن كل ذلك دليل عليه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا

---

(١) فكل.

رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[الأنفال/ ١٧]، يكفي فيه، لأنه نفي في عين الإثبات، وإثبات في عين النفي، والمراد إثبات مقام الوحدة له، ورفع الاثنينية والكثرة، الموجب للاتحاد الكلي، المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[النجم/ ٨ و٩]، وأما السير الصوري للجن، فهو أن يحصل له مرتبة الملكية السماوية من التجرد والتقديس، فإن عند أكثر الناس، الجن من الملائكة الأرضية، وسماهم الجن لخفائهم عن عيون الإنس، كما قال تعالى في حق إبليس: و﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[الكهف/ ٥٠]، وإن كان عند البعض هم أشكال نارية، موضعهم كرة الأثير، ولهم دخول في كرة الماء والهواء والتراب، وكيفية ذلك موقوف على بسط عظيم، ليس هذا موضعه، وأما السير المعنوي له، فهو أن يحصل له المراتب الانسية والمعارف البشرية، ويؤمن بالشرع والقرآن، كما نطق به الكتاب الكريم في قوله: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾[الجن/ ١ و٢]، وأما السير الصوري للملك، فهو أن يحصل له مقام القرب والتقديس والتنزيه، ويصل إلى مرتبة الكروبين، الذين أخرجهم الله تعالى عنهم بالاستثناء الفاصل بين النوع والأشخاص، كإخراج جبرائيل وميكائيل من الملائكة، أو الإنسان من الحيوان المطلق، وأما السير المعنوي له، فهو أن يحصل له الاطلاع على بعض أسرار الإنسان، الحاصلة له من الله تعالى، المخصوصة بالإنسان دون الملك[1]، لقول جبرائيل عليه السلام: لو دنوت أنملة لاحترقت، ويشهد به تعليم آدم الملائكة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم﴾ [البقرة/ ٣٣]، ولهذا ذهب العارف أن الإنسان أعظم من الملك واشرف منه، لأن السير الذي هو مخصوص به ليس للملك حظ ولا سمع رائحته أبداً، هذا آخر بحث

---

(١) في النسخة الثانية (دون الملك) ساقطة.

الكمالات المخصوصة بكل موجود من الموجودات العلوية والسفلية، وإذا عرفت هذا وعرفت أن كمال الإنسان ومرتبته أعظم وأشرف من الكل، فاجتهد في تحصيل كمالك وتكميل مرتبتك، وكن بمعزل عن غيرك ولو كان ملكاً، فإن الاشتغال بالغير يمنعك عن الوصول إلى سعادتك العظمى ومرتبتك العليا، ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] [هود/ ١٢٠]، والله أعلم وأحكم، وهو يقول الحق ويهدي السبيل.

وإذا فرغنا من الأصلين المذكورين، فالشروع في القاعدتين اللتين أوعدنا[2] بهما أولاً واجب، وهي هذه:

(١) وردت في المطبوعة وذكرى للمتقين وهي محرفة والصحيح ما أثبتناه في المتن (العاملي).
(٢) وعدنا.

القاعدة الأولى

في بيان الأصول الخمسة من التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد

في المراتب الثلاث التي هي الشريعة والطريقة والحقيقة، وعلة حصرها فيها

واعلم أن غرض الأنبياء والأولياء عليهم السلام كما سبق ذكره حيث كان، إيصال الخلق إلى كمالهم المعين لهم بحسب استعدادهم وقابليتهم، وإخراجهم من ظلمات نقصهم وجهلهم بقدر الجهد والطاقة، وكانوا عالمين بأن هذا لا يتيسر إلا بتكميل قوتي العلم والعمل، اللذين هما عبارتان عن الأصول والفروع، فوضعوا الأصول لتطهير بواطنهم وتكميل عقائدهم، والفروع لتطهير ظواهرهم وتكميل أعمالهم وأفعالهم، وأخبروا عنهم بنعمتي الظاهر والباطن بأمر الله وإذنه، المشار إليه في كتابه بقوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان/ ٢٠]، وقالوا[١] بعد ذلك كله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[إبراهيم/ ٣٤]، ليعرف العبد أن نعم الله في حقه غير قابلة للحصر في الدنيا والآخرة.

وبيان ذلك وهو: أن طهارة الباطن من نجاسة الشرك الجلي والخفي، وتصقيل مرآة النفس من رين الكفر والضلال[٢] لا يمكن إلا بالاعتقاد

---

(١) كذا في النسختين.

(٢) الضلالة.

الصحيح بالتوحيد والعدل والإمامة والمعاد، المشار إليها بقول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمسة» وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء/ ٤٨] إشارة إلى الشركين، اللذين هما بازاء التوحيدين المذكورين[1] الآتي ذكرهما مرة أُخرى من الألوهي والوجودي، المبني عليهما الأصول الخمسة، وكذلك طهارة الظاهر من نجاسة الأحداث العيني والحكمي[2]، وتطهير البدن ونظافته من القاذورات والنجاسات، فإنه لا يمكن أيضاً إلا بالفروع الخمسة من الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد، المشار إليه بقول النبي ﷺ: «بني الإسلام على النظافة» وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة/ ٢٢٢]، وإليهما معاً أشار أمير المؤمنين عليه السلام وقال: «فرض الله الإيمان تطهيراً من الشرك، والصلاة تنزيهاً عن الكبر، والزكاة تسبيباً للرزق، والصيام ابتلاء لإخلاص الخلق، والحج تقربة للدين، والجهاد عزاً للإسلام، والأمر بالمعروف مصلحة للعوام، والنهي عن المنكر ردعاً للسفهاء، وصلة الأرحام منماة للعدد، والقصاص حقناً للدماء، وإقامة الحدود إعظاماً للمحارم، وترك شرب الخمر تحصيناً للعقل، ومجانبة السرقة إيجاباً للعفة، وترك الزنى حفظاً وتحصيناً للنسب، وترك اللواط تكثيراً للنسل، والشهادات استظهاراً على المجاحدات، وترك الكذب تشريفاً للصدق، والسلام أماناً من المخاوف، والإمامة نظاماً للأمة، والطاعة تعظيماً للإمامة».

فكل من أراد تطهير الظاهر والباطن على الوجه الذي تقرر، فعليه بالقيام بالأصول والفروع المذكورة، وما اشتمل عليها في المراتب الثلاث من الشريعة والطريقة والحقيقة، لأن أُصول كل واحدة من أهل هذه المراتب

(١) المذكورين غير موجودة في النسخة الثانية.

(٢) العينية والحكمية.

وفروعها، خلاف أُصول ذاك الآخر وفروعه كما ذكرناه وسنذكره إن شاء الله تعالى، وبناء على هذا لا بد أولاً من تعيين الأصول والفروع على مذهب الحق، ثم تحقيق القيام بهما، ثم تعيين أركانهما، ثم بيان انحصارهما في العدد المذكور.

أما الأصول وتحقيقها على مذهب الحق

فاعلم أن الناس قد اختلفوا فيها اختلافاً شديداً، لأن عند البعض منهم أُصول الإيمان شيئان: التصديق بالله وبكون النبي صادقاً، والتصديق بالأحكام التي يعلم يقيناً أنه عليه السلام حكم بها، دون ما فيه اختلاف أو اشتباه، وهؤلاء البعض هم الأشاعرة، وعند البعض الآخر ثلاث، التصديق بالقلب، والإقرار باللسان والعمل بالجوارح، وإلى هذا ذهب بعض الشيعة أيضاً، وقال: أُصول الإيمان ثلاثة، التصديق بوحدانية الله في ذاته، والعدل في أفعاله، والتصديق بنبوة الأنبياء، وإمامة الأئمة المعصومين عليهم السلام، وعند البعض الآخر من الشيعة أُصول الإيمان أربعة: التوحيد والعدل والنبوة والإمامة. وعند المعتزلة خمسة: التوحيد والعدل والإقرار بالنبوة وبالوعد والوعيد والقيام بأمر المعروف ونهي المنكر، وبعض متأخري الشيعة ذهبوا إلى هذا، لكن بعبارة أخرى، وهي أن أُصول الإيمان خمسة: التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد، وهذا هو الحق في نفس الأمر والمختار عندي وعند أكثر المحققين من أهل الله، أما حقيقته فلانحصاره في العدد المذكور لا غير، لأن صاحب الاعتقاد الصحيح والإيمان الكامل لا بد له من التوحيد ليخلص من الشرك، ومع هذا التوحيد لا بد له من أن يعتقد أن الله تعالى عادل حكيم، لا يفعل القبيح، ولا يخل بالواجب حتى تخلص من الجبر، وإضافة أفعال الخير والشر إلى الله، لأن ذلك يؤدي إلى ظلمه تعالى على العباد، جلّ جنابه عن أمثال ذلك، وإليه أشار أيضاً: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت/ ٤٦]، وحيث

إن هذين الاعتقادين هما موقوفان على وجود النبي وإظهار معجزته لبيان سقمها وصحتها، فلا بدّ له أيضاً من الاعتقاد في النبي ونبوته، والذي قال بعض الناس: إن الأُصول ليست موقوفة على النقل، بل يكفي في حصولها العقل ليس بحسن، لأن العقل لو كان كاف في معرفة الدين والأصول، لكان كل عاقل مصيباً[1] في اعتقاده، وليس كذلك، ومع ذلك لم يلزمنا مذمة البراهمة والفلاسفة، الذين يقولون بالعقل المجرد، ولا يلتفتون إلى النقل، نعم، يعرف المكلف الأصول بنظره العقلي بعد أن تحقق حقيتها وباطليتها من النبي المعصوم أو الإمام، ولا يلزم من هذا الميل إلى مذهب الإسماعيلية ولا إلى غيره، بل هو الحق في نفسه، وهذا هو مذهب الأئمة المعصومين والعلماء المتقدمين دون متأخريهم، وحيث إن النبيﷺ لا يبقى دينه وشرعه إلا بوجود إمام كامل معصوم، الذي يحفظ شرعه ويقوم بأداء أركانه قوة وقهراً وإرشاداً وتعليماً، المعبر عنه بأولي الأمر، لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[النساء/ ٥٩]، فلا بد له أيضاً من الاعتقاد في الإمام، لأن النبي كما هو لطف في حق المكلف، كذلك الإمام فإنه لطف في حقه أيضاً، فكما أن ارسال الرسول والنبي يجب على الله تعالى، فكذلك تَعيين الإمام وتمكينه يجب عليه، لئلا يلزم منه الإخلال بالواجب، وهذان الأصلان يرجعان إلى الله وإلى تعيينه، فيكون حصولهما نقلياً لا عقلياً كما سبق، وهاهنا أبحاث كثيرة ليس هذا موضعها، وهي مخصوصة بعلم الكلام من أُصول الدين، وحيث إن جميع ذلك ليس إلا لدعوة الخلق إلى المعاد وإرشادهم إلى القيامة، والإخبار بالوعد والوعيد، فلا بد له أيضاً من الاعتقاد في المعاد، وما يتعلق به من الثواب والعقاب، المعبر عنهما بالنقصان والكمال، لئلا يهمل في شيء من الأصول المذكورة والفروع المعلومة الآتية

---

(١) في النسخة الثانية مصيب.

ذكرها، فتكون الأصول حينئذ منحصرة في هذه الخمسة، ولا يحتاج المكلف إلى أكثر من ذلك، ولا يجوز له الوقوف على أقل منه، والله أعلم وأحكم، وهو يقول الحق وهو يهدي السبيل، وإذا تقرر هذا فلنشرع في بيان كل واحدة من هذه الأُصول في المراتب الثلاث، التي هي الشريعة والطريقة والحقيقة.

أما التوحيد وأقسامه

فذلك يحتاج أولاً إلى مقدمة، ثم تقسيمه في المراتب المذكورة، أما المقدمة فهي أن تعرف:

إن التوحيد مع كثرة أقسامه وأنواعه مشتمل على قسمين، الأول توحيد الأنبياء، والثاني توحيد الأولياء، أما توحيد الأنبياء فهو التوحيد الألوهي الظاهر العام، الذي هو دعوة الخلق إلى عبادة إله مطلق، من عبادة آلهة مقيدة، أو إلى إثبات إله واحد، ونفي آلهة كثيرة، لقوله تعالى في الأول: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[آل عمران/ ٦٤]، ولقوله أيضاً فيه: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾[ص/ ٥]، ولقوله تعالى في الثاني: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[الكهف/ ١١٠] ولقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[محمد/ ١٩]، وكلمة لا إله إلا الله هذا معناه، أعني نفي آلهة كثيرة، وإثبات إله واحد، ويشهد به قول نبينا ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»، وبهذا كانت دعوة الأنبياء والرسل من آدم إلى محمد ﷺ.

وأما توحيد الأولياء فهو التوحيد الوجودي الباطن الخاص، وهو دعوة الخلق إلى مشاهدة وجود مطلق، من مشاهدة وجودات مقيدة، أو إلى إثبات وجود واحد حق واجب بالذات، ونفي وجودات كثيرة ممكنة بالذات معدومة في نفس الأمر، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ﴾[القصص/ ٨٨]، وقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[الرحمن/ ٢٦ و٢٧]، ولقول العارفين بأجمعهم فيه: ليس في الوجود سوى الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، فالكل هو وبه ومنه وإليه، وبهذا كان دعوة الأولياء والأئمة من شيث إلى المهدي عليه السلام، وليس غير هذين التوحيدين هناك توحيد آخر، والدليل على حصره في القسمين وهو أن الشرك الذي هو بازاء التوحيد منحصر في الشركين، اللذين هما الجلي والخفي، لأن الشرك إما أن يكون في الظاهر أو الباطن، فإن كان في الظاهر كعبادة الأصنام والأوثان والحجر والمدر والشمس والقمر وأمثال ذلك فهو شرك جلي، لجلائه وظهوره بين أهل العلم، المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾[الفرقان/ ٣]، وهو بازاء التوحيد الألوهي، وإن كان في الباطن كمشاهدة وجود الغير وإثباته في الخارج، من مشاهدة الموجودات الممكنة، كالعقل والنفس والأفلاك والأجرام والعناصر والمواليد وغير ذلك، وهو الموسوم بالشرك الخفي، لخفائه بين الناس، المشار إليه في قوله تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف/ ٣٩ و٤٠]، وهو بازاء التوحيد الوجودي، وليس غير هذين الشركين هناك شرك آخر، فتحقق حينئذ أن التوحيد منحصر في التوحيدين المذكورين، وكذلك الشركين.

وإذا عرفت هذا فاعلم: أن ظهور جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام لم يكن إلا لدعوة الخلق إلى التوحيد الألوهي، والخلاص من الشرك الجلي الذي بازائه، وظهور جميع الأولياء والأئمة عليهم السلام لم يكن إلا لدعوة الخلق إلى التوحيد الوجودي، والخلاص من الشرك الخفي الذي هو بازائه، وكل من

توجه إلى الإله المطلق من الإله المقيد، وعدل عن عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق، ونطق بكلمة التوحيد الألوهي التي هي لا إله إلا الله خلص من الشرك الجلي، وصار في الشريعة مسلماً مؤمناً موحداً بحسب الظاهر وصار ظاهره وباطنه طاهراً من نجاسة الشرك الجلي، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[التوبة/ ٢٨]، وإن لم يكن كذلك يكون مشركاً كافراً نجساً في الظاهر والباطن، وكل من توجه إلى الوجود المطلق من الوجود المقيد، وعدل عن مشاهدة الممكن إلى مشاهدة الواجب، ونطق بكلمة التوحيد الوجودي، التي هي ليس في الوجود سوى الله، خلص من الشرك الخفي، وصار في الحقيقة موحداً عارفاً محققاً بحسب الباطن، وصار باطنه وظاهره طاهراً من نجاسة الشرك الخفي، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف/ ١٠٦]، وإن لم يكن كذلك يكون نجساً في الباطن دون الظاهر عند البعض، لأن عند بعض المحققين هو أيضاً نجس في الظاهر والباطن، ويشهد بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء/ ٤٨]، لأن حكمه حكم العموم ولا مخصص هناك، فكل من يكون مشركاً، جلياً كان شركه أو خفياً، فهو لا يكون مغفوراً له، وهذا في غاية الصعوبة، لأنه ما يخلص منهما إلا القليل النادر لقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[سبأ/ ١٣]، ولقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[ص/ ٢٤]، ومن هذا قال العارف: إن الخلاص من الشرك الجلي أسهل من الخلاص من الشرك الخفي، كما أن الوصول إلى التوحيد الألوهي أسهل من الوصول إلى التوحيد الوجودي، لأن صاحب الشرك الخفي يعد نفسه من المؤمنين الموحدين بمجرد توحيده الألوهي، وهو غافل عن الشرك الخفي الذي هو محجوب به، ومن هذا قال النبي ﷺ: «دبيب الشرك في أمتي أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء» لأنه كان عارفاً بأن اكثر أمته لا يخلصون منه، ومعلوم أن هذا الشرك الخفي مخصوص

بالمؤمنين والمسلمين، دون المنافقين والكفار، لأن الله تعالى ضمه إلى الإيمان في قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف/ ١٠٦]، والنبي ﷺ ضمّه إلى المسلمين من أمته، واجتماع الشرك الجلي والإيمان مستحيل، فلم يبق إلا أن يكون المراد به الشرك الخفي، وقد عبر القرآن عن الشرك الخفي بالهوى في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[الجاثية/ ٢٣]، لأن بالهوى يصير الشخص كافراً ومشركاً ومنافقاً، كما قيل: لولا الهوى ما عبدت الأصنام أصلاً، وقيل: ما عبد إلهاً[1] دون الله أعظم من الهوى، لأن من هوائه مال الكافر إلى دين آبائه وأجداده، وصار من المشركين، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[الزخرف/ ٢٢]، وإذا عرفت هذه القواعد في هذه المقدمة على سبيل الاختصار، فلنشرع إلى تخصيص التوحيد بكل طائفة من الطوائف الثلاث، وهو هذا:

أما توحيد أهل الشريعة

فهو التوحيد الأُلوهي الذي هو عبارة عن نفي آلهة كثيرة، وإثبات إله واحد[2]، ونفي آلهة مقيدة، وإثبات إله مطلق، لا مشاحة في الاصطلاح، وهذا التوحيد ينقسم إلى قسمين، قسم يتعلق بأرباب التقليد منهم، كالعوام والجهلة، وقسم يتعلق بأرباب النظر والاستدلال، كالخواص والعلماء، أما الطائفة الأولى فطريقتهم وهي أنهم يعتقدون في الباطن أن الإله واحد لا شريك له في الإلٰهية، ولا نظر[3] له في الوجود، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى/ ١١] ويتمسكون في هذا بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ

---

(١) إله.

(٢) في النسخة الثانية واحدا.

(٣) كذا في النسختين.

ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء/ ٢٢]، وبقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص/ ١ ـ ٤]، ويعتقدون أنه حي عالم قادر سميع بصير مريد متكلم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وهو بكل شيء عليم، ويعتقدون أن غيره من الآلهة أصنام وأوثان، لا يملكون نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة، وعابديها كفار مشركون ملعونين أينما ثقفوا يجب البراءة منهم في الدنيا والآخرة، كما أمر الله تعالى به في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[التوبة/ ٢٣]، ولقوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ﴾[المجادلة/ ٢٢] الآية، وهؤلاء القوم بهذا الاعتقاد[١] يكونون في حماية الإسلام وحفظه في دار الدنيا، آمنين على أنفسهم وأموالهم واعراضهم، وفي الآخرة يكون رجوعهم إلى فضل الله ورحمته، فإن الله ذو فضل عظيم.

وقد أشار إلى هذا المعنى الشيخ الكامل أبو إسماعيل الهروي قدس الله سره في كتابه الموسوم بمنازل السائرين، وهو قوله: والتوحيد على ثلاثة أوجه، الوجه الأول توحيد العامة الذي يصح بالشواهد، والوجه الثاني توحيد الخاصة، وهو الذي يثبت بالحقائق. والوجه الثالث توحيد قائم بالقدم، وهو توحيد خاصة الخاصة، وأما التوحيد الأول فهو شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، هذا هو التوحيد الظاهر الجلي الذي نفى الشرك الأعظم، وعليه نصبت القبلة، ووجبت الذمة، وبه حقنت الدماء والأموال وانفصلت دار الإسلام عن

---

(١) بهذا الاعتقاد غير موجودة في النسخة الثانية.

دار الكفر، وصحت به الملة للعامة، وإن لم يقوموا بحق الاستدلال.

وأما الطريقة الثانية فطريقتهم مع حصول هذا يكون طريقة النظر والاستدلال، وهو أنهم يثبتون بالدليل العقلي أن الإله واحد، ولا يجوز أن يكون أكثر من واحد، وبيانه وهو أنه لو كان في الوجود إلهين مستقلين، لكان كل واحد منهما متميزاً عن الآخر بالذات، ومشاركاً له بالصفات، فيلزم أن يكون كل واحد منهما مركباً من جزء المباينة وجزء المشاركة، وكل مركب ممكن، لأنه محتاج إلى جزئه، وجزؤه غيره، والمحتاج إلى الغير ممكن، فيكون الواجب ممكناً، هذا خلف، فيجب أن يكون الإله واحداً، وهذا هو المطلوب، وهؤلاء بهذا الاعتقاد يكونون في مقام التوحيد البرهاني دون العياني، ويكون لهم مرتبة النظر والاستدلال، ويصدق عليهم أنهم عرفوا الحق ببعض الوجوه، وصاروا من الذين نجوا ودخلوا الجنة الصورية الموعودة في القيامة، وقد يعبر عن هذا التوحيد بالتوحيد الفعلي، لأنهم بالفعل يستدلون على الفاعل، وبالصنع على الصانع، وليس لهم وراء هذا مرمى، ذلك مبلغهم من العلم، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون.

وأما توحيد أهل الطريقة

فهو أنهم يشاهدون بعد حصول هذا التوحيد والوصول إليه بعين البصيرة، أن الإله واحد، وليس في الوجود غيره، ولا فاعل سواه، لقولهم: لا فاعل إلا الله، وليس في الوجود فاعل غيره، فيقطعون النظر عن الأسباب والمسببات، ويتكلون عليه حق التوكل، ويسلمون أمرهم إليه بالكلي، ويفرحون بما يجري عليهم منه، ويرضون به، لقوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾[المائدة/ ١١٩]، وبهذا يحصل لهم مقام التوكل والتسليم والرضا وأمثالها لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ

﴿لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[الطلاق/ ٣]، ويصلون بذلك إلى مرتبة التوحيد الوصفي بعد الفعلي، ويستحقون به درجة جنة الصفات ومقام الرضا، الذي هو أعلى المقامات في التوحيد الوصفي، كما أشار إليه الحق جل ذكره في قوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[التوبة/ ٧٢]، ولقول النبي ﷺ: «الرضا باب الله الأعظم» وإلى هذا التوحيد أشار الشيخ أبو اسماعيل الهروي قدس سره أيضاً في قوله: وأما التوحيد الثاني الذي يثبت بالحقائق فهو توحيد الخاصة، وهو اسقاط الأسباب الظاهرة، والصعود عن منازعات العقول، وعن التعلق بالشواهد، وهو أن لا يشهد في التوحيد دليلاً، ولا في التوكل سبباً، ولا للنجاة وسيلة، فيكون مشاهداً سبق الحق بحكمه وعلمه، ووضعه الأشياء مواضعها، وتعليقه إياها بأحانينها، وإخفائه إياها في رسومها، وتحقق معرفة العلل، وتسلك سبيل اسقاط الحديث، والفرق بين هذا التوحيد والتوحيد المخصوص بأهل الشريعة هو أن ذلك من التوحيد العلمي المنسوب إلى العوام، وهذا من التوحيد العيني المنسوب إلى الخواص، والأول موجب للخلاص من الشرك الجلي، والثاني للخلاص من الشرك الخفي، الذي هو الأعظم والأصعب، وبينهما بون بعيد، وأما الفرق بين هذا التوحيد وتوحيد خاص الخاص من أهل الله، وهو أن التوحيد المخصوص بأهل الطريقة مبني على التوكل والتسليم والرضا وأخواتها، منوط بتحصيل المقامات والمراتب، والتخلق بأخلاق الله، والاتصاف بصفاته، وهذا كله من باب التوحيد الوصفي، الذي يقتضي الواصف والموصوف والصفة، وهذا لا يخلو من الكثرة، بل هو عين الكثرة، لأنه مشتمل على الموكل والمتوكل والراضي والمرضي وأمثال ذلك، وبين الكثرة والتوحيد مباينة كلية، وتوحيد خاص الخاص مبني على الفناء المحض والطمس الكلي، والعبور عن جميع المقامات والمراتب والإضافات والاعتبارات، حتى الوجود وتوابعه، لقولهم: التوحيد اسقاط الاضافات، وأين هذا من ذاك؟ وأين الباقي بنفسه من

الفاني بربه؟ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وفي الكتاب العزيز جلت كلمته علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين إشارة إلى هذه التوحيدات الثلاث، وكذلك الإسلام والإيمان والإيقان، وأصحاب الشمال وأصحاب اليمين والسابق المقرب[1] وأمثال ذلك، وكان النبيﷺ إلى أهل هذه المراتب أشار بقوله: «الدنيا حرام على أهل الآخرة، والآخرة حرام على أهل الدنيا، وهما حرامان على أهل الله» لأن الطائفة الأولى حيث إنهم في مقام التقليد ومرتبة الظاهر، جعلوهم من أهل الدنيا، لأنهم ما تجاوزوا عنها[2]، لحرصهم وشرههم في طلبها، وبخلهم وشحهم على متاعها، وحب الدنيا رأس كل خطيئة مقرر، فنسبتهم إليها[3] يكون صحيحة واقعة، وفيهم ورد قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[الروم/ ٧]، والطائفة الثانية حيث إنهم في مقام التحقيق ومرتبة الباطن والتوحيد العيني، الذي هو فوق العلمي، جعلوهم من أهل الآخرة، لأنهم تجاوزوا عن الظاهر ووصلوا إلى الباطن وشاهدوا المطلوب بعين البصيرة على ما هو عليه، المشار إليه في قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[يوسف/ ١٠٥]، والطائفة الثالثة حيث إنهم في مقام الفناء ومرتبة باطن الباطن وخاص الخاص والتوحيد الذاتي، جعلوهم من أهل الله وخاصته، لأنهم تجاوزوا عن الظاهر والباطن، أعني الملك والملكوت والغيب والشهادة، ووصلوا إلى مقصود بالذات من الكل، الذي هو الحق تعالى، وشاهدوه بنوره على ما ينبغي، ونطقوا لما نطق العارف مثلهم، وهو قولهم: سبحان من لا يوصل إليه إلا به، وطابق قولهم[4] قول النبيﷺ: «رأيت

---

(١) والمقرب.

(٢) عنه.

(٣) فنسبته إليهما

(٤) قوله.

ربي بربي، وعرفت ربي بربي» وحيث كان سلمان من أهل هذا المقام قال النبي ﷺ في حقه: «إن الجنة أشوق من سلمان إلى الجنة» لأن الجنة من الآخرة وسلمان من أهل الله، الذين هم فوق أهل الجنة بمراتب كثيرة، فكيف يشتاق إليها؟ لأن التنزل من الأعلى إلى الأدون نقص، وفيه قال نبينا ﷺ: «حسنات الأبرار سيئات المقربين» هذا توحيد أهل الطريقة.

وأما توحيد أهل الحقيقة

بعد وصولهم إلى التوحيدين المذكورين، فهو أنهم لا يشاهدون في الوجود غير الله، ولا يعرفون في الحقيقة غيره، لأن وجوده حقيقي ذاتي، ووجود غيره عارضي مجازي في معرض الفناء والهلاك آناً فآناً، لقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[القصص/٨٨]، ولقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[الرحمٰن/ ٢٦ و٢٧]، لأن هذا الفناء والهلاك ليس موقوفاً على زمان وآن كما ذهب إليه بعض المحجوبين، بل هو واقع دائماً من الأزل إلى الأبد على وتيرة واحدة، كهلاك الأمواج في البحر، وفناء القطرات في المحيط، فإن الأمواج والقطرات وإن كانت لها اعتباراً عقلياً وتميزاً وهمياً، لكن في الحقيقة ليس لها وجود أصلاً، لأن الوجود الحقيقي للبحر فقط، والأمواج هالكة فانية في نفس الأمر، وهذا أمر معقول، يعرفه كل عاقل، وبل أمر محسوس يعرفه كل ذي حس، وفيه قيل:

البحر بحر على ما كان في قدم ... إن الحوادث أمواج وأنهار
لا تحجبنك أشكال تشاكلها ... عمن تشكل فيها فهي استار

فكما أن من شاهد البحر والأمواج والقطرات على الوجه المذكور، وعرف أنه ليس في الحقيقة وجود إلا للبحر، والأمواج والقطرات معدومات في نفس الأمر، لأنها ساعة فساعة في معرض الفناء والهلاك والزوال، وقال

ليس في الحقيقة ولا في الخارج إلا البحر، فكذلك من شاهد الحق والخلق والمظاهر على ما يقرر، وعرف أنه ليس في الحقيقة وجود إلا للحق، والخلق والمظاهر معدومات في نفس الأمر، لأنهم آناً فآناً في معرض الزوال والهلاك، فإنه يجوز له أيضاً أن يقول: ليس في الحقيقة ولا في الخارج إلا الحق، وهذا معنى قولهم: الباقي باق في الأزل، والفاني فان لم يزل، وإليه الإشارة بقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[ق/ ١٥]، لأن عند العارف الوجود الإضافي القائم بنفس الرحمن، ومدد الوجود الحقيقي ساعة فساعة في معرض الزوال والفناء، وقبول الوجود مثله، ومن هذا يصعب إدراكه، لأنه في غاية الخفاء، وإلى هذا أشار أيضاً وقال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾[النحل/ ٨٨]، ويعرف هذا من كبر الثمرة ساعة فساعة، وعدم إدراك الحس ذلك الكبر والصغر والإعدام والإيجاد، وكذلك في سريان الماء وتموجه، فإنه في كل ساعة يعدم، ويوجد مثله بقدرة الله وكمال صنعه، وإليه الإشارة في اصطلاحهم أيضاً، وهو قولهم: المدد الوجودي هو وصول كلّ ما يحتاج إليه الممكن في وجوده على الولاء حتى يبقى، فإن الحق يمده من النفس الرحماني بالوجود، حتى يترجح وجوده على عدمه، الذي هو مقتضى ذاته بدون موجده، وذلك في التحلل وبدله من الغذاء، والتنفس ومدده من الهواء ظاهر محسوس، وأما في الجمادات والأفلاك والروحانيات فالعقل يحكم بدوام رجحان وجودها من مرجحه، والشهود يحكم بكون كل ممكن في كل آن خلقاً جديداً، وبالجملة ليس في نظر هذا العارف الذي شهد الحق أو الوجود على ما هو عليه إلا الحق تعالى، المعبر عنه بالوجود تارة وبالذات أخرى، ويعضد ذلك قول جميع العارفين مثله الذي قالوا بالاتفاق: ليس في الوجود سوى الله تعالى، وأسمائه وصفاته وأفعاله، فالكل هو وبه ومنه وإليه، وهذا معنى قوله تعالى عند التحقيق: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الحديد/ ٣]، ومعنى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾[فصلت/ ٥٣، ٥٤]، لأن المحيط لا ينفك عن المحاط، ولا المحاط عن المحيط، والمحاط عند التحقيق أسماؤه وأفعاله وآثاره، أو الوجود الإضافي الإمكاني الذي لا حقيقة له في الخارج، فلا يكون في الخارج إلا هو، ولهذا قال تأكيداً للأقوال المذكورة: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[البقرة/ ١١٥]، لأن الوجه هو الذات بالاتفاق، فيكون تقديره: أينما تولوا من الأمكنة والجهات ثَم ذاته ووجوده، لأنه المحيط، والمحيط لا يكون مخصوصاً بمحاط دون محاط، ولا بموضع دون موضع، والله بكل شيء محيط، فافهم جداً.

فالتوحيد الفعلي كما أنه عبارة عن اسقاط كل فاعل وفعل عن النظر، حتى يصل صاحبه إلى الفاعل الحقيقي الواحد الذي هو مصدر كل الأفعال ويثبت قدمه العقلي في التوحيد الفعلي والتوحيد الوصفي عن اسقاط كل صفة وموصوف عن النظر حتى يصل صاحبه إلى الموصوف الحقيقي الوحداني، الذي هو منشأ كل صفة وموصوف، ويثبت قدمه البصيري في التوحيد الوصفي، والتوحيد الذاتي المشار إليه الآن عبارة عن اسقاط كل ذات ووجود عن النظر، حتى يصل صاحبه إلى الوجود الواحد المطلق المحض، والذات البحت الخالص الذي هو موجد كل موجود، ومنشىء جميع الذوات، ويثبت بذلك قدمه الشهودي الروحي في التوحيد الوجودي الذاتي، ويصير به عارفاً كاملاً مكملاً محققاً واصلاً مقام الاستقامة والتمكن، الذي لا مقام فوقه، المعبر عنه في قولهم: ليس[1] وراء عبادان قرية، وإلى التوحيدات الثلاث أشار النبيﷺ في دعائه المشهور عند الخاص والعام والموافق والمخالف[2]، وهو قوله: «اللهم إني أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك» لأن الأول إشارة إلى التوحيد الفعلي، والثاني

---

(١) بليس.

(٢) والمخالف والمؤالف.

إلى التوحيد الصفاتي، والثالث إلى التوحيد الذاتي، وكذلك القوم في اصطلاحهم، فإنهم قسموا التوحيد ثلاثة أقسام، وسموا صاحب القسم الأول بذي العقل، وصاحب القسم الثاني بذي العين، وصاحب القسم الثالث بذي العقل والعين، لأنه الجامع لهما والفائق عليهما، نذكره هاهنا ونختم هذا البحث عليه، وهو قولهم: ذو العقل هو الذي يرى الخلق ظاهراً والحق باطناً، فيكون الحق عنده مرآة للخلق لاحتجاب المرآة بالصورة الظاهرة فيه، احتجاب المطلق بالمقيد، و[1] ذو العين هو الذي يرى الحق ظاهراً والخلق باطناً، فيكون الخلق عنده مرآة الحق، لظهوره عنده، واختفاء الخلق فيه اختفاء المرآة بالصورة، و[2] ذو العقل والعين هو الذي يرى الحق في الخلق والخلق في الحق، ولا يحتجب بأحدهما عن الآخر، بل يرى الوجود الواحد بعينه حقاً من وجه، خلقاً من وجه، فلا يحتجب بالكثرة عن شهود الوجه الواحد الأحد، ولا يزاحم في شهوده[3] كثرة المظاهر أحدية الذات التي يتجلى فيها، ولا يحتجب بأحدية وجه الحق عن شهود الكثرة الخلقية، ولا يزاحم في شهودها أحدية الذات المتجلية في المجالي، كثرتها، وإلى المراتب الثلاث أشار الشيخ الكامل محيي الدين الأعرابي قدس سره في أبيات له:

ففي الخلق عين الحق إن كنت ذا عين
وفي الحق عين الخلق إن كنت ذا عقل
وإن كنت ذا عين وعقل فما ترى
سوى عين شيء واحد فيه بالشكل

وحيث إن هذا مقاماً شريفاً ليس فوقه مقام كما أشرنا إليه، قال الشيخ

---

(١) «و» ساقطة في النسخة الثانية.

(٢) «و» ساقطة في النسخة الثانية.

(٣) كذا في النسختين والظاهر في شهود.

أيضاً في فصوصه: وإذا ذقت هذا ذقت الغاية التي[1] ليس فوقها غاية في حق[2] المخلوق، فلا تطمع ولا تتعب نفسك في أن ترقى أعلى من هذا الدرج، فما هو ثم أصلاً، وما بعده إلا العدم المحض، رزقنا الله وإياكم الوصول إلى هذا المقام بمحمد وآله الكرام. هذا آخر بيان التوحيدات الثلاث بقدر هذا المقام بالنسبة إلى الطوائف الثلاث، والله أعلم وأحكم، وهو يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وأما العدل

فالمراد بالعدل وهو أنه تعالى لا يفعل القبيح، ولا يخل بالواجب والقبيح كل فعل ينفر العقل عنه، ولا يكون ملائماً لحكمه[3]، كالكذب والظلم والسرقة وأمثال ذلك، فإن العقل الصحيح ينفر عن أمثالها، ولا يحكم بها أصلاً، والواجب عليه تعالى وهو الذي تقدم ذكره بأنه تعالى حيث خلق الخلق وكلفهم بتكليف، يجب عليه أن يبعث إليهم أحداً من عنده، ليعلمهم هذا التكليف، ويرشدهم إلى سواء الطريق لقوله فيه جل ذكره: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[آل عمران/ ١٦٤]، وألا يلزم منه الإهمال والإجمال في التكليف والأفعال، والإخلال بالواجب عن الحكيم الكامل، ويؤدي ذلك إلى نقض غرضه، ونقض الغرض على الحكيم الكامل محال، فيجب أن يبعث أحداً إليهم ليعلمهم ذلك التكليف، وهم يقوموا[4] به ويحصل غرضه منهم لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا

---

(١) الذي.

(٢) حد.

(٣) لحكم.

(٤) كذا في النسختين والظاهر يقومون.

﴿لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات/ ٥٦]، ولقوله في الحديث القدّسي: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق» وهذا يسمى لطفاً كما سبق ذكره غير مرة، بأن اللطف هو الذي يكون العبد به إلى الطاعة أقرب ومن المعصية أبعد، وكل ذلك راجع إلى حكم العقل، لأن الحسن والقبح عند أكثر العقلاء عقليان لا نقليان، وعند البعض بعكس ذلك أعني هما نقليان، وبينهما خلاف، فالمعتزلة وتابعوهم ذهبوا إلى أنهما عقليان، والأشاعرة وتابعوهم ذهبوا إلى أنهما نقليان، والحق في طرف المعتزلة بحكم العقل الصحيح أيضاً، لأن النقل ما له دخل في ذلك، لأنه لو كان موقوفاً على النقل والشرع، ما أقروا به الكفار وعبدة الأوثان، لأن عندهم، الصدق حسن والكذب قبيح، والعدل حسن والظلم قبيح، وكذلك جميع الأفعال المستحسنة عند العقل، والمستقبحة عنده، فإن أكثر العقلاء اتفقوا على أنهما عقليان لا نقليان، ومع ذلك كله المعتزلة وتابعوهم استدلوا عليه ببرهان عقلي غير قابل للمنع، نقرره هاهنا حتى يتحقق عندك صدق دعوانا ودعواهم، وهو قولهم: مرادنا في كونه تعالى عادلاً، وهو أنه لا يفعل القبيح ولا يخل بالواجب، وهذه المسألة متفرعة على إثبات الحسن والقبح بحكم العقل مطلقاً، فنقول:

اعلم أن كل من صدر عنه فعل المكلفين من الأفعال الاختيارية، لا يخلو إما أن يكون صدور ذلك الفعل منافراً للعقل، أو لا يكون، فالأول هو القبيح. والثاني إما أن تركه منافراً للعقل أو لا يكون والأول هو الواجب، والثاني إما أن يكون فاعله مستحقاً للمدح أو لا يكون، والأول هو الندب، والثاني إما أن يكون فعله أولى من تركه أو لا يكون، والأول هو الحسن، والثاني إما أن يكون تركه أولى من فعله أو لا يكون، والأول هو المكروه، والثاني هو المباح، وليس أفعال المكلفين بخارج عن هذا الحصر، وإذا ثبت هذا فلا شك أن بعض أفعالنا ما يكون العقل منافراً عن فعلها، كالظلم والكذب والعبث والمفسدة وغير ذلك وبعض أفعالنا ملائماً للعقل، كشكر

المنعم ورد الوديعة وقضاء الديون وغير ذلك، والعلم بذلك يجده كل عاقل من نفسه، ولا يحتاج فيه إلى شرع ولا نقل، ولهذا يعرفه المنكرون للشرائع، كالكفار الأصلية والبراهمة وعبدة الأوثان، كما يعرفه المليون وأرباب الأديان والشرائع، ومن أنكر ذلك فهو جاهل مكابر لا يستحق الخطاب، وحيث تقرر هذا، فلنشرع في بيانه بالنسبة إلى الطوائف الثلاث.

أما عدل أهل الشريعة

فجميع ما مر في هذا الباب، وبوجه آخر: وهو أنه تعالى لا يفعل القبيح ولا يخل بالواجب، لأنه إذا كان عالماً بقبح القبيح وعالماً باستغنائه عنه، فعلمه دائماً يصرفه عن فعله، ولا يدعوه الداعي إليه لاستغنائه، ومع عدم الداعي ووجود الصارف يستحيل أن يصدر أمثال هذه الأفعال عن القادر المختار، فثبت أنه تعالى لا يفعل القبيح البتة، ولا يخل بالواجب، وإذا ثبت أنه تعالى لا يفعل القبيح، فكلّ ما صدر من إحداث العالم وما فيه من خلق الحيوانات المؤذية والنبات المضرة والسموم القاتلة، وغير ذلك من التكاليف الشاقة، وتعذيب بعض الحيوان بلا سبب معلوم وأمثاله يكون حسناً، وكلّ ما يصدر في العالم من الظلم والقبح والكذب والفساد وغير ذلك إنما يصدر عن غيره لا عنه، ولا يريد شيئاً من القبائح أصلاً، لأن إرادة القبيح قبيحة، وإلى عدم إرادة القبيح وعدم صدوره عنه قال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[الأعراف/ ٢٨ ـ ٣٠]، وهذه الآيات من أعظم الدلالات على صدق ما قلناه، وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ

﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء/ ٧٨ ـ ٨٠]، فإن هذه الأقوال تشهد بأن الأفعال القبيحة من العبد، والأفعال الحسنة أيضاً منه، لكن بتوفيق الله وهدايته، لأن المدح والذم فيهما راجعان إليه لا إلى غيره، وعلى جميع التقادير ليس هناك قول يدل على ظلمه تعالى وصدور الأفعال القبيحة عنه، وهو المراد بالعدل عند أرباب الشريعة بحكم العقل والنقل المطابق لقوله أيضاً: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت/ ٤٦].

وأما عدل أهل الطريق

فالعدل عندهم بعد رسوخهم في هذا الاعتقاد، وهو أن الله تعالى أعطى كل شيء ما أعطى من الحقائق والكمالات والطبائع والغرائز والأحوال والأفعال، بمقتضى العدل والقسط من غير حيف وميل وتقصير وإهمال، لأنه الجواد المطلق، والجواد المطلق ما يجود على القوابل والمستعدين إلا على الوجه الأتم، وإلا لا يكون جواداً، وإلى هذا أشار بقوله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه/ ٥٠]، وكذلك بقوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[إبراهيم/ ٣٤]، ومعناه على ما مر مراراً: أي آتاكم من كل ما سألتموه في الأزل بلسان استعدادكم وقابلياتكم من غير زيادة ونقصان، ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، أي وإن تعدوا هذه النعمة التي أنعم بها عليكم ظاهراً وباطناً بقوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان/ ٢٠] لم تقدروا عليها ولا على احصائها، فإنها غير قابلة للحصر والعد، وقوله: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[التوبة/ ٥١]، بيان لهذا المعنى، وتأكيد بأن كل فعل يصدر منه لا يكون إلا بمقتضى العدل والحكمة والقسط، فيجب على العبد أن يتكل ويعتمد على أفعاله وأقواله، ولا يتحرك إلا بأمره وإشارته من غير

الالتفات إلى غيره، كما قال أيضاً: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[الزمر/ ٣٦]، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾[الطلاق/ ٣]، ومن هذا ثبتت قدمهم في مقام الاستقامة والتمكن دائماً، أي قدم أهل الطريقة وأرباب العرفان في مقام التوكل والتسليم والرضا وأمثال ذلك، كما أشار إليه بقوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[إبراهيم/ ٢٧]، ولا يمكن التجاوز عنه، لأن كل شخص يعرف أن الحكيم الكامل في ذاته، العالم بجميع الأشياء بعدها وقبلها، لا يفعل إلا بمقتضى علمه وحكمته، ولا يصدر منه شيء خلاف الواقع، لا بد وأن يتكل ويرضى بفعله، حسناً كان ذلك الفعل أو قبيحاً، لأن مقام الرضا والتسليم والعلم بعلم ربه، وأنه عالم بحقائق الأشياء كلها يقتضي هذا، ومن حيث إن هذا الرضا موجب لرضاء ربه عنه، أشار الحق تعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾[البينة/ ٧ و٨]، ولهذا ورد في أوليائه الذين هم في هذا المقام، أعني مقام الرضا والتسليم والتوكل وعدم الالتفات إلى الماضي والمستقبل، وقلة التعلق بالأمور الدنيوية، التي تكون هي موجبة للحزن والخوف، أي الحزن على ما فات، والخوف على ما سيجيء، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[يونس/ ٦٢]، لأنهم فارغين عن الهم والحزن بالأمور الماضية والآتية، لعلمهم بعلم ربهم، وإنه ما يفعل شيئاً إلا على الوجه الذي ينبغي ومن هذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «وجدت الزهد كله في كلمتين من القرآن» وهو قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾[آل عمران/ ١٥٣]، ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[الحديد/ ٢٣]، لأن المراد تساوي الحالين في جميع الحالات من المحبوبات والمكروهات، والملائم وغير الملائم، وقد أشار إلى هذا في بعض أقواله في هذا المعنى أبسط من ذلك، وهو قوله:

اعلموا علماً يقيناً أن الله لم يجعل للعبد وإن عظمت حيلته واشتدت طلبته وقويت مكيدته أكثر مما سمى له في الذكر الحكيم، ولم يحل بين العبد في ضعفه وقلة حيلته وبين أن يبلغ ما سمى له في الذكر الحكيم، والعارف لهذا، العامل به، أعظم الناس راحة في منفعة، والتارك له الشاك فيه أعظم الناس شغلاً في مضرة، ورب منعم عليه مستدرج بالنعمى، ورب مبتلى مصنوع بالبلوى، فزد أيها المستنفع في شكرك، وقصر من عجلتك، وقف عند منتهى رزقك. وهذا الكلام برهان قاطع على صدق جميع ما قلناه في هذا الباب، وهو وإن سبق أولاً فيما مضى من الأبحاث السالفة، فإنما أعدناها هنا لمناسبته لهذا البحث وتسديده له وتقويته، ولا منع من إجرائه في مراتب كثيرة، لما يحتمل من تأويله وتنوعه.

وورد عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: كنت رديف رسول الله ﷺ فقال لي: «يا غلام أو ـ يا بني ـ أُعلمك كلمات ينفعك الله بهن» قلت بلى يا رسول الله، قال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، وتقرّب إلى الله في الرخاء يقربك في الشدائد، وإذا سألت فاسأل الله، وإن استعنت فاستعن بالله، فقد جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، فلو أن الخلائق أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله عليك، لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه، واعمل لله بالشكر واليقين، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وإن النصر مع الصبر، وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسراً» ومعلوم أن الشخص ما يتمكن من هذا بشيء إلا إذا صار عالماً بما سبق ذكره من سبق علم الله بالأشياء، قبلها وبعدها، وصدور الأفعال منه تعالى على مقتضى العلم والحكمة، وجاء في الآثار أيضاً أن جابر بن عبد الله الأنصاري رحمة الله عليه، الذي كان من كبار الصحابة، ابتلي في آخر العمر بضعف الهرم والعجز، فزاره محمد بن علي الباقر عليه السلام، فسأله عن حاله، فقال: أنا في حالة أحبّ فيها الشيخوخة على

الشباب، والمرض على الصحة، والموت على الحياة، فقال الباقر عليه السلام: «أما أنا فإن جعلني الله سبحانه شيخاً أحب الشيخوخة، وإن جعلني شاباً أحب الشيبوبة، وإن أمرضني أحب المرض، وإن شفاني أحب الشفاء، وإن أماتني أحب الموت، وإن أبقاني أحب البقاء» فلما سمع جابر هذا الكلام منه، قبل وجهه وقال: صدق رسول الله صلى الله عليه وآله، فإنه قال لي: «إنك ستدرك ولداً من أولادي، اسمه اسمي، يبقر العلم كما يبقر الثور الأرض، ولذلك سمي باقراً، أي باقر علم الأولين والأخرين[1]»، ويعلم من هذا الكلام الذي سبق في بيان مقامات العارفين، أن جابراً كان في مرتبة الصبر، ومحمد الباقر عليه السلام كان في مرتبة الرضا، والفرق بينهما ظاهر.

وبالجملة هذه المراتب لا تحصل إلا بعلم العبد بربه أنه عالم بحاله وبحال جميع المخلوقات أزلاً وأبداً، وأنه عادل في أفعاله وأحواله، منزه عن الظلم والتعدي على نفسه وعلى غيره، كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾[يونس/ ٤٤]، وإذا عرفت هذا فعليك بتحصيل هذا الاعتقاد، ثم بتحصيل المقامات اللازمة له مما مر ذكرها، والله أعلم وأحكم، وهو يقول الحق وهو يهدي السبيل، هذا عدل أهل الطريقة واعتقادهم في الحق تعالى جل ذكره.

وأما عدل أهل الحقيقة

بعد رسوخهم في العدلين المذكورين، فهو أن الله تعالى عادل في إعطاء وجود الموجودات، كما هو عادل في إعطاء أخلاقهم وأوصافهم، بعد النظر إلى استعدادهم الذاتي وقابلياتهم[2] الجبلية، وذلك لأن كل موجود فرض في العالم أو لم يفرض، له تعين وتحقق في علم ربه قبل أن يوجد في العين

(١) في النسخة الثانية: والآخر.

(٢) والقابليات.

والخارج، والوجود الخارجي له تابع لوجوده العلمي، فيجب عليه تعالى حينئذ إعطاء وجود ذلك الموجود العلمي الأزلي، المعدوم في الخارج، الموجود في العلم، على ما هو عليه في تحققه وتعينه في علمه، لا أزيد ولا أنقص، لأنه لو أعطى وجوده بخلاف ذلك لكان ظلماً فاحشاً، لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، وهذا غير جائز منه، لأنه عادل في فعله وقوله، مقسط في إعطائه ومنعه كما سبق ذكره، فيجب أن يعطى وجود كل موجود على ما هو عليه في نفسه من غير تفاوت من الزيادة والنقص، وهذا هو العدل الحقيقي، لأن العدل هو وضع الشيء في موضعه، بعكس الظلم، ونقل كثير ورد في هذا الباب، منها ما سبق من قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾[إبراهيم/ ٣٤]، لأنه يقول: وآتاكم كل ما سألتموه في الأزل عند الوجود العلمي، ليطابق الأزل الأبد، والوجود العلمي الوجود الخارجي، ومنها ما سبق أيضاً من قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[الإسراء/ ٨٤]، لأن هذا شاهد عدل على صدق هذه الدعوى، لأنه يقول: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾، أي كل يعمل على شاكلته الظاهرة[١] وصورته الحسية، مطابقاً لما في شاكلته الباطنة وصورته المعنوية، ومن هذا قال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[الأنعام/ ١٤٩]، على عباده[٢] أي فلله الحجة البالغة عليهم بأفعالهم الصادرة منهم على مقتضى ذواتهم وماهياتهم، وإعطائهم الوجود مطابقاً لتلك الماهيات والذوات، ومنها ما سبق من قول النبي ﷺ: «كل ميسر لما خلق له» وقد سبق معناه مراراً، وكذلك سؤال داود عليه السلام حين قال: يا رب لماذا خلقت الخلق، قال: لما هم عليه، أي لما هم عليه من القابليات والاستعدادات وعلى هذه التقادير لا يكون لأحد لسان اعتراض وإقامة حجة

---

(١) الظاهرية.

(٢) كذا في النسختين كلمة «على عباده» ساقطة.

على الله تعالى بأنك لم خلقتني كذا وكذا، بأن الله تعالى يجيبه[1] بلسان الحال: بل ما أعطيت وجودك إلا على قدر قابليتك واستعدادك، وقابليتك واستعدادك من اقتضاء ذاتك وماهيتك لا مني، لأني فاعل وأنت قابل، وقابلية القابل لا يكون من الفاعل، بل وجوده مطابقاً[2] لماهيته وقابليته، فأنت حينئذ تعرض على قابليتك واستعدادك لا عليَّ، لأن الفاعل ليس له تصرف في القابل إلا على قدر قابليته واعطائه الوجود على ما هو عليه من حيث القابلية، وإن قلت[3] بالعلم إني عالماً بك، فالعلم ليس له تصرف في المعلوم حتى يرد هذا، والمطابقة شرط بين العلم والمعلوم، لأن العلم تابع للمعلوم، فالتابع لا يكون عالماً بالمتبوع إلا على الوجه الذي هو عليه من معلوميته، فحينئذ ما أعطيت وجودك إلا على الوجه الذي كنت عالماً بك وبماهيتك على مقتضى قابليتك، وأنا حكيم عادل عالم كامل، لا يصدر مني شيء إلا على الوجه الذي ينبغي، وقولي: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾[الأنبياء/ ٢٣]، إشارة إلى هذا، ومرادي أني عالم[4] حكيم، ولا يُسأل عن فعل العالم الحكيم، ولكن هم يُسألون من جهلهم بحقائق الأشياء وقدرتهم على وضع كل شيء موضعه، وأنت لو كنت مثلي عالماً بحقائق الأشياء كلها، قبلها وبعدها، ما كنت ممن يسأل عن فعله، وأنا العالم الحكيم الكامل، فلا ينبغي أن يسأل عن فعلي أصلاً، لأني ما أفعل شيئاً إلا بمقتضى علمي وحكمتي وعلى الوجه الذي ينبغي، ومن هذا قلت: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾[5] [سبأ/ ٣]، وقولي: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ

---

(١) يجيب.
(٢) مطابق.
(٣) كنت بالعلم واني.
(٤) عليم.
(٥) هذه الآية غير موجودة في النسخة الثانية.

مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[يونس/ ٦١]، وقوله أيضاً: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[يس/ ٣٨] يشهد بهذا كله، فارجع إليه وتدبر فيه، فإنه ينفتح عليك أسرار هذا المعنى بأسرها من غير مانع لقولنا أيضاً: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق/ ٣ ـ ٥]، ولقولي ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[الرحمٰن/ ١ ـ ٤]، وقد سلف هذا البحث أولاً مبسوطاً في مسألة القوابل، وأنها هل هل مجعولة بجعل الجاعل أم لا، وقد بسطنا الكلام فيها بسطاً لا مزيد عليه، ارجع إليه وتدبر أسراره، فإنه المرتبة العليا التي ليس فوقها رتبة، والله أعلم وأحكم، وهو يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وأما النبوة

فهي على الإطلاق عبارة عن قول النفس القدسي حقائق المعلومات والمعقولات عن الله تعالى بواسطة جوهر العقل الأول، المسمى بجبرائيل تارة وبروح القدس أخرى، والرسالة تبليغ تلك المعلومات والمعقولات إلى المستفيدين والتابعين لذلك النبي والرسول.

وأما عند أهل الشريعة

فالنبي إنسان مبعوث من الله تعالى إلى عباده ليكملهم بأن يعرفهم ما يحتاجون إليه من طاعته، ويعلمهم ما يجترحهم عن معصيته، وتعرف نبوته بثلاثة أشياء، أولها أن لا يقرر ما يخالف ظاهر العقل، كالقول بأن الباري أكثر من واحد، والثاني أن تكون دعوته للخلق إلى طاعة الله والاحتراز عن معصيته والثالث أن يظهر منه عقيب دعوى النبوة معجزة مقرونة بالتحدي مطابقة لدعواه، والمعجز كل فعل خارق للعادة يعجز عن أمثاله البشر، والتحدي هو أن يقول النبي لأمته: إن لم تقبلوا قولي فافعلوا مثل هذا الفعل أو بالعكس، أعني تقول أمته هذا القول بعينه معارضة له، مثل ما قالوا لنبينا افعل كذا وكذا

حتى نصدق بنبوتك، كشق القمر وانطاق الحجر وغير ذلك من المعجزات، والفعل الذي يظهر من أحد على غير التحدي والتعارض يسمى بالكرامة، وهو المختص بالأولياء، كما أن المعجزة مختصة بالأنبياء، والعلة في بعثة هذا النبي والرسول وهي أن الله تعالى حيث غرضه من خلق العبيد إيصالهم إلى كمالهم المعين لهم في الأزل لمقتضى ذواتهم وماهياتهم، وجب عليه بعثة هؤلاء ليعلمهم كيفية التكليف والعبادة والمعرفة ليحصل به غرضه، وبيان ذلك وهو: إنه تعالى إذا أمكنهم بسبب كثرة حواسهم وقواهم، واختلاف دواعيهم وآرائهم وقوع الشر والفساد، ووقوع الخير والصلاح. فيجب عليه بعثة أحد[1] إليهم، لينبههم على كيفية معاشرتهم وحسن معاملتهم وانتظام أمور معاشهم ومعادهم التي تسمى شريعة، وهذا اللطف الواجب عليه المتقدم ذكره، وحيث إن الله تعالى غير قابل للإشارة الحسية، وليس لكل أحد قوة أخذ هذا المعنى منه تعالى، وتعليم هؤلاء العباد بغير واسطة ممتنع، فيجب عليه تعيين طائفة من الرسل يكون بينه وبينهم مناسبة، ليأخذوا منه ويوصلوا إلى عبيده التابعين، وهذا النبي أو الرسول بعد تخلقه بأخلاق الله والاتصاف بصفاته يجب أن يكون معصوماً من الصغائر والكبائر من أول عمره إلى آخره، ليحصل الوثوق بقوله وفعله، كما قالوا: امتناع وقوع القبائح والإخلال بالواجبات عن الرسل على وجه لا يخرجون عن حد الاختيار لئلا ينفر عقول الخلق عنهم ويثقون بما جاؤوا به لطف، واللطف واجب عليه تعالى، ويسمى هذا اللطف عصمة، فالرسل يجب أن يكونوا معصومين من الخطأ والزلل، وكل مبعوث من حضرته إلى قوم لم يقابل بأمر خارق العادة خال عن المعارضة مقرون بالتحدي موافق لدعواه، لم يكن لهم طريق إلى تصديقه، ويسمى ذلك معجزاً[2]، فظهور معجزات الرسل واجب بالضرورة، لئلا تبطل

---

(١) نبي.

(٢) معجز.

بعثتهم ويحصل[1] غرض الله منهم، فافهم جيداً، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[آل عمران/ ١٦٤]، هذا ما عند أهل الشريعة في النبي والرسول والنبوة والرسالة بقدر هذا المقام، والله أعلم وأحكم.

وأما عند أهل الطريقة

فالنبوة عندهم بعد رسوخهم في الطريقة المذكورة اعتقاداً وتصديقاً هي الاخبار عن الحقائق الإلهية والأسرار الربانية، مترتباً على تحقيق أسمائه وصفاته وأفعاله، وهي على قسمين، نبوة التعريف ونبوة التشريع، فالأولى هي الإنباء عن معرفة الذات والأسماء والصفات، والثانية جميع ذلك مع تبليغ الأحكام والتأديب بالأخلاق والتعليم بالحكمة والقيام بالسياسة، ويخص هذه بالرسالة، وبيان ذلك على سبيل التفصيل والبسط وهو أن نقول:

اعلم أن للحق تعالى ظاهراً وباطناً، والباطن[2] يشمل الوحدة الحقيقية التي للغيب المطلق، والكثرة العلمية حضرة الأعيان الثابتة، والظاهر لا يزال مكتنفاً[3] بالكثرة لا خلو له عنها، لأن ظهور الأسماء والصفات من حيث خصوصيتها الموجبة لتعددها لا يمكن إلا أن يكون لكل منها صورة مخصوصة، فيلزم التكثر، ولما كان كل منها طالباً لظهوره وسلطنته وأحكامه، حصَل النزاع والتخاصم في الأعيان الخارجية، باحتجاب كل منها عن الاسم الظاهر في غيره، فاحتاج الأمر إلى مظهر حكم عدل ليحكم بينها[4]، ويحفظ

---

(١) تحصيل.

(٢) فالباطن.

(٣) في النسخة الثانية مكتنف.

(٤) بينهم.

نظام العالم في الدنيا والآخرة، ويحكم بربه الذي هو رب الأرباب بين الأسماء بالعدالة، ويوصل كلاً منها إلى كماله ظاهراً وباطناً، وهو النبي الحقيقي والقطب الأزلي أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، وهو الحقيقة المحمدية ﷺ كما أشار إليه بقوله: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» أي بين العلم والجسم، وأما الحكم بين المظاهر دون الأسماء فهو النبي الذي تحصل نبوته بعد الظهور نيابة عن النبي الحقيقي، فالنبي هو المبعوث إلى الخلق ليكون هادياً لهم ومرشداً إلى كمالهم المقدر لكل واحد منهم في الحضرة العلمية باقتضاء استعدادات أعيانهم الثابتة إياه، وهو قد يكون مشرعاً وقد لا يكون كأنبياء بني إسرائيل، والنبوة والبعثة وهي اختصاص إلهي حاصل لعينه من التجلي الموجب للأعيان في العلم، وهو الفيض الأقدس، ولما كان من المظاهر طالباً لهذا المقام الأعظم بحكم التفوق على أبناء جنسه فرتب النبوة بإظهار المعجزات وخوارق العادات مع التحدي، لتميز النبي من المتنبي، فالأنبياء عليهم السلام مظاهر الذات الإلهية من حيث ربوبيتها للمظاهر وعدالتها بينها، فالنبوة مختصة بالظاهر ويشترك كلهم في الدعوة والهداية والتصرف في الخلق وغيرها[1] مما لا بد منه، فالنبوة دائرة تامة مشتملة على دوائر متناهية متفاوتة في الحيطة التامة، كأولي العزم والمرسلين عليهم السلام، وغير التامة كأنبياء بني إسرائيل، فالنبوة دائرة تامة مشتملة على دوائر متناهية متفاوتة في الحيطة كما بيّناه قبل هذا في الدائرة وغير الدائرة، هذا ما عند أهل الطريقة في بحث النبوة والرسالة والنبي والرسول، وبالله التوفيق.

وأما عند أهل الحقيقة

فالنبوة عندهم بعد رسوخهم في المرتبتين المذكورتين وهي الخلافة الإلهية المطلقة، لكن لها مراتب بحسب مراتب الشخص الذي هو مظهر تلك

---

(١) غيرهما.

الخلافة، وتلك المراتب لها تعريفات قد سبقت بعضها وقد بقيت البعض الآخر نقرره بعبارة أخرى، وهي هذه:

اعلم أن النبوة عندهم بمعنى الإنباء، والنبي هو المنبىء عن ذات الله تعالى وصفاته وأسمائه وأحكامه ومراداته، والإنباء الحقيقي الذاتي الأولي ليس إلا للروح الأعظم، الذي بعثه الله إلى النفس الكلية أولاً، ثم إلى النفس الجزئية ثانياً، لينبئهم بلسانه العقلي عن الذات الأحدية والصفات الأزلية والأسماء الإلهية والأحكام الجليلة والمرادات الجسيمة، وكل نبي من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ مظهر من مظاهر نبوة الروح الأعظم، فنبوته ذاتية دائمة، ونبوة المظاهر عرضية منصرمة إلا نبوة محمد ﷺ، فإنها دائمة غير منصرمة، إذ حقيقته حقيقة الروح الأعظم، وصورته صور التي ظهرت فيها الحقيقة بجميع أسمائها وصفاتها، وسائر الأنبياء مظاهرها ببعض الأسماء والصفات تجلت في كل مظهر بصفة من صفاتها واسم من أسمائها، إلى أن تجلت في المظهر المحمدي بذاتها وجميع صفاتها وختم به النبوة، وكان الرسول ﷺ سابقاً على جميع الأنبياء من حيث الحقيقة، متأخراً عنهم من حيث الصورة، كما قال: «نحن الآخرون السابقون» وقال: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» هذا تعريف النبوة والنبي بقدر هذا المقام.

أما تعريف الخلافة والخليفة وذلك أيضاً بعبارتهم فهو أنهم قالوا: لما اقتضى حكم سلطنة الذات الأزلية والصفات العلية بسط مملكة الألوهية ونشر ألوية الربوبية بإظهار الخلائق وتسخيرها، وإمضاء الأمور وتدبيرها، وحفظ مراتب الوجود ورفع مناصب الشهود، وكان مباشرة هذا الأمر من الذات القديمة بغير واسطة بعيداً جداً، لبعد المناسبة بين عزة القدم وذلة الحدث، حكم الحكيم بتخلف نائب ينوب عنه في التصرف والولاية، والحفظ والرعاية، وله وجه في القدم يستمد به من الحق تعالى، ووجه في

الحدث يمد به الخلق، فجعل على صورته خليفة يخلف عنه في التصرف، وخلع عليه خلع جميع أسمائه، ومكنه في مسند الخلافة بإلقاء مقاليد الأمور إليه وإحالة حكم الجمهور عليه، وتنفيذ تصرفاته في خزائن ملكه وملكوته، وتسخير الخلائق لحكمه وجبروته، وسماه إنساناً لإمكان وقوع الإنس بينه وبين الخلق برابطة الجنسية وروابط الإنسية، وجعل له بحكم اسميه الظاهر والباطن حقيقة باطنة وصورة ظاهرة، ليتمكن بهما من التصرف في الملك والملكوت، وحقيقته الباطنة هي الروح الأعظم، وهو الأمر الذي يستحق به الإنسان الخلافة، والعقل الأول وزيره وترجمانه، والنفس الكلية خازنه وقهرمانه، والطبيعة الكلية عامله وهي رئيس القوى الطبيعية، وأما صورته الظاهرة صورة العالم من العرش إلى الفرش وما بينهما من البسائط والمركبات، وهذا هو الإنسان الكبير المشير إليه قول المحققين: العالم إنسان كبير، وأما قولهم: الإنسان عالم صغير، أرادوا به نوع البشر وهو خليفة الله في الأرض، والإنسان الكبيرخليفة الله في السماء والأرض، والإنسان الصغير نسخة منتخبة ونخبة منتسخة من الإنسان الكبير بمثابة الولد من الوالد، وله أيضاً حقيقة باطنة وصورة ظاهرة، أما حقيقته الباطنة فالروح الجزئي والنفس والطبيعة الجزئيتان[1]، وأما صورة الظاهرة فنسخة منتخبة من صورة العالم، فيها من كل جزء من أجزاء العالم لطيفها وكثيفها قسط ونصيب، فسبحانه من صانع جمع الكل في أحد اجزائه، وقول القائل: وما على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد صادق في حق الكل وإن أراد به شخصاً معيناً، وصورة كل شخص نتيجة صورة آدم وحواءﷺ، ومعناه نتيجة الروح الأعظم والنفس الكلية، والإنسان الكبير هو مظهر الحق المبين، والإنسان الصغير قد يصل إليه بفناء تعيناته ومحو تقيداته، فيصح له حينئذ أن

---

(١) الجزئيان.

يقول بلسان الجمع حاكياً عن الإنسان الكبير ما يستعجم على بعض السامعين:

وإنـي وإن كـنـت ابـن آدم صـورة فـلي فـيه مـعـنى شـاهـد بـأبـوتـي

فافهم ذلك، فإنه أصل كبير يتفرع عليه فهم كثير من الحقائق، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، هذا آخر البحث في النبوة والرسالة في المراتب الثلاث بقدر هذا المقام. وحيث فرغنا من بحث النبوة فالشروع في بحث الإمامة واجب، وهو هذا:

وأما الإمامة

فهي على الإطلاق رئاسة دينية مشتملة على ترغيب عموم الناس في حفظ مصالحهم الدينية والدنيوية، وزجرهم عما يضرهم بحسبهما.

وأما عند أهل الشريعة

فالإمامة عندهم واجبة في الدين عقلاً وشرعاً، كما أن النبوة واجبة في الفطرة والإسلام عقلاً وسمعاً، وأما الوجوب عقلاً فهو أن احتياج الناس إلى إمام واجب العصمة يحفظ أحكام الشرع عليهم ويحملهم على مراعاة أحكامه بالوعد والوعيد وإجراء حدود الدين، كاحتياجهم إلى نبي يشرع لهم الأحكام ويبين لهم الحلال والحرام، واحتياج الخلق إلى استبقاء الشرع كاحتياجهم إلى تمهيده، وإذا كان إرسال النبي واجباً لكونه لطفاً وتمكيناً، كان نصب الإمام أيضاً واجباً لئلا تبطل حجة الله وبيناته، وبوجه آخر: نصب الإمام لطف، واللطف واجب عليه تعالى، فيكون نصب الإمام واجباً، وإنما قلنا إن نصب الإمام لطف لأن اللطف هو ما عنده يختار المكلف الطاعة، أو يكون إلى اختيارها أقرب، ولولاه لما كان ذلك مع تمكنه في الحالين، ولا يكون فيه وجه قبح، ولا شك أن عند وجود الرئيس المهيب النافذ الأمر الأخذ على

يد السفيه للضعيف[1] المنتصف للمظلوم من الظالم يرتفع الفساد كله أو أكثر، فوجب أن يكون وجوده لطفاً كسائر الألطاف، وإنما قلنا إن اللطف واجب على الله تعالى، لأن كلّ ما كان كذلك يجب أن يفعله الحكيم، لأنه لو لم يفعله مع بقاء التكليف، لكن المكلف غير مزاح[2] العلة، فيكون الحق تعالى ناقضاً لغرضه، وهو عليه تعالى محال، وإذا ثبتت المقدمتان ثبت أن نصب الإمام واجب عليه تعالى، هذا من حيث العقل والدلائل العقلية، فأما من حيث النقل والشواهد النقلية فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[النساء/ ٥٩]، ووجه الاستدلال به وهو أنه تعالى أمر المكلفين بطاعة أُولي الأمر، كما أمر بطاعته وطاعة رسوله، وإذا كانت طاعته وطاعة رسوله واجبة، فوجب أن تكون طاعة أُولي الأمر كذلك، لأن حكم المعطوف عليه في الغالب، وإذا ثبت هذا فنقول: لا يخلو إما أن يكون معيناً أو غير معين، والثاني باطل، وإلاّ لزم الإجمال والتعطيل، والأول إما أن يكون ذلك المعين جميع الأمة أو بعض الأمة، والأول باطل بالضرورة، فبقي الثاني، فوجب أن يكون في الأمة شخص معين معصوم لا يجوز عليه الخطأ يسمى بأولي الأمر، وهذا هو المطلوب، فيجب حينئذ أن تكون الإمامة[3] واجبة في الدين عقلاً وشرعاً خلافاً لأكثر الأمة، فإن أكثرهم لا يعدون الإمامة[4] من أركان الدين والإسلام، لقلة دينهم وإسلامهم، ويجوزون أن يكون هذا الشخص المسمى بأولي الأمر سلطان من سلاطين العالم، أو ملك من الملوك موصوف بالظلم والفسق، ولا يجوزون أن يكون إمام معصوم[5]

(١) كذا في النسختين ويمكن أن يكون الضعيف.
(٢) مزاح زاح كشف ـ زال ـ بعد.
(٣) الإمام.
(٤) الإمام.
(٥) إماماً معصوماً.

من أهل البيت عليهم السلام، منصوص[1] عليه من قبل الله وقبل رسوله، ولا يعرفون أن أولي الأمر إذا كان من السلاطين أو الملوك، ويكون سلطنتهم وتملكهم[2] قهراً وغلبة لا يجوز عليه تعالى أن يأمر الخلق بمطاوعتهم[3] وجوباً، لأن الأمر بمطاوعة[4] الظالم أو الفاسق يكون ظلماً وفسقاً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، والذي ذهبت إليه الطائفة الإمامية بأن النبي والإمام يجب أن يكونا معصومين، هذا علته، لأنهما لو لم يكونا معصومين لكان يلزم من الأمر بمطاوعتهما فسق وظلم من الله تعالى، وجل جناب الحق أن يكون متصفاً بهما، وقد عرفت من النقل تنزيهه وتقديسه، وكذلك من العقل، كقولهم: يجب أن يكون الإمام معصوماً من جميع القبائح وكذلك النبي صلى الله عليه وآله، قبل الإمامة وبعدها، لأن العلة في وجوب عصمة النبي والإمام واحد، وإذا كانت عصمة النبي واجبة يجب أن تكون عصمة الإمام كذلك، وأما قولهم في علة عصمة النبي مطلقاً فهو قولهم المتقدم ذكره، يجب أن يكون النبي معصوماً من القبائح كلها صغيرها وكبيرها قبل النبوة وبعدها، عمداً كان أو نسياناً، لأن جواز ذلك عليه ينفر العقل عن متابعته، ولا يليق بالحكيم إيجاب من ينفر العقل عن متابعته، فيجب أن يكون معصوماً من جميع القبائح، وأيضاً هذا الشخص المسمى بأولي الأمر يجب أن يكون في زمان النبي صلى الله عليه وآله معيناً محققاً، حتى لا يلزم الإجمال والتعطيل والعبث من الله تعالى، لأن هذا لو لم يكن معيناً لكان الله تعالى مخلاً بالواجب، وكذلك النبي، وهذا غير جائز باتفاق العقلاء[5]، وأيضاً قد تقرر أن نصب الإمام واجب عليه تعالى، لأن

---

(١) منصوصاً.

(٢) تمكنهم.

(٣) بمتابعتهم.

(٤) بمتابعة.

(٥) العلماء.

الإمام يجب أن يكون معصوماً، والعصمة أمر خفي لا يطلع عليه غير الله، لأنه لا يعلم الغيب إلا الله، فيجب عليه نصبه وتعيينه، وقد عينه في كتابه تعييناً ظاهراً جلياً في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[المائدة/ ٥٥]، لأن الزكاة في الركوع ما أعطى أحد غير أمير المؤمنين علي[1] عليه السلام باتفاق أكثر المفسرين، فيكون هو المراد بأولي الأمر لتعيين الحق عليه لا غير، وكذلك بعده لا يكون إلا أولاده المعصومون، لأن العصمة شرط في الإمامة والولاية: وليس هناك أحد غيرهم يوصف بالعصمة بقول الخصم أيضاً، وإليهم أشارالحق تعالى في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب/ ٣٣]، وكذلك قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[المائدة/ ٥٤]، لأن هذا إخبار عن الاستقبال دون غيره من الأزمان، وكذلك قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[القصص/ ٥]، لأن الإرث النبوي والعلم الإلهي الذي هو الإرث لا يستحقه أحد غيرهم، وعلامة ذلك وصحته قوله تعالى في الآية ضعفهم في زمن المراونة والعباسيين وإلى الآن من كثرة الأعداء وقلة الناصر، لأن المهدي عليه السلام لو لم يكن خائفاً من الأعداء لوجب عليه الظهور، وإلا لكان مخلاً بالواجب، وهذا لا يجوز كما هو مذكور في الكتب الكلامية، وفيهم ورد أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ

---

(١) اسم «علي» ساقط من النسخة الثانية.

ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[التوبة/ ١١١ و١١٢]، لأن استحقاق هذه الأوصاف ليس إلا لهم عند التحقيق، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن والاخبار فاطلبها من مظانها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، هذا ما عند أهل الشريعة في الإمامة وما يتعلق بها.

وأما عند أهل الطريقة

فالإمامة عندهم هي الخلافة من قبل الله ومن القطب الذي يكون في زمانه، والإمام عبارة عن صاحب هذه الخلافة المعبر عنه بالولي، والولي يكون على قسمين، قسم منهما هو الذي تكون ولايته أزلية ذاتية حقيقية يسمى بالولي المطلق، وهو القطب الأعظم، وقسم آخر وهو الذي تكون ولايته مستفادة من ذلك الولي المطلق، أعني كسبية ارثية عارضية ويسمى بالولي المقيد، وهو الإمام أو الخليفة، والقسمان يرجعان إلى حقيقة نبيناﷺ وإلى من يكون ورثة له من أهل بيته، كأمير المؤمنين وأولادهعليهم السلام، وهذا المقام على هذا التقدير يحتاج إلى تعيين ثلاثة أشياء، الأول: إلى تعيين الولاية، والثاني: إلى تعيين الولي المطلق، والثالث: إلى تعيين الولي المقيد.

أما الأول فالولاية عندهم هي التصرف في الخلق بعد فنائهم في الحق وبقائهم به، وليست في الحقيقة إلا باطن النبوة التي ظاهرها الإنباء وباطنها التصرف في النفوس بإجراء أحكام عليها[١]، وحيث إن النبوة مختومة من حيث الأنبياء، إذ لا نبي بعد محمدﷺ، فلم يبق إلا الولاية من حيث التصرف في النفوس أبد الآباد، لأن نفوس الأولياء[٢] من أمة محمدﷺ

---

(١) عليه.

(٢) الأنبياء.

حملة تصرف ولايته، يتصرف بهم في الخلق بالحق إلى يوم القيامة، بل إلى غير النهاية، فباب الولاية مفتوح وباب النبوة مسدود، وعلامة صحة الولي متابعة النبي في الظاهر، لأنهما يأخذان التصرف من مأخذ واحد، إذ الولي هو مظهر تصرف النبي، ولا يتصرف إلا واحداً، ومن هذا تكلم بعض الأتباع عن نفسه بخصائص النبي ﷺ على سبيل الحكاية، فنزل نفسه من النبي بمنزلة الآلة من التصرف نحو قول ابن الفارض رحمة الله عليه:

إلي رسولاً كنت مني مرسلاً وذاتي بآياتي علي استدلت

إلى قوله:

وكلهم عن سبق معناي دائر بدائرتي أو وارد من شريعتي

فكما أن النبوة دائرة متألفة في الخارج من نقط وجودات الأنبياء، وكاملة بوجود النقطة المحمدية، لأنه مثل النبوة بحائط كمل إلا موضع لبنة واحدة وهي وجوده، فالولاية أيضاً دائرة متألفة من الخارج من نقط وجودات الأولياء، كاملة بوجود النقطة التي سيختم بها الولاية، وهو محمد بن الحسن صاحب الزمان، المعبر عنه بالمهدي عليه السلام. كما أشار إليه بعض العارفين بعد قيام العقل والنقل والكشف بصحته، وهو قوله: القطبية الكبرى هي مرتبة قطب الأقطاب، وهو باطن نبوة محمد ﷺ، فلا يكون إلا لورثته، لاختصاصه ﷺ بالأكملية، فلا يكون خاتم الولاية وقطب الأقطاب إلا على باطن خاتم النبوة، وقال أيضاً: خاتم النبوة هو الذي ختم الله به النبوة، ولا يكون إلا واحداً وهو نبينا ﷺ، وكذا خاتم الولاية، وهو الذي يبلغ به صلاح[1] الدنيا والآخرة نهاية الكمال، ويختل بموته نظام العالم وهو المهدي عليه السلام، الموعود في آخر الزمان، وقد قيل في الولاية والولي وجه آخر، وهو: أن الولاية هي قيام العبد الحق عند الفناء عن نفسه، وذلك بتولي

---

(١) خير.

الحق إياه، حتى بلغه غاية مقام القرب والتمكين، والولي من تولى الحق أمره وحفظه عن العصيان، ولم يخله ونفسه بالخذلان، حتى يبلغه في الكمال مبلغ الرجال، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[الأعراف/ ١٩٦]، وقال: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[يوسف/ ١٠١]، والشيخ الأعظم قدس سره قد فصل الولاية تفصيلاً، وقد قسم لها تقسيماً وهو أوضح من ذلك كله، وذلك قوله:

اعلم أن الولاية تنقسم بالمطلقة والمقيدة أي العامة والخاصة لأنها من حيث هي هي صفة إلٰهية مطلقة، ومن حيث استنادها إلى الأنبياء والأولياء مقيدة، والمقيد متقوم بالمطلق، والمطلق ظاهر في المقيد، فولاية الأنبياء والأولياء كلهم جزئيات الولاية المطلقة، كما أن نبوة الأنبياء جزئيات النبوة المطلقة، والنبوة المطلقة ليست إلا للحقيقة المحمدية من حيث الظاهر، والولاية المطلقة إلا لباطنها من حيث الباطن، لكن ظهور ولايته المطلقة مخصوصة بورثته المقيدة من أولاده وأهل بيته من الأئمة المعصومين عليهم السلام، فالنبوة المطلقة كما هي مخصوصة به وبحقيقته بالأصالة، وبعده بالأنبياء والرسل الذين كانوا من مظاهره من آدم إلى عيسى عليه السلام بالإضافة، فالولاية المطلقة تكون مخصوصة بعلي بن أبي طالب عليه السلام وبحقيقته بالوراثة الحقيقية الأزلية الذاتية، وبعده بأولاده المعصومين عليهم السلام بالإضافة إلى أن يختمها الله بالمهدي عليه السلام، وعلة تخصيص الولاية المطلقة بعلي عليه السلام بعد قيام العقل والنقل والكشف بحصته، كما هو مذكور في مواطنه قول النبي صلى الله عليه وآله ثم قول الشيخ الأعظم محيي الدين الأعرابي في مواضع شتى، فالذي ورد بإسناد صحيح عند اخطب خوارزم وأحمد بن حنبل، وهما من أجلاء فقهاء الجمهور وممن يعتمد على روايتهما ونقلهما وما يورداه عندهم وكثير من الصحابة أنه قال: «خلق الله تعالى روحي وروح علي بن أبي طالب قبل أن يخلق آدم بألفي ألف عام» وأما قول الشيخ المقدم ذكره، فالذي ذكره في فتوحاته بعد بحث

طويل فيه وهو قوله مشيراً إلى النبي ﷺ: وكان سيد العالم بأسره، وأول ظاهر في الوجود، وكان وجوده من ذلك النور الإلهي، ومن الهباء، ومن الحقيقة الكلية، وفي الهباء وجد عينه وعين العالم بجملته، وأقرب الناس إليه علي بن أبي طالب وأسرار الأنبياء أجمعين[١].

وأما الثاني والثالث من التقسيم المذكور أعني تعيين خاتم الأولياء مطلقاً بالولاية المطلقة، وتعيين خاتم الأولياء مقيداً بالولاية المقيدة، فذلك يعرف من الأبحاث المذكورة الآن، ويحتاج إلى بسط وتفصيل مرة أخرى، فالولي والإمام عند أهل الطريقة هو الولي المقيد والإمام التابع للولي المطلق، كما أن النبي عندهم هو النبي المقيد والرسول التابع للنبي المطلق، وهذا هو المقصود من هذا البحث، ليطابق ترتيب النبوة ترتيب الولاية، وترتيب المطلق ترتيب المقيد، والله أعلم وأحكم، وهو يقول الحق وهو يهدي السبيل، هذا ما عند أهل الطريقة في الإمام والولي.

وأما عند أهل الحقيقة

فالإمام والولي عندهم الإمام الأعظم والولي المطلق، المعبر عنه بالقطب وإمام الأئمة الذي يكون عليه مدار الوجود وقيام الشريعة والطريقة والحقيقة، وإليه يرجع مراتب الكل[٢] من النبي والرسول والولي، وإليه أشار الشيخ الأعظم قدس سره في فصوصه بعد كلام طويل بقوله: وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء، وما يراه أحد من الأنبياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الختم، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولي الختم، حتى أن الرسل لا يرونه متى رأوه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فإن الرسالة

---

(١) وفي الفتوحات: علي بن أبي طالب إمام العالم وسر الأنبياء أجمعين ج١، ص١٥٤.

(٢) كل.

والنبوة أعني نبوة التشريع ورسالته ينقطعان، والولاية لا تنقطع أبداً، فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فكيف من دونهم من الأولياء، وإن كان خاتم الأولياء تابعاً في الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع، فذلك لا يقدح في مقامه ولا يناقض ما ذهبنا إليه فإنه من وجه يكون أنزل، كما أنه من وجه يكون أعلى، وقال بعد كلام يسير بعده: فكل نبي من لدن آدم إلى آخر نبي، ما منهم أحد يأخذ إلا من مشكاة خاتم النبيين وإن تأخر وجود طينته، فإنه بحقيقته موجود، ولهذا قيل: فهو المعطي لجميع الأنبياء والرسل والأولياء مقاماتهم في عالم النور وفي عالم الأرواح وفي عالم المثال، وقوله عليه السلام: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» وغيره من الأنبياء ما كان نبياً إلا حين بعث، وكذلك خاتم الأولياء كان ولياً وآدم بين الماء والطين، وغيره من الأولياء ما كان ولياً إلا بعد تحصيله شرائط الولاية من الأخلاق الإلهية والاتصاف بها من كون الله يسمى بالولي الحميد، فخاتم الرسل من حيث ولايته نسبته مع الخاتم[1] للولاية نسبة الأولياء والرسل معه، فإنه الولي، والرسول النبي وخاتم الأولياء الولي الوارث الآخذ عن الأصل، الشاهد للمراتب، وهو حسنة من حسنات خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وآله مقدم الجماعة وسيد ولد آدم في فتح باب الشفاعة.

وهذا الكلام بعد دلالته على وجود خاتم الأولياء وصدق جميع ما قلناه في هذا الباب دال على أن خاتم الأولياء مطلقاً أمير المؤمنين علي عليه السلام، لأنه قيده بحسنة من حسنات سيد المرسلين، وليس حسنة سيد الرسل[2] على الوجه الذي ذكروا الشراح[3] في شروحهم للفصوص إلا هو، وحيث عرفت بحث الإمامة من طريق الطوائف الثلاث فلنشرع في بحث المعاد الذي هو

(١) الخاتم في النسختين ولكن الفصوص كان الخاتم.

(٢) المرسلة.

(٣) الشراح للفصوص في شروحهم. [والصحيح ذكر الشرّاح (العاملي)].

آخر أصل من الأصول الخمسة على ما شرطناه، وبالله التوفيق.

وأما المعاد

فاعلم أن المعاد مطلقاً عبارة عن رجوع العالم وما فيه إلى ما صدر منه[1] صورة ومعنى في المراتب والقيامات الثلاث التي هي الصغرى والوسطى والكبرى آفاقاً وأنفساً، وهي تصل بحسب التفصيل إلى اثنتي عشرة قيامة صورية ومعنوية، محتوية على الصغرى والوسطى والكبرى، وترتيب ذلك وهو أن تعتبر في الآفاق ثلاث قيامات صورية، وكذلك ثلاث قيامات معنوية، وكذلك في الأنفس، فتكون اثنتي عشرة قيامة ضرورة، ونحن نبين لك تفصيل ذلك في هذا المقام اختصاراً، لأن هذا المكان لا يحتمل أكثر منه، وإذا عرفت هذا فلنشرع فيها أولاً من حيث الشريعة، ثم من حيث الطريقة، ثم من حيث الحقيقة كما شرعنا في الأصول الأربعة المذكورة كذلك، وهو هذا:

أما معاد أهل الشريعة

فالمعاد عندهم عبارة عن جمع أجزاء بدن الميت وتأليفها مثل ما كان، وإعادة روحه إليه، وهذا هو المعبر عنه بحشر الأجساد، وهذا ممكن، والله تعالى قادر على كل الممكنات وعالم بها، والجسم قابل للتأليف، فيكون قادراً وهو المطلوب، وبنوا على هذا مقدمات عقلية، منها أن الله تعالى خلق الإنسان وأعطاه العلم والقدرة والإرادة والإدراك والقوى المختلفة، وجعل زمام الاختيار بيده، وكلفه بتكليف شاق، وخصصه بألطاف خفية وجلية، لغرض عائد إليهم. وليس ذلك إلا نوع كمال لا يحصل إلا بالكسب إذ لو أمكن بلا واسطة لخلقهم عليه ابتداء، ولما كانت الدنيا هي دار التكليف فهي دار الكسب، يعمر الإنسان فيها مدة يمكن تحصيل كماله فيها، ثم يحول إلى

---

(١) عنه.

دار الجزاء وتسمى دار الآخرة، ومنها أن الأنبياء بأسرهم أُخبروا بحشر الأجساد، وهو موافق للمصلحة الكلية، فيكون حقاً لعصمتهم واستحالة صدور الكذب عنهم، وكذلك الجنة والنار المحسوستان كما وعدوا به حق، لإمكانها وإخبار الصادق بها، ومنها ما قالوا في جواب قوم قالوا إعادة المعدوم محال وإلا لزم تخلل العدم في وجود واحد، فيكون الواحد اثنين، وهو قولهم: ولما كان حشر الأجساد حقاً وجب أن لا يعدم اجزاء أبدان المكلفين وأرواحهم، بل بتبدل التأليف والمزاج والفناء المشار إليه في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[الرحمن/ ٢٦ و٢٧]، كناية عنه، ومنها ما قالوا في جواب قوم قالوا حقيقة الإنسان عرض، وهو قولهم الذي يشير إليه الإنسان حال قوله: أنْ لو كان عرضاً لاحتاج إلى محل يتصف به، لكن لا يتصف شيء بالإنسان بالضرورة، بل يتصف هو بأوصاف غيره، فيكون جوهراً، ولو كان هو البدن أو شيئاً من جوارحه لم يتصف بالعلم، لكنه يتصف به بالضرورة، فيكون جوهراً عالماً، والبدن وسائر الجوارح آلاته في أفعاله، وذلك هو المسمى بالروح في الشرع الإلهي، ومع ذلك كله قد اختلف الناس فيه اختلافاً شديداً، فالدهرية أنكروه وقالوا الإنسان ينعدم بموته، فلا يكون له عود إلى الوجود. والقائلون بأن المعدوم شيء قالوا: بأنه ينعدم بموته ثم يعود إلى الوجود، وحينئذ يثاب أو يعاقب، أما انعدامه فلقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، وأما عوده فلوجوب كونه مثاباً أو معاقباً في الآخرة كما أخبر به الكتاب الكريم في مواضع كثيرة، والنفاة القائلين بكونه جسماً قالوا: افناؤه وهلاكه عبارة عن تلاشي أجزائه واضمحلال أعضائه كالتركيب وغيره، وإعادة جميع أجزائه وإحداث أعراض فيه مثل ما كانت قبل موته، وهذا هو الحق من الأقوال المذكورة عندهم، والقول بالأجزاء الأصلية والحكم بالتأليف بعد التبديل، وإن النفس جوهر بسيط، أولى وأنسب من غيره بأن صاحبه يخلص من جميع الشبهات

والاعتراضات، وأكثر هذه الدلائل منقولة من كلام خواجه نصير الدين الطوسي رحمة الله عليه من الفصول في الأصول وغيره، وذكر فيه أيضاً شبهة للفلاسفة وقام بجوابهم، نذكره هاهنا ونقطع هذا البحث عليها وهو قوله: قالت الفلاسفة حشر الأجساد محال، لأن كل جسد اعتدل مزاجه واستعد، استحق فيضان النفس من العقل الفعال، فلو اتصفت أجزاء بدن الميت بالمزاج، لاستحق نفساً من العقل، وأعيد إليه نفسه الأول على قولكم، فيلزم اجتماع نفسين على بدن واحد وهو محال، ونحن لما أثبتنا الفاعل المختار وأبطلنا قواعدهم لم نحتج إلى جواب هذه الهذيانات، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، هذا ما عند أهل الشريعة في المعاد.

وأما معاد أهل الطريقة

فالمعاد عندهم بعد اعتقادهم في المعاد المذكور عبارة عن عود مظاهر بعض الأسماء إلى مظاهر أسماء أُخر، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾[مريم/ ٨٥].

اعلم أن القيامة والمعاد اجمالاً عبارة عن ظهور الحق بصور اسمي الباطن والآخر مع أسماء أخر كالعدل والحق والمحيي[١] والمميت[٢]، كما أن الدنيا والمبدأ عبارة عن ظهوره بصورة اسمي الظاهر والأول مع أسماء أخر كالمبدىء والموجد والخالق والرزاق وأمثالها، وذلك لتوفية حقوق كل اسم من أسمائه الغير المتناهية، لأن ظهوره بصور الأسماء مطلقاً المسمى بالخلق والعالم المشار إليه في قوله: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق» لم يكن إلا لذلك، أي عن توفية حقوق كل اسم من أسمائه، وقد تقرر عند أهل الله وخاصته، أن أسماءه بحسب الجزئيات والأشخاص غير

---

(١) الماحي.

(٢) المميت.

متناهية، وإن كان بحسب الكليات والأنواع متناهية، فيجب أن يكون دائماً متجلياً بصور اسمائه وصفاته دنيا كان أو آخرة، ولهذا ذهب بعض العارفين إلى أن الدنيا والآخرة مظهران من مظاهره، فيجب أن تكونا دائماً واقعتان غير موقوفتان[1] على زمان وآن، فإن المظاهر يستحيل رفعها عن الوجود، والمراد من ذلك أن القيامة عبارة عن تغيير عالم الظاهر وتبديله ورجوعه إلى الباطن دائماً، كما أن الدنيا عبارة عن ظهور الباطن بصور الظاهر دائماً ورجوعه إليه كذلك، لأن الأسماء وإن كانت كثيرة لكن لا يخرج حكمها عن هذه الأربع، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، فإن الأول والظاهر وأخواتها من قبيل الدنيا والمرتبة المبدائية[2]، والباطن والآخر وأخواتها من قبيل الآخرة والمرتبة النهائية، وهذا النظر وإن كان جائزاً بوجه لكن هو غير جائز بوجه آخر، والحق في ذلك والذي نحن بصدده وهو أن لكل اسم من أسماء الله تعالى اقتضاء واحكام، فالآخرة من اقتضاء الاسم القهار والواحد والأحد والصمد والفرد والمعيد والماحي والمميت وغير ذلك، كما أن الدنيا من اقتضاء الاسم الظاهر والمبدىء والأول والموجد وغير ذلك، وأن كل واحد منها نفس الآخر عند التحقيق، لأن المغايرة في الأحكام والأثر، لا في الذات والحقيقة، والحق تعالى جل ذكره عن هذا الإبداء والإعادة والظهور والبطون والعروج والنزول والكثرة والوحدة والدنيا والآخرة عبر في القرآن الكريم بالأمر في مواضع منها، قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[السجدة/ ٥]، ومنها قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[المعارج/ ٤]، وتوجيه ذلك وهو أن سير الكواكب السبعة بعضه بالاشتراك وبعضه بالانفراد، فالذي بالانفراد خاصة وهو ألف سنة لكل كوكب منها، والذي بالاشتراك وهو سبعة آلاف

---

(١) غير موقوفتين(العاملي).

(٢) المبدئية (العاملي).

سنة يحصل على الحساب الهندسي، وضرب السبعة في السبعة، تسع وأربعون سنة يكون تكميلها بإضافة الكبيسيات إليه في هذه المدة التي هي الألف، فتخرج خمسين ألف سنة كاملة، وهذه تسمى بالقيامة العظمى، والسبعة المخصوصة بكل واحدة من الكواكب القيامة الوسطى، والألف الخاص يشير بالخاص إلى القيامة الصغرى، وإذا عرفت هذا فاعلم أن الغرض من مجموع هذه الأبحاث أن يتحقق عندك وعند غيرك أن الحق تعالى عبر بالأمر عن مجموع هذا العروج والنزول والظهور والبطون والابداء والإعادة لقوله أيضاً غير ما سبق: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾[الطلاق/ ١٢]، ولقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[الرعد/ ٢] ليعلم أن هذا الأمر المعبر عنه بهذا المجموع راجع إليه دائماً على الوجه الذي قررناه، لأن الدنيا والآخرة مظهران من مظاهر الكلية كالمائة والألف بالنسبة إلى الواحد في مراتب الأعداد وظهوره بها، فإن الألف والمائة من أعظم مظاهر الواحد في مراتب الأعداد، لكن ليس انحصاره في مراتب الاعداد محصورة فيهما، لأن ظهوره في الاعداد بحسب الكلي ينحصر في مثل هذا، وإلا من حيث الجزئي فغير منقطع أزل الآزال وأبد الآباد، وكذلك الحق ومظاهره، فإن الدنيا والآخرة وإن كانتا من أعظم مظاهره، لكن ليس ينحصر ظهوره فيهما، لأن ظهوره فيهما وفي أمثالهما ينحصر من حيث الكلي، وأما من حيث الجزئي فغير منقطع أزل الآزال وأبد الآباد، وعلى جميع التقادير لا بد من رجوع المظهر إلى الظاهر في موطني الدنيا والآخرة، المشتملان على مواطن غير متناهية، وهذا هو حقيقة المعاد لا غير، أعني رجوع المظهر إلى الظاهر، والمحاط إلى المحيط، وعن هذا عبر أيضاً بالتقدير والشأن في قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[يس/ ٣٨]، وفي قوله:

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[الرحمن/ ٢٩]، وتقديره وهو أنه كل يوم من أيامه الألوهية التي هي خمسين ألف سنة، أو من أيام الدنيا التي هي سبعة آلاف سنة في شأن من هذه الشؤون وأمر من هذه الأمور الذي هو استيفاء حقوق كل اسم من أسمائه في صورة مظهر من مظاهره ومرتبة من مراتبه في مواطن النزول والعروج والظهور والبطون، وذلك لأن الأكوان مظاهر الأفعال. والأفعال مظاهر الصفات، والصفات مظاهر[1] الأسماء، والأسماء مظاهر الذات وكمالاتها الذاتية الغير المتناهية، وحيث تقرر أن الأفعال والصفات والأسماء والكمالات غير متناهية، تقرر أن الرجوع والعود لا يكون إلا كذلك، لكن من حيث الجزئيات لا الكليات، لأن الجزئي مثلاً إذا عاد إلى الكلي أو المركب إلى البسيط، يجوز عود الجزئي إلى الكلي والمركب إلى البسيط مرة أخرى من غير توهم قدم في شيء من المحدثات والممكنات، أو توهم نقص في الشرعيات والنقليات، فإن اندراج بعض الأسماء في البعض الآخر أو اندراج بعض المظاهر في البعض الآخر لا يكون سبباً لذلك أصلاً، والباقي باق في الأزل، والفاني فان لم يزل، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق/ ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[هود/ ١٠٣ ـ ١٠٨]، برهان قاطع على صدق هذا المعنى وإثبات القيامات الثلاث على الوجه المذكور، وما يعرف ذلك إلا من يعرف معنى قوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ﴾ وهاهنا أيضاً أسرار

---

(١) مظاهر الذات والأسماء مظاهر الذات.

كثيرة، لبها وخلاصتها ما جرى ذكرها من قبل، وإذا عرفت هذه الضوابط كلها وتحققت معنى العود الحقيقي والرجوع الكلي الأسمائي فاعلم:

إن للأسماء الإلهية أحكاماً وآثاراً، أولها أيضاً دول ودورات وابتداء وانتهاء، وبيان ذلك مفصلاً، وهو أن العقل الصحيح يحكم بأن حكم الاسم الضار غير حكم الاسم النافع، وأثر الاسم المحيي غير أثر الاسم المميت، ودولة الاسم الهادي غير دولة الاسم المضل، وكذلك الأول والآخر والظاهر والباطن إلى غير ما لا يتناهى من الأسماء المتقابلة، فكما أن الدنيا من اقتضاء اسم[1] الأول والظاهر وأخواتها، فالآخرة[2] من اقتضاء اسم[3] الآخر والباطن وأخواتها[4]، فكما أن وجود الدنيا وظهور أحكامها كان واجباً في الحكمة الإلهية بمقتضى الأسماء المتعلقة بها، فكذلك وجود الآخرة وظهور أحكامها، فإنما يكون واجبة أيضاً في الحكمة الإلهية بمقتضى الأسماء المتعلقة بها كما مر ذكرها، وهذا ضابط كلي يعرف منه ضوابط كثيرة، ومع ذلك كله نمثل لك مثالاً في هذا المعنى يسهل عليك إدراك هذا السر سريعاً وهو:

إن الوجود وسلطنته الحقيقية المعنوية واقعة على ترتيب السلطنة الصورية المجازية، أعني كما أن السلطنة الصورية مترتبة على السلطان والوزير والأمير والجنود والرعايا وغير ذلك من التوابع، فكذلك السلطنة الحقيقية، فإنها أيضاً مترتبة على ذلك كله، فالأسماء الذاتية كالوزير، والصفاتية كالأمير، والفعلية كالجنود، وما يحصل من تركيب كل واحد منها كالرعايا، فكما أن كل شخص من أعوان السلطنة الصورية فهو مخصوص بأمر لا يشاركه غيره،

---

(١) الاسم.
(٢) فكذلك الآخرة.
(٣) الاسم.
(٤) «وأخواتها» ساقطة من النسخة الثانية.

فكذلك كل اسم من أسماء السلطان الحقيقي وسلطنته الحقيقية فإنه مخصوص بأمر لا يشاركه غيره. وعلى هذا التقدير كل موجود من الموجودات الخارجية يكون مظهراً لاسم من أسمائه تعالى، ومحلاً لأثره وحكمه، لا يكون رجوعه إلا إليه، لأن ذلك الاسم هو ربه، وهو مربوب له كما سبق ذكره، ويشهد بذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾[مريم/ ٨٥] ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[النجم/ ٤٢]، وإن كان في الحقيقة لا يكون رجوع الكل إلا إلى الله كرجوع كل الرعية إلى السلطان المجازي عند التحقيق مع وجود الوزير والأمير والحاجب والنائب وتعلق كل واحد منهم بهؤلاء، وبيان ذلك مرة أخرى، وهو أنه إذا جاء شخص مثلاً إلى السلطان المجازي وطلب منه إنعاماً، فإنعامه لا بد وأن يكون على يد خازن من خزانه، وكذلك الذي يجيء إليه ويطلب حكم مدينة، فإنه لا يكون رجوعه إلا إلى الوزير، وكذلك الذي يطلب منه النصرة والغلبة على عدوه أو ظالم من الظلمة، فإن رجوعه لا يكون إلا إلى أمير من أمرائه، وكذلك إلى ما لا نهاية له من الأعوان والأجناد والرعايا، لأن أمور السلطنة وانتظامها ما يجري بدون هؤلاء، فإن الكل من حيث الكل لا ينتظم إلا بالكل، فكذلك السلطان الحقيقي، فإن الفقير إذا توجه إليه أو إلى حضرته وقال يا الله وطلب المال، لا بد وأن يكون رجوعه إلى الاسم الغني، وكذلك المريض إذا توجه وقال يا الله وطلب الصحة، فإنه لا بد وأن يكون رجوعه إلى الاسم الشافي، وكذلك الضال إذا توجه وقال يا الله وطلب الهداية، لا بد وأن يكون رجوعه إلى الاسم الهادي، وكذلك إلى ما لا يتناهى من الأسماء[1]، فإن أمر السلطنة الحقيقية من حيث السلطنة لا ينتظم إلا بهذا كما قيل:

ما الكل مفتقر ما الكل مستغن	هذا هو الحق قد قلناه لا تكني
فالكل بالكل مربوط وليس له	عنه انفصال خذوا ما قلته عني

---

(١) «من الأسماء» ساقطة من النسخة الثانية.

وإن حقق عرف أن قولهم: إن للربوبية سراً لو ظهر لبطلت الربوبية هذا معناه، لأن الربوبية أمر لا ينتظم إلا بالمنتسبين، وأحد المنتسبين اسماء والآخر أعيان، والأعيان معدومة في نفس الأمر، موجودة بالاعتبار، وكل أمر ينتظم بالمعدوم فهو يكون غير منتظم في الحقيقة، وذلك لأن الربوبية موقوفة على المربوب، والمربوب على الرب، فلو فرض عدم المربوب لم يطلق الربوبية مع أن يكون الرب موجوداً، وكذلك بالعكس، وإن كان هذا الفرض محالا[1]، وفي بيان هذا السر قال بعض العلماء: سر الربوبية هو توقفها على المربوب، لكونها نسبة لا بُد لها من المنتسبين، واحد المنتسبين هو المربوب، وليس إلا الأعيان الثابتة في العدم، والموقوف على المعدوم معدوم. وذلك لبطلان ما يتوقف عليه، وقيل أيضاً بعكس ذلك وهو قولهم: سر[2] الربوبية هو ظهور الرب بصور الأعيان، فهو من حيث مظهريتها للرب القائم بذاته، الظاهر بتعيناته، قائمة به، موجودة بوجوده، فهي عبيد مربوبون من هذه الحيثية، والحق رب لها، فما حصلت الربوبية في الحقيقة إلا بالحق، والأعيان معدومة بحالها في الأزل، فلسر[3] الربوبية سر به ظهرت ولم تبطل، وهاهنا أسرار دقيقة، والكل راجع إلى ما قلناه: إن المعاد عبارة عن رجوع كل مظهر إلى اسمه الذي ظهر فيه بالحكم والأثر[4]، وإذا عرفت هذا في صورة المثال مرة غير أخرى فنرجع إلى الغرض ونقول: مع أنه كذلك، أي مع أن الأمر على هذه الصورة في الأسماء ومظاهرها، لكن للأسماء دول ودورات وآثار وأحكام يجوز أن يكون مظهر بعض الأسماء مغلوباً بالنسبة إلى البعض الآخر، وكذلك أحكامه ودورانه، فظهور القيامة من

---

(١) في النسخة الثانية محال.

(٢) أسرار.

(٣) ولسر.

(٤) «بالحكم والأثر» ساقطة من النسخة الثانية.

مغلوبية الأسماء المتعلقة بالدنيا، وغلبة الأسماء المتعلقة بالآخرة، وقس على هذا جميع الأسماء في جميع الأوقات، وقد أشار إلى هذا بعض العلماء العارفين بعبارة موجزة، نذكرها ونرجع إلى غيرها، وهي هذه:

اعلم أن أسماء الأفعال بحسب أحكامها ينقسم أقساماً، منها أسماء لا ينقطع حكمها ولا ينتهي أثرها أزل الآزال وأبد الآباد، كالأسماء الحاكمة على الأرواح القدسية والنفوس الملكوتية وعلى ما لا يدخل تحت الزمان من المبدعات وإن كانت داخلة تحت الدهر، ومنها ما لا ينقطع حكمه أبد الآباد وإن كان منقطع الحكم أزل الآزال، كالأسماء الحاكمة على الآخرة، فإنها أبدية كما دلت الآيات على خلودها وخلود أحكامها وغير أزلية بحسب الظهور، إذ ابتداء ظهورها من انقطاع النشأة الدنياوية، ومنها ما هو مقطوع الحكم أزلاً ومتناه[1] الأثر أبداً، كالأسماء الحاكمة على كل ما لا يدخل تحت الزمان وعلى النشأة الدنياوية، فإنها غير أزلية ولا أبدية بحسب الظهور، وإن كانت نتائجها بحسب الأخرية[2] أبدية وما ينقطع أحكامه، إما أن ينقطع مطلقاً ويدخل الحاكم عليه في الغيب المطلق الإلهي كالحاكم على النشأة الدنياوية، وإما أن يستتر ويختفي[3] تحت حكم الاسم الذي يكون أتم حيطة منه عند ظهور دولته، إذ للأسماء دول بحسب ظهوراتها وظهور أحكامها، وإليها يستند أدوار الكواكب السبعة التي مدة كل دورة منها ألف سنة، والشرائع[4]، إذ لكل شريعة اسم من الأسماء يبقى ببقائه ودولته، ويدوم بدوام سلطنته وينسخ بعد زوالها، وكذلك التجليات الصفاتية، إذ عند ظهور صفة[5]

---

(١) متناهي.

(٢) الآخرة.

(٣) فيختفي.

(٤) أي إليها أي إلى الأسماء يستند أدوار الكواكب السبعة والشرائع.

(٥) كذلك في النسختين ويمكن أن يكون عند ظهور صفة ما يختفي والله أعلم.

ما منها يختفي أحكام غيرها تحتها، وكل واحد من الأقسام الأسمائية يستدعي مظهراً يظهر أحكامها وهي الأعيان، فإن كانت قابلة لظهور الأحكام الاسمائية كلها، كالأعيان الإنسانية كانت في كل آن مظهراً لشأن من شؤونها، وإن لم تكن قابلة لظهور أحكامها كلها، كانت مختصة ببعض الأسماء دون البعض كأعيان الملائكة، ودوام الأعيان في الخارج وعدم دوامها فيه دنيا وآخرة راجع إلى دوام الدول الأسمائية وعدم دوامها، فافهم، وبالله التوفيق، وإذا تحقق هذا فلنشرع في تقسيم المعاد الصوري والمعنوي بالنسبة إلى أهل الطريقة، ثم بالنسبة إلى أهل الحقيقة في مراتب القيامات الثلاث المذكورة من القيامة الصغرى والوسطى والعظمى، وهو هذا:

أما القيامة الصغرى المعنوية بالنسبة إلى أهل الطريقة

فهي عبارة عن الانتباه والقيام بعد الموت الإرادي الاختياري بحكم قول النبي ﷺ: «موتوا قبل أن تموتوا» وحكم قول الحكيم: مت بالإرادة تحيا بالطبيعة، وقوله عليه السلام: من مات فقد قامت قيامته، يعضد الكل صورياً كان الموت أو معنوياً، وهذا الموت عندهم على أربعة أقسام، وهي الأحمر والأبيض والأخضر والأسود، وأما مطلق الموت فهو عبارة عن قمع هوى النفس، فإن حياتها به، ولا تميل إلى لذاتها وشهواتها ومقتضيات الطبيعة البدنية إلا به، وإذا مالت إلى الجهة السفلية جذبت القلب الذي هو النفس الناطقة إلى مركزها، فيموت عن الحياة الحقيقية العلمية التي له بالجهل، فإذا ماتت النفس عن هواها بقمعه، انصرف القلب بالطبع والمحبة الأصلية إلى عالمه عالم القدس والنور والحياة الذاتية التي لا تقبل الموت أصلاً، وإلى هذا الموت والحياة أشار الحق تعالى في قوله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[الأنعام/ ١٢٢] الآية، ومعناه أو من كان ميتاً بالجهل فأحييناه بالعلم وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس عالماً كاملاً حياً بالحياة الأبدية كمن هو في ظلمات الجهل بعد، وما

خرج منها، وبل لا يمكن إخراجه منها ما دام هو موصوفاً بالصفة المذكورة، وقال جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: الموت هو التوبة، قال الله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[البقرة/ ٥٤]، فمن تاب فقد قتل نفسه، وإلى هذا أشار جل جلاله بقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[آل عمران/ ١٦٩، ١٧٠]، ولهذا لما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله من جهاد الكفار قال: «رجعنا من الجهاد[١] [الأصغر] إلى الجهاد الأكبر» قالوا[٢]: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر، قال: «جهاد النفس الذي هو مخالفتها في هواها ومقتضياتها» وورد عنه عليه السلام: «المجاهد من جاهد نفسه» لأن من مات عن هواه فقد أحيى[٣] بهداه، أي حيي بهداية[٤] عن الضلالة وبمعرفة[٥] عن الجهالة، وهذا هو الموت المسمى عند القوم بالموت الأحمر من الموتات الأربعة، وقد سموه أيضاً بالموت الجامع لجميع الموتات، لأنه إذا حصل حصل[٦] الموتات بأقسامها، وفيه قيل:

اقتلوني يا ثقاتي إن في قتلي حياتي ومماتي في حياتي وحياتي في مماتي

ونسبته إلى الأحمر لوجهين، الأول أن القتل يلازمه الدم فنسبوه إليه، والثاني لاحمرار الوجه بالنور الإلهي بعده، وأما الموت الأبيض فهو عبارة عن الجوع، لأنه ينور الباطن ويبيض وجه القلب، فإذا لم يشبع السالك، بل لا يزال جائعاً مات[٧] الموت الأبيض فحينئذ تحيا فطنته، لأن البطنة تميت الفطنة، فمن ماتت بطنته حييت فطنته، وأما الموت الأخضر فهو عبارة عن

---

(١) جهاد.
(٢) قال.
(٣) حيي.
(٤) بهداة.
(٥) بمعرفته.
(٦) «حصل» ساقطة من النسخة الثانية.
(٧) كذا في النسختين يمكن أن يكون إذا مات بموت الأبيض.

لبس المرقع الملقاة التي لا قيمة لها، فإذا قنع من لباس الجميل بذلك واقتصر على ما يستر العورة وتصح فيه الصلاة فقد مات بالموت[1] الأخضر، لاخضرار عيشه[2] بالقناعة ونضارة وجهه بنضرة الجمال الذاتي الذي حيي به، واستغنى عن التجميل العارض كما قيل:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

وأما الأسود فهو عبارة عن احتمال أذى الخلق، لأنه إذا لم يجد في نفسه حرجاً عن أذاهم ولم يتألم به لم يكن محباً حقاً، بل يلتذ به، لكونه يراه من محبوبه، وكلّ ما صدر من المحبوب حسناً كان أو قبيحاً محبوب، لقولهم: كلّ ما فعل المحبوب محبوب، وكما قيل:

أجد الملامة في هواك لذيذة
حباً لذكرك فليلمني اللوم
شبهت[3] اعدائي فصرت أُحبهم
إذ كان حظي منك حظي منهم
وأهنتني فأهنت نفسي عامداً
ما من يهون عليك ممن يكرم

فقد مات الموت الأسود وهو الفناء في الله لشهوده الأذى منه برؤية فناء الأفعال في فعل محبوبه بل برؤية نفسه، وأنفسهم فانين في المحبوب، وحينئذ يحيا بوجود الحق من امداد حضرة الوجود المطلق، والجنة الحاصلة من هذه القيامة بعد الموت المذكور تسمى جنة نفسانية لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[النازعات/ ٤٠]، ووصفها

---

(١) الموت.

(٢) عيشته.

(٣) اشبهت.

بأن فيها ما تشتهي[1] الأنفس وتلذ الأعين، لأنها محسوسة وفيها المآكل والمشارب المحسوستان من غير انقطاع، ولهذا قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾[البينة/ ٨]، رزقنا ورزقك الله الوصول إليها، ومن هذا لا يقبل الحصر والعد لقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ﴾[إبراهيم/ ٣٤].

وأما القيامة الوسطى المعنوية بالنسبة إلى أهل الطريقة

فهي عبارة عن موت الإنسان من الأخلاق الذميمة والملكات الردية والأوصاف الغير الجميلة وحياته بالأخلاق الحميدة والملكات الفاضلة الكريمة، والاتصاف[2] بالصفات الجميلة التي هي المقصود بالذات من بعثة الرسل لقول النبيﷺ: «أُوتيت جوامع الكلم، وبعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، ولقوله أيضاً «تخلقوا بأخلاق الله».

ثم اعلم بعد ذلك أنه لو كان نعمة أعظم من نعمة الأخلاق والاتصاف بها، لمنّ الله بها على نبيه كما من عليه بالأخلاق لقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم/ ٤]، وسبب ذلك أن التخلق بأخلاق الله والاتصاف بصفاته موجب للسعادة الأبدية، والوصول إلى الحضرة الصمدية، وليس يمكن تحصيلهما بدون الوسيلة إليها، ولهذا أمرنا بأن نتصف بصفات الله ونتخلق بأخلاقه، والدليل على ذلك أيضاً قوله: لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن، لأنه إخبار بأنه لا يمكن الوصول إليه إلا من جهة القلب إذا اتصف بصفاته وتخلق بأخلاقه، ومن هذا ورد أيضاً قلب المؤمن عرش الله[3]، وقلب المؤمن وكر الله، وقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن، لأن الكل إشارة إليه، أي إلى الاتصاف بصفات الله والتخلق

---

(١) تشتهيه.

(٢) الأوصاف.

(٣) كذا في النسختين والظاهر الرحمن.

بأخلاقه، لأن استعداد ذلك كما أنه ليس في الوجود إلا الإنسان الذي هو بمثابة القلب في العالم، ليس في الإنسان إلا القلب[1] الذي هو بمثابة الإنسان في العالم، كما يشهد بصحة الأول قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ. . .﴾[الأحزاب/ ٧٢] الآية، وبالثاني قوله: لا يسعني أرضي ولا سمائي. الحديث، والجنة الحاصلة من هذه القيامة بعد الموت المذكور يسمى جنة روحانية، مخصوصة بالوارثين من عباده، المشار إليهم في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ - إلى قوله - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون/ ١ - ١١]، لأن الإنسان إذا تبدلت أخلاقه الذميمة بالأخلاق الحميدة، وخرجت نفسه عن دركات الظلمات الطبيعية، وخلصت عن مرديات الأخلاق الردية، وتهذبت بالأوصاف الجميلة الملكية، وصارت موصوفة بالتسوية والتحلية، المعبر عنها بالاعتدال الحقيقي، واستعدت للاتصاف بالصفات الربانية والأخلاق الإلٰهية وقامت بعد ذلك كله بالأعمال الشرعية والوظائف الدينية، دخلت الجنة المعنوية قبل دخولها الجنة الصورية، وصارت هذه الجنة مضافة إلى الجنة المذكورة المسماة بالجنة النفسانية، وصار صاحب الجنتين ومالك المرتبتين لقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن/ ٤٦]، أي الجنة النفسانية والجنة الروحانية وبيان ذلك مفصلاً.

بوجه آخر، وهو أن النفس إذا ارتاضت بالرياضة الحقيقية المبنية على العلم الحقيقي والعمل المطابق له، وصَفَت عن الرذائل كلها، سيما عن السبع التي هي رئيسها وأصولها كالعجب والكبر والبخل والحسد والحرص والشهوة والغضب، صار متصفة بمحاسن الأخلاق كلها، خصوصاً بالسبع التي هي

---

(١) للقلب.

رئيسها وأصولها كالعلم والحكمة والحلم والتواضع والجود والعفة والشجاعة، وحصلت لها بواسطتها مرتبة العدالة التي هي نهاية مراتب الكمال في السلوك إلى الله بالنسبة إلى الإنسان، ونظراً إلى هذا الترتيب والتقسيم أشار الكتاب الكريم إلى أبواب الجحيم ومراتبها بالسبعة لقوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[الحجر/ ٤٤]، المسماة في التنزيل بجهنم ولظى والحطمة وسقر والجحيم والسعير والهاوية، وورود في الخبر أن علياًعليه السلام سئل عن معنى قوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[الحجر/ ٤٤] فقال لأصحابه: أتدرون كيف أبواب النار، قالوا: كنحو هذه الأبواب، قال: لا، ولكنها هكذا، ووضع إحدى يديه فوق الأخرى، وإن الله تعالى وضع الجنان على العرض لقوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[آل عمران/ ١٣٣]، ووضع النيران بعضها فوق بعض، فأسفلها جهنم للمنافقين، وفوقها لظى للمشركين من العرب، وفوقها الحطمة للمجوس، وفوقها سقر للصابئين، وفوقها الجحيم للنصارى، وفوقها السعير لليهود وفوقها الهاوية[١] لعصاة المؤمنين، وكذلك إلى مراتب الجنة ومنازلها الثماني المسماة بجنة النعيم وجنة الفردوس وجنة الخلد وجنة المأوى وجنة عدن ودار السلام ودار القرار، وذلك لأن السبعة من الأخلاق المذمومة[٢] إذا تبدلت بالسبعة من الأخلاق المحمودة، صارت كلها جنات معنوية روحانية ورد عليها مرتبة العدالة التي هي جامعة للكل، فصارت الجنات ثمانٍ وإلى هذه الجنات المعنوية ونعيمها ولذاتها أشار الحق تعالى بعد الإشارات القرآنية في قوله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وكذلك النبيصلى الله عليه وسلم في قوله: «إن لله جنة ليس فيها حور ولا قصور، ولا عسل ولا لبن، بل يتجلى فيها ربنا ضاحكاً» لأن هذه كلها

---

(١) هاوية.

(٢) الذميمة.

جسمانية، وتلك روحانية، والفرق بينهما ظاهر، وقوله أيضاً: «والذي نفس محمد بيده إن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله» يدل على الجنة المعنوية دون الصورية، وعلى العاجل دون الآجل، وقد أشار إلى هذا مولانا أمير المؤمنين عليه السلام بعبارة يفهم منها جميع ذلك وهو قوله: «قد أحيى عقله وأمات نفسه حتى دق جليله ولطف غليظه وبرق له لامع كثير البرق فأبان له الطريق وسلك به السبيل وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه» وهذا الكلام وإن كان بأسره مطلوباً[1]، لكن قوله: وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة هو المقصود بالذات، لأنه إشارة إلى ما سبق من قولنا إن أبواب الجحيم المعنوية بعد تبديل الأخلاق الذميمة تصير أبواب الجنان، ويرجع الكل إلى الباب الأعظم المسمى بباب الرضا، المشار إليه في قوله عليه السلام: «الرضا باب الله الأعظم، المنزل في كتاب الله» وصفه ووصف أهله في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾[البينة/ ٧ ـ ٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾[الإنسان/ ٢٠ ـ ٢٢]. إشارة إلى هذه الجنة وهذه المشاهدة ولذاتها ونعيمها، والنقليات الواردة في هذا الباب كثيرة نختصر على ذلك ونرجع إلى غيره، وبالله التوفيق وهو يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وأما القيامة الكبرى المعنوية بالنسبة إلى أهل الطريقة

فهي عبارة عن فنائهم في الحق وبقائهم به، المعبر عنه بالفناء في التوحيد

---

(١) في النسخة الثانية مطلوب.

المسمى بقرب النوافل لقوله تعالى: «لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يبطش وبي يمشي» وحاصل هذه القيامة بعد الفناء المذكور الذي هو الموت الحقيقي الجنة الشهودية[1] التي هي فوق جنة الوراثة وجنة النفس، وإلى هذه الجنان الثلاث المعنوية الحاصلة من هذه القيامات الثلاث أشار الشيخ الأعظم محيي الدين الأعرابي قدس الله سره في فتوحاته وقال: اعلم أن الجنات ثلاث، جنة اختصاص إلهي، وهي التي يدخلها الأطفال الذين لم يبلغوا حد العمل، وحدّهم من أول ما يولد إلى أن يستهل صارخاً إلى انقضاء ستة أعوام، ويعطي الله من شاء من عباده من جنات الاختصاص ما شاء من أهلها المجانين الذين ما عقلوا، ومن أهلها أهل التوحيد العلمي، ومن أهلها أهل الفترات ومن لم يصل إليهم دعوة الرسول، والجنة الثانية جنة ميراث ينالها كل من دخل الجنة ممن ذكرنا ومن المؤمنين، وهي الأماكن التي كانت من أهل النار لو دخلوها، والجنة الثالثة جنة الأعمال، وهي التي ينزل الناس فيها بأعمالهم، فمن كان أفضل من غيره في وجوه التفاضل كان له من الجنة أكثر، سواء كان الفاضل دون المفضول أو لم يكن، غير أنه فضله في هذا المقام بهذه الحالة، فما من عمل إلا وله جنة، ويقع التفاضل فيها بين أصحابها بحسب ما يقتضي أحوالهم، ثم قال: اعلم أن أهل الجنة أربعة أصناف، الرسل وهم الأنبياء، والأولياء وهم أتباع الرسل على بصيرة وبينة من ربهم، والمؤمنون وهم المصدقون بهم عليهم السلام، والعلماء بتوحيد الله أنه لا إله إلا هو من حيث الأدلة العقلية، قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾[آل عمران/١٨]، وهؤلاء هم الذين أُريده بالعلماء، وفيهم يقول الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ

---

(١) في النسخة الثانية الشهودي.

دَرَجَٰتٍۚ﴾[المجادلة/ ١١]، والطريق الموصل إلى العلم بالله طريقان لا ثالث لهما، ومن وحد الله بغير هذين الطريقين فهو مقلد في توحيده، الطريق الواحد منهما طريق الكشف، وهو علم ضروري يحصل عند الكشف يجده الإنسان في نفسه لا يقبل معه شبهة ولا يقدر على دفعه ولا يعرف لذلك دليلاً يستند إليه سوى ما يجده في نفسه، والطريق الثاني طريق الفكر والاستدلال بالبرهان العقلي، وهذا الطريق دون الطريق الأول، فإن صاحب النظر والدليل قد يدخل عليه الشبهة القادحة في دليله، فيتكلف الكشف عنها، والبحث على وجه الحق من الأمر المطلوب، وما ثم طريق ثالث، فهؤلاء هم أُولو العلم الذين شهدوا بتوحيد الله دلالة ونظراً، زيادة علم على التوحيد بتوحيد في الذات بأدلة قطعية لا يعطيها كل أهل الكشف بل بعضهم قد يعطاها، وهؤلاء أربع طوائف متميزون في جنات عدن عند مشاهدة الحق في الكثيب الأبيض، وهم فيه على أربعة مقامات، طائفة منهم أصحاب المنابر، وهي الطبقة العليا للرسل والأنبياء، والطائفة الثانية هم الأولياء ورثة الأنبياء قولاً وعملاً وحالاً، وهم على بينة من ربهم، وهم أصحاب الأسرة والفرش، والطبقة الثالثة العلماء بالله من طريق النظر البرهاني العقلي، وهم أصحاب الكراسي، والطبقة الرابعة وهم المؤمنون المقلدون في توحيدهم، ولهم المراتب في الحشر، مقدمون على أصحاب النظر العقلي، وغير هؤلاء الأربعة والله أعلم بحالهم، هذا آخر كلامه.

إذا عرفته فنقول: هذا التقسيم حسن لطيف لا مزيد عليه في الحسن، لكن قد ذكر بعض العارفين من أهل الله أنار الله غريزته تقسيماً آخر على سبيل الإجمال نذكره هاهنا وهو قوله:

اعلم أن الناس بأجمعهم إما كفار أو مسلمون، أما الكفار فهم على ثلاثة أقسام، المشركون والكفار الأصلية كعبدة الأصنام والأوثان وأمثالهم، وأما أهل الكتاب القائلين بالله تعالى وأسمائه وصفاته، المنكرون للنبي وما جاء به

كالمجوس واليهود والنصارى، وأما أهل النحل ومَن لهم شبه كتاب كالزرادشتية وأمثالهم، وهؤلاء ينحصرون في العام والخاص، وخاص الخاص، فيكون مقامهم في الجحيم بحسب مراتبهم في الطبقة الجحيمية، وتلك ثلاث، أما علو، أو سفل، أو ما بينهما، وكل واحدة من الطبقات يختص بطائفة منهم، والله أعلم وأحكم، وأما المسلمون فهم أيضاً على ثلاثة أقسام: الأنبياء والرسل والأوصياء المخصوصون بهم، الموسومون بالأولياء من شيث إلى المهدي عليه السلام، وأما أهل العلم بالله كشفاً وبرهاناً على حسب طبقاتهم، كمشايخ الصوفية والعلماء القائمين بالشرائع الإلهية، وأما أهل الإيمان والتقليد بالاعتقاد الجازم كسائر الناس منهم، وهؤلاء ينحصرون أيضاً في العام والخاص وخاص الخاص، فيكون مقامهم في الجنة بحسب مراتبهم في المدارج والغرف الجنانية، وتلك ثلاثة إما علو أو سفل أو ما بينهما، وكل واحدة من المراتب والمدارج يختص بطائفة منهم، والله أعلم وأحكم، وهذا آخر كلام ذاك العارف، وهذا المكان لا يحتمل أكثر من هذا، وحسن هذا التقسيم ولطفه لا يخفى على أحد من أرباب العلم وأصحاب الذوق، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، هذا آخر القيامات الثلاث المعنويات بالنسبة إلى أهل الطريقة على سبيل الاختصار، وبالله التوفيق، وأما بالنسبة إلى أهل الحقيقة فالقيامة عندهم بعد القيام بالقيامات الثلاث عبارة عن فنائهم في التوحيد الفعلي والوصفي والذاتي وبقائهم بالحق بحسب مراتبهم فيه، وتلك أيضاً ترجع إلى القيامات الثلاث من الصغرى والكبرى والوسطى مطابقاً للتوحيدات الثلاثة والفناء فيها ما ستعرفه إن شاء الله تعالى.

أما القيامة الصغرى المعنوية بالنسبة إلى أهل الحقيقة

فهي عبارة عن فنائهم في التوحيد الفعلي ووصولهم إلى مشاهدة فاعل واحد متصرف في الكل، وبيان ذلك وهو أن من انكشف له حجب الأفعال

بانفتاح عين البصيرة وارتفع عنه تلك الحجب بالكلية، بحيث لا يشاهد الأفعال مطلقاً إلا من فاعل واحد ومتصرف واحد، راعياً جانبي الجبر والتفويض، حافظاً طرفي الإلجاء والاختيار، فقد خلص من درك رؤية الغير ورؤية أفعاله، ووصل إلى درجة مشاهدة الأفعال من فاعل واحد الذي هو الحق تعالى جل ذكره، وتثبتت[1] قدماه في مقام التوحيد الفعلي، وقام بذلك في عرصة القيامة الصغرى بين يديه كالميت بين يدي الغاسل، وعلامة ذلك التوكل والتسليم والتفويض والإقرار بالفعل دون القول بأن لا فاعل إلا الله، وقد سبق ذكر هذا في بحث أهل الطريقة، لكن ليس هذا ذاك بعينه، بل بينهما تفاوت، لأن الصلاة وإن كانت صورتها واحدة، لكن ليس كل مصل في مرتبة واحدة، لأنه فرق كثير بين الصلاة الصادرة من العلم واليقين والحضور والصلاة الصادرة من الجهل والشك والغفلة، لقوله تعالى بالنسبة إلى الطائفة الأولى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ① ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ② وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ⑩ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[المؤمنون/ ١ ـ ١١] ولقوله بالنسبة إلى الطائفة الثانية ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾[الأنفال/ ٣٥] الآية، وبالجملة قد مر بحث توحيد الأفعال مراراً، وله في كل مكان خصوصية وليس ذلك من التكرار والعبث، بل من التأكيد والتحقيق واداء حق كل مقام ومرتبة، والمراد منه تحقيق القيامة الصغرى المعنوية المخصوصة به، أي بتوحيد الأفعال، وحاصل ـ هذه القيامة بعد الفناء بالصورة المذكورة جنة الأفعال ولذاتها ونعيمها التي هي مشاهدة الفاعل الحقيقي في كل واحد واحد من أفعاله الروحانية والجسمانية المتقدم ذكرها غير مرة، لأن الجنة المعنوية الحقيقية المخصوصة بهذه الطائفة أيضاً ثلاثة،

---

(١) ثبت.

جنة الأفعال وجنة الصفات وجنة الذات، فجنة الأفعال بالنسبة إليهم أول الجنات في الدرجات[1] الجنانية، وقد ورد في اصطلاحهم تعريف هذه الجنات مفصلاً، نذكرها بعبارتهم، ونرجع إلى غيرها، وهي هذه:

جنة أفعال هي الجنة الصورية من جنس المطاعم اللذيذة والمشارب الهنيئة والمناكح البهية ثواباً للأعمال الصالحة وتسمى جنة الأفعال وجنة النفس، هذا من حيث الصورة وأما من حيث المعنى الذي نحن بصدده وهو أن يكون له مثل هذه المطاعم والملذات من مشاهدة الأفعال في مظاهره الفعلي صادرة من[2] فاعل واحد محبوب بالذات، الذي هو كالروح إلى جسد هذا العالم، لأن مشاهدة الفاعل في التوحيد الفعلي بعينه مشاهدة حقيقة الإنسان بالنسبة إلى جسده وتحريك أعضائه كلها بها، وباتفاق الأنبياء والأولياء والعارفين من أمتهم نسبة الحق إلى العالم نسبة روح الإنسان إلى جسده وصورته، ويعضد ذلك قوله ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[فصلت/ ٥٣]، وفيه قيل:

وكل الذي شاهدته فعل واحد
بمفرده لكن بحجب الأكنة
إذا ما أزال الستر لم تر غيره
ولم يبق بالاشكال اشكال رتبة

وجنة الصفات هي الجنة المعنوية من تجليات الأسماء والصفات الإلهية وهي جنة القلب، وقد مر ذكرها بأنها حاصلة من تهذيب الأخلاق واتصاف القلب بالأخلاق الإلهية والأوصاف الربانية، وجنة الذات وهي مشاهدة

---

(١) الدرجة.

(٢) عن.

الجمال الأحدي في المظاهر الكلي اجمالاً وتفصيلاً، وهذه جنة الروح وقد سبق أيضاً ذكرها بأنها حاصلة من التوحيد الذاتي وتكحيل عين الروح بكحل الوحدة الحقيقية بحيث لا يشاهد غير المحبوب أصلاً وأبداً، والغرض أن حاصل[1] فناء العبد في التوحيد الفعلي والقيامة الصغرى المعنوية جنة الأفعال على حسب طبقاتها ودرجاتها صورة كان أو معنى، والله أعلم وأحكم.

وأما القيامة الوسطى المعنوية بالنسبة إلى أهل الحقيقة

فهي عبارة عن فنائهم في التوحيد الصفاتي ووصولهم إلى مشاهدة صفة واحدة سارية في الكل، وبيان ذلك وهو أن من انكشف له حجب الصفات كلها، وارتفع عنه حجب مشاهدة الغير مطلقاً، بحيث ما شاهد في الوجود كله إلا صفة واحدة حقيقية سارية في الكل سريان الحياة في البدن الإنساني، أو سريان صفة القدرة على الفعل فإن الإنسان والحيوان، أعني مشاهدة صفة واحدة مضافة إلى ذات واحدة متصرفة في الكل، والكل متصف بها كاتصاف كل عضو بصفة الحياة أو القدرة، فقد وصل إلى التوحيد الصفاتي، وحضر في عرصة القيامة الوسطى المعنوية، وخلص من ضيق رؤية أفعال الغير الذي هو الموت حقيقة، وصدق عليه قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[ق/ ٢٢]، وفيه قيل:

العين واحدة والشكل مختلف   وذاك سر لأهل العلم ينكشف

وقيل: سئل أبو يزيد البسطامي رحمة الله عليه كيف أصبحت يا أبا يزيد؟ قال لا صباح عندي ولا مساء، إنما الصباح والمساء لمن يتقيد بالصفة، وأنا لا صفة لي، وهذا دليل واضح على رسوخ قدمه في التوحيد الصفاتي بعد الفعلي كشفاً وذوقاً، وهذا معنى قولهم: حجب الذات بالصفات والصفات بالأفعال،

---

(١) الحاصل.

لأن كل من لم يرتفع عنه حجب الأفعال لم يصل إلى التوحيد الفعلي، وكل من لم يرتفع عنه حجب الصفات لم يصل إلى التوحيد الوصفي، وكل من لم يرتفع عنه حجب الذات لم يصل إلى التوحيد الذاتي، وكل من لم يصل إلى هذه التوحيدات لم يحكم بإسلامه وإيمانه، ولا بأنه إنسان أوفى حكم الإنسان، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[الأنفال/ ٢٢] ولقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ[1] كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[الأعراف/ ١٧٩] وحاصل هذه المشاهدة في القيامة الصغرى جنة الصفات المتقدم ذكرها، والوصول إلى لذاتها ونعيمها التي هي مشاهدة صفة المحبوب في صورة كل واحد واحد من المحبين، روحانية كانت أو جسمانية، كما أخبر عنه الواصل إلى هذا المقام بقوله:

تجلى لي المحبوب من كل وجهة[2] فشاهدته في كل معنى وصورة

وكذلك الآخر في قوله:

وكل مليح حسنه من جماله معار له بل حسن كل مليحه

رزقنا الله وإياكم الوصول إلى هذه المشاهدة في مدارج هذه الجنة ذوقاً وكشفاً، لأنه المستعان وعليه التكلان، وهو يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وأما القيامة الكبرى المعنوية بالنسبة إلى أهل الحقيقة

فهي عبارة عن مشاهدة بقاء الذوات كلها بذات الحق تعالى بعد فنائها فيه، فناء عرفاني لا فناء عياني، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[الرحمن/ ٢٦ و٢٧] ولقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[القصص/ ٨٨]، وبيان ذلك مفصلاً وهو أن من انكشف

---

(١) إن هم إلا.

(٢) وجهتي.

له ذات الحق تعالى ووجوده من بين الحجب الجمالية والجلالية، ورفع عنه حجب رؤية الغير مطلقاً، بحيث ما شاهد غيره أصلاً وأبداً، بل مشاهد ذاتاً[1] واحدة متجلية في مظاهر الأسمائية الغير المتناهية المشار إليها بقول قائلهم:

جمالك في كل الحقائق سائر وليس له إلا جلالك ساتر

وفي قولهم: ليس في الوجود سوى الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، فالكل هو وبه ومنه إليه، فقد وصل إلى التوحيد الذاتي وحضر في عرصة القيامة الكبرى وشاهد معنى قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[غافر/ ٢٦] لأنه قهر بنظره التوحيدي كل الذوات بحكم ليس في الوجود سوى الله تعالى، وبمصداق ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[الأنعام/ ٩١] وبمقتضى إشارته: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾[الإسراء/ ٣٩]، وهذا هو التوحيد المسمى بالتوحيد الذاتي الذي هو توحيد خاص الخاص الذي لا توحيد فوقه، كما قيل: ليس وراء عبادان قرية، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[الحديد/ ٣] إشارة إلى هذه المشاهدة، لأنه إذا ثبت أنه ليس في الوجود غيره لا بد وأن يكون هو الأول والآخر والظاهر والباطن من غير تصور مغايرة في ذاته وصفاته، لأنه الأول في عين الآخر، والآخر في عين الأول، وكذلك الظاهر والباطن كما بيّناه مراراً بوجوه مختلفة، وكذلك ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾[فصلت/ ٥٣]، فإنه أيضاً إشارة إلى هذه المشاهدة، وقد سبق تفسيره وتأويله على ما ينبغي، وعلامة هذه المشاهدة وأمارة هذا التوحيد الثبات في مقام الاستقامة والتمكين المشار إليه، في قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[هود/ ١١٢]، لأن الاستقامة على التوحيد الحقيقي الموصوف بأحد من السيف وأدق من الشعر صعب في غاية الصعوبة، حتّى قال ﷺ: «شيبتني

---

(١) ذات.

سورة هود» ومعناه الحقيقي أي فاستقم على التوحيد الحقيقي المعبر عنه بالصراط المستقيم الذي هو عبارة عن النقطة الاعتدالية بين طرفي الإفراط والتفريط من غير انحراف وميل إلى طرفيهما المشار إليهما[1] عند البعض بالتفرقة والجمع، وعند البعض بالشرك الجلي والخفي، وعن هذه الاستقامة أشار ليلة المعراج بقوله[2]: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[النجم/ ١٧]، لأن من زاغ بصره عن نقطة التوحيد الجمعي الاعتدالي اللازم للعدالة الحقيقية فقد طغى عن الحد الحقيقي الذي يجب الوقوف عليه، وقد ضل عن الطريق المستقيم ودخل في زمرة المشركين الضالين عن الحق وطريقته، جلياً كان الشرك أو خفياً، و ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[النجم/ ٩] إشارة إلى تلك النقطة والإقامة عليها، وقوله تعالى، ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[الإسراء/ ١١٠] أيضاً إشارة إلى هذا ومعناه ولا تلتفت في توجهك إلينا إلى يمينك وشمالك، المعبرتان بالدنيا والآخرة تارة، وبالجمع والتفرقة أخرى، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي واسلك بين هذين السبيلين سبيل التوحيد الحقيقي الجمعي الذي كان عليه آباؤك واجدادك من الأنبياء والرسل والأولياء والأوصياء خصوصاً إبراهيم وأولاده عليهم السلام وقول بعض عبيدنا من العارفين: وإياكم والجمع والتفرقة، فإن الأول يورث الزندقة والإلحاد، والثاني تعطيل الفاعل المطلق، وعليكم بهما، فإن جامعهما موحد حقيقي وهو المسمى بجمع الجمع وجامع الجميع، وله المرتبة العليا والغاية القصوى إشارة إلى هذه الاستقامة والفرار من الإقامة على طرفيها، والنقل الدال على هذا كثير سيما من القرآن والأخبار، والحر يكفيه الإشارة.

وحاصل هذا القيام في هذه القيامة المعنوية جنة الذات التي هي أعلى الجنات، المخصوصة بالموحدين الذين ارتقوا في طريق توحيده عن مشاهدة

---

(١) إليه.

(٢) في قوله.

الغير مطلقاً بمقتضى قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾[القمر/ ٥٤ و٥٥]، لأن من شاهد غيره في الوجود فهو ليس بموحد ولا متق، ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران/ ١٠٢]، وحق تقاته[١] ليس إلا الاتقاء من مشاهدة الغير في طريق توحيده، وأكده بقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، أي ولا تموتن الموت المعنوي الحقيقي الإرادي المعبر عنه في هذا المقام بالفناء إلا وأنتم مسلمون بهذا الإسلام، أي بالتوحيد الذاتي دون الوصفي والفعلي، وسلطان الأولياء والوصيين أمير المؤمنين علي[٢] عليه السلام حيث كان عالماً بهذا السر ومراتب الإسلام والتوحيد أشار إلى هذا المعنى مفصلاً في غاية الإيجاز، وهو قوله: «إني[٣] لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي، الإسلام هو التسليم، والتسليم[٤] هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل الصالح[٥]» وقد سبق هذا الكلام مع معناه والمراد واحد، وقوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾[آل عمران/ ١٧ و١٨]، ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[الأنبياء/ ٥٦] يقوم بجواب الكل، ويكفي في هذا شهادة الله وشهادة ملائكته وأولي العلم من عباده، كما قال: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[الرعد/ ٤٣]، هذا آخر القيامات الثلاث المخصوصة بالحقيقة من

---

(١) الاتقاء.

(٢) ابن أبي طالب حيث.

(٣) ليست أني في كلمة الشيخ المطبوعة.

(٤) وفي النسخ المطبوعة هكذا وفي النسخة المخطوطة والتسليم هو التصديق والتصديق هو اليقين.

(٥) كلمة الصالح في النسختين المخطوطين ونسخة ابن ميثم وليست في سائر النسخ.

حيث المعنى بعد الثلاث المخصوصة بأهل الطريقة، إذا تحقق هذا فلا بد وأن نشرع في القيامات الست الصورية بالنسبة إلى الآفاق، حتى يصير المجموع اثنتي عشرة قيامة صورية ومعنوية، لكن من حيث إن التقسيم المذكور كان على غير هذا الوجه يجب الشروع في ذلك، لئلا يلزم التناقض في الكلام، وذلك لأنا قلنا القيامات ينقسم إلى اثنتي(1) عشرة قيامة، ست في الآفاق بحيث تكون ثلاث منها صورية وثلاث معنوية، وكذلك في(2) الأنفس، والآن قد خرج التقسيم على الست المعنوية في الأنفس والست الصورية في الآفاق وهذا غير صحيح، فنقول هذا سهل، والرجوع إلى التقسيم الأول في غاية السهولة يسقط هذا الكلام، وهو أنك إذا جعلت الست المعنوية المتقدمة من قبيل الأنفس وعددتها بالثلاث، لأن الكل يرجع إلى شخص واحد في مراتب ثلاث، وأضفت إليها الثلاث الصورية المتعلقة بالأنفس، وعينت للآفاق أيضاً ثلاث صورية وثلاث معنوية، خرج الحساب صحيحاً وسقط الاعتراض صريحاً فالثلاث الأنفسية الصورية الصغرى منها عبارة عن خلاص الشخص من حجاب البدن والنشأة الدنياوية(3) بالموت الطبيعي دون الإرادي، لقول النبي ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته» والوسطى منها عبارة عن خروجه من الدنيا ومكثه في البرزخ المسمى بالقبر، لقوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون/ ١٠٠]، ولقول النبي ﷺ: «القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران»، والكبرى منها عبارة عن حشره يوم القيامة الكبرى المعبر عنها بالطامة الكبرى، وحضوره بأرض الساهرة لقوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[الكهف/ ٤٧]، ليصل إلى مقامه المعين له، إما في الجنة أو في النار. والله أعلم وأحكم، وإذا تحقق هذا وخرج التقسيم

---

(١) في النسخة الثانية اثنا

(٢) في ساقطة.

(٣) الدنيوية.

صحيحاً وبل التقسيمان. فلنشرع في الست الافاقية أيضاً، ونعين منها صورية ومعنوية وهو هذا:

أما القيامة الصغرى الصورية بالنسبة إلى الآفاق

فهي عبارة عن خراب العالم المحسوس والمركبات، ورجوعه إلى عالم البسائط العنصرية الجسمانية لقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير/ ٣ ـ ٧]، وأما عند البعض فهي عبارة عن ظهور المهدي عليه السلام في آخر الزمان لفصل القضاء بين حاضري زمانه، لأنه خليفة الله الأعظم والقطب الذي يدور عليه العالم، وبه يختم الولاية ويرتفع التكليف والشرائع والملل والأديان، ويرجع العالم كله إلى ما كان عليه قبل الإيجاد، لمناسبة المبدأ والمعاد ونهاية الدائرة بما بدىء منها إليها، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾[النمل / ٨٣]، لأن المراد بهذا الحشر لو كان الحشر الكلي ما قال فوجاً من كل أمة، بل قال كما قال فيه: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[الكهف/ ٤٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[الواقعة/ ٥٠]، ومعلوم أنه ما قال كذلك، فعرفنا أنه الحشر الجزئي الصغرى، لا الكلي الجامع الكبرى، وقد ذهب بعض الإمامية إلى أن هذا الحشر الجزئي يسمى رجعة ويستدلون بالآية المذكورة، لأن من للتبعيض، وقد قال به جماعة منهم ووردت بذلك أخبار جمة لا نطول بذكرها هنا، فاطلبها من مظانها، حتى أن بعضهم أفرد لذلك كتاباً مفرداً وسماه كتاب الرجعة.

وأما القيامة الوسطى الصورية بالنسبة إلى الآفاق

فهي عبارة عن رجوع البسائط إلى الهيولى الكلية الأولية القابلة[1] لصور

(١) «القابلة» ساقطة من النسخة الثانية.

عالم الأجسام كلها من الأفلاك والأجرام والمواليد وغير ذلك، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[الأنبياء/ ١٠٤]، ولقوله مفصلاً: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ - إلى قوله - ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾[التكوير/ ١ - ١٢]، وأما عند البعض فهي عبارة عن تبدل العالم الصوري الحسي بصورة العالم البرزخي المعادي دون المبدائي[1]، والمكث التام فيه واستيفاء الآلام واللذات بقدر الاستحقاق المسمى بعذاب القبر ونعيم الآخرة، لقول النبي ﷺ المقدم ذكره: «القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران» ولقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾[السجدة/ ٢١]، وقوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون/ ١٠٠]، لأن في هذا العالم يحشرون إلى أرض الساهرة وعرصة القيامة الكبرى، والوجهان موجهان لا يخفى على الفطن المحقق المنصف.

وأما القيامة الكبرى الصورية بالنسبة إلى الآفاق

فهي عبارة عن رجوع صور العالم[2] الروحانية من العقول والنفوس إلى الجوهر الأول الذي خلق الله تعالى منه تلك[3] الحقائق والصور، لقول النبي ﷺ: «أول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر إليها فذابت من هيبته وصارت نصفها ماء ونصفها ناراً، فخلق الله تعالى من الماء الأرواح ومن النار الأجساد». الحديث، وأما بلسان الكشف وطريق أهل الذوق فهي عبارة عن المادة التي فتح الله فيها صور العالم كلها، ويسمونها الهباء تارة والعنصر

---

(١) في النسخة الثانية المبدأي.

(٢) العوالم.

(٣) ذلك.

الأعظم اخرى، والحكمة[1] في ذلك صدق قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[الأنبياء/ ١٠٤]، ثم إيجاد الصور الأخروية من تلك الجوهرة والمادة صوراً غير منقطعة ولا قابلة للزوال والتغيير أبداً لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[البينة/ ٨]، ومثال ذلك مثال قطعة من الشمع تظهر بصور مختلفة متنوعة، أما من نفسها كالنواة وغيرها، وأما من غيرها كالحق تعالى أو الملائكة أو القوة المصورة الطبيعية الكلية، ثم إزالة[2] تلك الصور منها كلها ورجوعها إلى ما كانت عليه من القابلية، ثم ظهورها بالصور المناسبة للعوالم الأخروية والمواطن الجنانية والجحيمية، ويعرف صدق هذا من حشر الإنسان بصورته وأعضائه التي كانت عليها قبل الموت لقوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾[القيامة/ ٤]، وغير ذلك من الآيات، وقول أهل الشرع من المتكلمين بالأجزاء الأصلية واستحالة فناء الشيء في الوجود مطلقاً المتقدم ذكره، وبيان انفنائه[3] بأنه عبارة عن تبديل الصور وتغيرها إلى صورة أخرى لا غير، والبرهان العقلي قد قام على أن الموجود قط لا يصير معدوماً، وأن المعدوم المطلق قط لا يصير موجوداً، والايجاد والاعدام يصدق على الممكنات لا غير، باعتبار تغير الصورة وتبديلها فقط، ورجوع كل الموجودات ضروري في الآخرة إلى صور كانوا عليها بحسب العلوم والأعمال وبقائهم عليها في الجنة والنار، والله أعلم وأحكم وهو يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وأما القيامة الصغرى المعنوية بالنسبة إلى الآفاق

فهي عبارة عن رجوع النفس الجزئية إلى النفس الكلية من حيث التوجه والعروج إليها، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً

---

(١) والحكم.
(٢) في النسختين ازاله.
(٣) فنائه.

مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[الفجر/ ٢٧]، ولقوله: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾[التكوير/ ٧] وتزويج النفوس هو اتصال النفوس الجزئية بالنفس[1] الكلية التي صدرت منها، كحواء من آدم عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[النساء/ ١] الآية إشارة إلى هذا المعنى، لأن آدم وحواء معتبران بحسب الصورة وهما اللذان كانا أبونا وأمنا، ومعتبران بحسب المعنى وهما اللذان كانا أبونا الحقيقي وأمنا الحقيقية، وقد يعرف صدق هذا من إطلاق اسم الآباء على الأفلاك والعلويات، واسم الأمهات على العناصر والسفليات، وقد أشار إلى هذا الشيخ الأعظم محيي الدين الأعرابي قدس الله سره نظماً في فتوحاته في أول الباب الحادي عشر بقوله:

أنـا ابـن آبـاء أرواح مـطـهـرة ... وأمـهـات نـفـوس عـنـصـريـات

وهذه النفوس أولاً عبارة عن نفوس فلكية ثم ملكية ثم جنية عنصرية ثم معدنية ثم حيوانية ثم إنسانية باعتبار، لأن باعتبار آخر نفوس الإنسان أول النفوس واشرفها، وكل واحدة[2] منها أيضاً ينقسم أقساماً يطول ذكرها، ومثالها مثال النفس الإنسانية، فإنها تنقسم إلى الأمارة واللوامة والملهمة والمطمئنة وغير ذلك من الاعتبارات، وأما أن نفوس العالم وأهله مكلف، فذلك بحث آخر وله بسط ليس هذا موضعه، يكفي فيه قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[الإسراء/ ٤٤]، والمأمور بالتسبيح لا يكون إلا مكلفاً، فافهم، فإن الكلام في الحجر والمدر لا في النفوس والأرواح، والله أعلم وأحكم وهو يقول الحق وهو يهدي السبيل.

---

(١) إلى النفس.

(٢) واحد.

وأما القيامة الوسطى المعنوية بالنسبة إلى الآفاق

فهي عبارة عن عود الأرواح الجزئية إلى الروح الأعظم الكلي بحسب التوجه والعروج معنى دون الصورة، مع تعلقه بالبدن تعلق التدبير والتصرف، والروح الأعظم هو الذي ورد في الخبر: أول ما خلق الله تعالى الروح، وقوله ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾[الحجر/ ٢٩] إشارة إلى ذلك الروح، وهو مضاف إليه بحسب التمليك لقوله أيضاً: عبدي وداري وأرضي وسمائي، ومن هذه الإضافات لا يلزم تصور الانفعال ولا الاتصال، جل جنابه عن أمثال ذلك، وقد ورد أيضاً خلق الله تعالى الأرواح قبل الأجساد بكذا كذا عام، وعلى الخصوص: «خلق الله تعالى روحي وروح علي بن أبي طالب قبل أن يخلق الخلق بألفي ألف عام» وورد «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» وبحث الأرواح أيضاً مطول وفيه أبحاث ليس هذا محلها، فاطلبها من مظانها، وحيث إن مجموع العالم كشخص واحد، لقولهم: العالم إنسان كبير، وجميع الموجودات بالنسبة إليه كجوارح الإنسان وقواه إليه، لقولهم: الإنسان عالم صغير، وهو أيضاً مكلف وجميع أعضائه[1] وقواه مكلف، وإليه الإشارة بقوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[لقمان/ ٢٨]، قوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[غافر/ ٥٧]، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾[فصلت/ ١١] أولاً هناك تكليف قط ما كانوا مستحقين للأمر والنهي والخطاب والعتاب، ويقوم بجواب الكل قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[الأنعام/ ٣٨]، والله أعلم وأحكم.

---

(١) أعضاء.

وأما القيامة الكبرى المعنوية بالنسبة إلى الآفاق

فهي عبارة عن عود العقول كلها من حيث العروج إلى العقل الأول المشار إليه في قوله ﷺ: «أول ما خلق الله العقل، فقال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، فقال وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم علي منك بك أعطي وبك آخذ وبك أُثيب وبك أعاقب». . الحديث، وهذا العود والعروج جعلياً عرفانياً لا عياناً، لأن ذلك يكون في القيامة الصورية الآفاقية لا المعنوية، وبالجملة لا بد من الرجوع قهقراً[1] صورة كان أو معنى، والمراد هاهنا بالمعنى، ومعلوم أن العقول متعددة، ومع أنها متعددة متفاوتة. أما التعدد فالعلماء من الفلاسفة أكثرهم ذهبوا إلى أن الله تعالى واحد من جميع الوجوه، وصدر من هذا الواحد واحد آخر وهو العقل الأول، وصدر من هذا العقل عقل آخر ونفس أخرى وفلك مركب من الصورة والهيولى، وكذلك إلى آخر الأفلاك، أعني اثبتوا لكل فلك عقلاً ونفساً وصورة وهيولى، وكذلك الملائكة، فإنهم أيضاً أرباب العقول، وكذلك الجن والناس على رأي بعضهم، والأعلى رأي المحققين كل[2] موجود له تعقل بقدره إن شئت سمه بالإلهام أو بالفراسة أو بالفطرة أو بالوحي أو بالعلم أو بأي شيء أردت، فإنه عبارة عن تعقل ذلك الشيء الأشياء، ومن هذا جعلوا أيضاً أقسام العقل أربعة، عقل هيولاني وعقل بالملكة وعقل بالفعل وعقل مستفاد، وله بالعربية أسماء لب وحجى وحجر والنهى وأمثال ذلك، وبيان ذلك وهو أن المطابقة شرط بين الآفاق والأنفس، وكل هذا سبق في معنى الأنفس صورة ومعنى، فينبغي أن يثبت أيضاً للافاق صورة ومعنى، وبناء على هذا فكل ما يتصور في حق الإنسان الصغير في هذا الباب ينبغي أن يتصور في حق الإنسان[3] بعينه،

---

(١) قهقرى.

(٢) وكل.

(٣) كذا في النسختين والظاهر الإنسان الكبير بعينه.

وكل نظرنا في هذا الكتاب من حيث التأويل وفي هذه القيامات الثلاث من حيث التطبيق على هذا لا غير، وكما أن يصدق عليه الموت والحياة والبعث والنشور صورة ومعنى، فكذلك يصدق على الإنسان الكبير الموت والحياة والبعث والنشور، أما الموت فهو عبارة عن خرابه، وأما الحياة فهي عبارة عن عمارته في الآخرة بعد خرابه كما عرفته، وأما البعث والنشور فحساب كل واحد من أجزائه وأركانه يوم القيامة على قدره، لقولهﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»، وعلى هذا التقدير كما أن الموت الصوري أو المعنوي موجب لسعادة الإنسان الصغير دنيا وآخرة لقوله: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾[آل عمران/ ٤٥]، ولقوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾[النساء/ ١٣٤]، فكذلك الإنسان الكبير، فإن موته وخرابه يكون سبباً[١] لسعادته وعمارته وخلوده على صورته التي تحصل في تلك العوالم ويبقى عليها دائماً، لأن هذا الموت خروج من دار الفناء إلى دار البقاء ومن دار الظلمة والكدورة إلى دار النور والضياء، ومن هذا قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾[الصافات/ ٦٠ و٦١]، ومن هذا قال العارف الربانيعليه السلام لما ضربه ابن ملجم المرادي لعنة الله عليه: فزت ورب الكعبة، ومن هذا قال: والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه، ومن هذا خاطب الحق تعالى عبيده بقوله: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[الجمعة/ ٦]، لأنه عالم بأن الموت موجب لسعادتهم وسبب لوصولهم إلى كمالهم، وإن أردت اعتبرت القيامات الثلاث المعنوية للآفاق برجوع عالم الأفعال التي هي عالم الربوبية إلى عالم الأسماء والصفات التي هي عالم الألوهية، ورجوع عالم الألوهية إلى عالم الذات والحضرة الأحدية فإنه مطابق للأمر موافق للترتيب المذكور، ولا يخرج شيئاً من المقصود المطلوب أصلاً ورأساً كما قيل:

---

(١) في النسخة الثانية سبب.

عباراتنا شتى وحسنك واحد وكل إلى ذاك الجمال يشير

وأما وضوء أهل الشريعة

فذلك معلوم مشهور عند الخاص والعام، وأفعاله على ثلاثة أضرب، واجب ومندوب وأدب وهذا المكان غير محتاج إلى ذكر القسمين الأخيرين اللذين هما المندوب والأدب، وأما القسم الأول الذي هو الواجب فذلك على قسمين، أفعال وكيفيات، أما الأفعال فواجباته خمسة النية وغسل الوجه وغسل اليدين ومسح الرأس ومسح الرجلين، وأما الكيفيات فواجباته عشرة، مقارنة النية لحال الوضوء واستمرار حكمها إلى الفراغ، وغسل الوجه من قصاص شعر الرأس إلى محادر شعر الذقن طولاً وما دارت عليه الإبهام والوسطى عرضاً، وغسل اليدين من المرفقين إلى أطراف الأصابع وألا يستقبل الشعر في غسلهما، والمسح بمقدم الرأس مقدار ما يقع عليه اسم المسح، ومسح الرجلين من رؤوس الأصابع إلى الكعبين، والترتيب وهو أن نبدأ بغسل الوجه ثم باليد اليمنى ثم اليسرى ثم بمسح الرأس ثم بمسح الرجلين، والموالاة وهي أن يوالي بين غسل الأعضاء ولا يؤخر بعضها عن بعض بمقدار ما يجف ما تقدم وبمسح الرأس والرجلين ببقية نداوة الوضوء من غير استئناف ماء جديد، هذا على طريقة أهل البيت عليهم السلام بحسب الظاهر، وإلا على طريقة غيرهم ففيه اختلافات كثيرة لسنا بصدد بيانها، والله أعلم وأحكم.

وأما وضوء أهل الطريقة

فالطهارة عندهم بعد القيام بالطهارة المذكورة عبارة عن طهارة النفس من رذائل الأخلاق وخسائسها، وطهارة العقل من دنس الأفكار الردية والشبه المؤدية إلى الضلال والاضلال، وطهارة السر من النظر إلى الأغيار، وطهارة الأعضاء من الأفعال الغير المرضية عقلاً وشرعاً.

وأما أفعال هذه الطهارة المعبرة عنها بالوضوء فالنية فيه، وهي أن ينوي

المكلف بقلبه وسره، أنه لا يفعل فعلاً يخالف رضا الله تعالى بوجه من الوجوه، ويكون جميع عباداته لله خالصاً دون غيره، لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام/ ١٦٢ و١٦٣]، وغسل الوجه وهو أن يغسل وجه قلبه عن حدث التعلق بالدنيا وما فيها، فإن الدنيا جيفة وطلابها كلاب، فالطالب والمطلوب نجسان، ولهذا قال عليه السلام: «حب الدنيا رأس كل خطيئة وترك الدنيا رأس كل عبادة» وقال علي عليه السلام: «يا دنيا غرّي غيري فإني قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها» وغسل اليدين، وهو غسلهما وطهارتهما عما في قبضتهما[1] من النقد والجنس والدنيا والآخرة، فإن طهارتهما حقيقة ليس إلا بترك مما[2] في تصرفهما وحكمهما، ومسح الرأس وهو أن يمسح رأسه الحقيقي المسمى بالعقل أو النفس، أي يطّلع عليهما حتى يعرف أنه ما بقي عندهما شيء من محبة الدنيا وما يتعلق بها من المال والجاه، ومسح الرجلين وهو أن يمنعهما عن المشي بغير رضا الله وطاعته ظاهراً وباطناً، والمراد بالرجلين في الظاهر معلوم، وأما في الباطن هما عبارتان عن القوة النظرية والعملية عند البعض، وعن القوة الشهوية والغضبية عند الآخرين، وإلى مثل هذا الوضوء المضاف إلى الوضوء الأول أشار النبي صلى الله عليه وآله وقال: «الوضوء على الوضوء نور على نور» أعني صفاء الظاهر مع صفاء الباطن الوجه المذكور فهو نور على نور، أي نور البصيرة على نور الشرع سبب صفاء الظاهر والباطن، وموجب[3] ثبات السالك على الطريق المستقيم في الدنيا والآخرة لقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[إبراهيم/ ٢٧]، رزقنا الله الجمع بينهما والإقامة على كل واحد منهما، لأنه المستعان وعليه التكلان.

(١) في النسخة الثانية «قبضيهما».

(٢) ما.

(٣) موجبات.

وأما وضوء أهل الحقيقة

فالوضوء عندهم المعبر عنه بالطهارة عبارة عن طهارة السر عن مشاهدة الغير مطلقاً، والنية فيها وهي أن ينوي السالك في سره أنه لا يشاهد في الوجود غيره ولا يتوجه إلا إليه، لأن كل من توجه في الباطن إلى غيره فهو مشرك بالشرك الخفي المتقدم ذكره، المشار إليه في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[الجاثية/ ٢٣]، ولقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف/ ١٠٦]، والمشرك نجس لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[التوبة/ ٢٨]، فطهارته لا تكون إلا بهذه النية التي هي عبارة عن التوحيد الحقيقي النافي للشرك مطلقاً، لأنه معلوم وبل[1] مقرر أن الخلاص من الشرك جلياً كان أو خفياً لا يمكن إلا بالتوحيد، ألوهياً كان أو وجودياً كما سبق ذكره مفصلاً عند بحث الأصول، وغسل الوجه فيها عبارة عن طهارة الوجه الحقيقي ونظافة سره عن دنس التوجه إلى الغير، بحيث لا يشاهد غير وجهه الكريم المشار إليه في قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[البقرة/ ١١٥]، ولا يعرف غير ذاته المحيط المومىء إليه في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾[فصلت/ ٥٤]، وعن هذا التوجه أخبر من لسان إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام/ ٧٩]، وغسل اليدين عبارة عن عدم الالتفات إلى ما في يديه من متاع الدنيا والآخرة، من الدنيا كالمال والجاه والأهل والولد، ومن الآخرة كالعلم والزهد والطاعة، وما يحصل منها كالثواب والجنة والحور والقصور، لأن رؤية الطاعة والعبادة واستحقاق التعظيم بهما عند أهل الله معصية، وفيه قيل: سيئة تسوؤك خير من حسنة تعجبك، وفيه قيل: خير الأعمال ذنب احدث توبة، وشر الأعمال طاعة أورثت عجباً، وإليه أشار النبي ﷺ في

---

(١) بل و.

قوله: «الدنيا حرام على أهل الآخرة، والآخرة حرام على أهل الدنيا، وهما حرامان على أهل الله»، ومسح الرأس عبارة عن تنزيه سره وتقديس باطنه الذي هو الرأس الحقيقي عن دنس الأنانية وحدث الغيرية الحاجب والحاجز بينه وبين محبوبه لقول بعض العارفين فيه:

بيني وبينك اني ينازعني فارفع بفضلك اني من البين

وفيه قيل: وجودك ذنب لا يقاس به ذنب، وقد سبق أن كل من شاهد الغير فهو مشرك، وكل مشرك نجس، والنجس ليس له طريق إلى عالم القدس والحضرة الإلهية لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء/ ٤٨]، ومسح الرجلين عبارة عن تنزيه قوتي العملية والعلمية عن السير إلا بالله ولله وفي الله، لأنهما كالقدمين والرجلين في الظاهر، لأنه بهما يسعى في طلب الحق وبهما يصل إليه، وعند التحقيق ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[طه/ ١٢] إشارة إليهما، أعني إذا وصلت إلينا بواسطتهما فدعهما[1]. فإنك بعد هذا ما أنت محتاج إليهما، ومعلوم عند الوصول يجب طرح كل ما في الوجود سيما القوى والحواس وما اشتمل عليهما ظاهراً وباطناً، وعند البعض المراد بالنعلين الدنيا والآخرة، وعند البعض عالم الظاهر والباطن، وعند البعض النفس والبدن والكل صحيح، وفي مثل هذا الحال وهذا المقام ورد الحديث القدسي: «لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله، فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يبطش وبي يمشي» إشارة إلى السير بالله الذي هو مقام التكميل دون الكمال المشار إليه في قوله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة/ ١٢٢]، وأما بالنسبة إلى اليدين كقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ

(١) فدع لهما.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[الأنفال/ ١٧]، وهاهنا أبحاث وأسرار يطول ذكرها، يكفي الفطن اللبيب هذا المقدار، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وأما غسل أهل الشريعة

فالغسل عندهم يشتمل على واجبات ومندوبات ومحرمات ومكروهات وذلك يطول، والمقصود منه الواجبات التي بها تحصل الطهارة في الظاهر شرعاً. فالواجبات في الغسل ستة أشياء، ثلاثة منها أفعال وثلاثة كيفيات، أما الأفعال فالاستبراء بالبول على الرجال، والاجتهاد[١] في انقاء مجرى المني من البقية على سبيل الأغلب، والنية وهي قول المجنب باللسان بعد العقد بالقلب: أغتسل لرفع حدث الجنابة واستباحة[٢] الصلاة لوجوبه قربة إلى الله وغسل جميع الجسد على وجه يصل الماء على أصول كل شعر عليه من الرأس إلى القدم بأقل ما يقع عليه اسم الغسل، وأما الكيفيات فثلاثة[٣]، مقارنة النية لحال الغسل، والاستمرار عليها حكماً، والترتيب في الغسل، أعني الابتداء بالرأس ثم بالجانب الأيمن ثم بالجانب الأيسر.

وأما غسل أهل الطريقة

فالغسل عندهم بعد القيام بالغسل المذكور طهارة من الجنابة الحقيقية التي هي البعد عن الله دون المجازية التي هي الأحداث الشرعية، والجنابة الحقيقية على قسمين، قسم يتعلق بهم، وقسم يتعلق بأهل الحقيقة، أما الذي يتعلق بأهل الحقيقة فسيجيء بيانه بعد هذا بلا فصل، وأما الذي يتعلق بهم فهي الجنابة الحاصلة من محبة الدنيا، فإن الدنيا في الحقيقة كالمرأة التي لها كل ساعة بعل

---

(١) الاجتهاد ساقطة.

(٢) لاستباحة.

(٣) فثلاث.

آخر، كما أشار إليه[1] الإمام عليه السلام في قوله: «قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها» لأنها لو لم تكن كالمرأة أو في حكمها ما خاطبها الإمام بهذا الخطاب، فكل من يلامس[2] مثل هذه ويجامعها بالنفس أو الروح أو القلب يكون جنباً بالحقيقة، والجنابة هي البعد عن الله تعالى، فكل من يحب الدنيا على الوجه المذكور يكون بعيداً عن الله ضرورة، فإن محبة الله وقربه ومحبة الدنيا وقربها ضدان لا يجتمعان، وإليه الإشارة في القول السابق عن النبي صلى الله عليه وآله الذي قال: «الدنيا حرام على أهل الآخرة والآخرة حرام على أهل الدنيا وهما حرامان على أهل الله» وكذلك ما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[الشورى/ ٢٠]، وكذلك ما أشار الإمام عليه السلام في قوله: إن الدنيا والآخرة عدوان متفاوتان وسبيلان مختلفان، فمن أحب الدنيا وتولاها أبغض الآخرة وعاداها، وهما بمنزلة المشرق والمغرب، وماش بينهما كلما قرب من واحد بعد من الآخر، وهما بعد ضرتان، فالغسل والطهارة من هذه الجنابة يكون بترك الدنيا وما فيها، بحيث لا يبقى له تعلق بها بمقدار شعرة، لأن في الغسل الشرعي لو بقي على الجسد شعرة لم يصل الماء إليها[3] لم يصح غسله ولم يطهر صاحبه من الجنابة، فإن التعلق من حيث التعلق له حكم واحد وهو التعلق، سواء كان قليلاً أو كثيراً، كما قيل: المحجوب محجوب، سواء كان بحجاب أو ألف حجاب، وترتيب هذا الغسل وهو أن يغسل السالك أولاً رأسه الحقيقي الذي هو القلب هاهنا بماء العلم الحقيقي النازل من بحر القدس، من حدث الأهواء المختلفة والآراء المتشتتة المتعلقة بالدنيا وبمحبتها، الموجبة للدخول في الهاوية التي هي النار، لأن الهوى إذا غلب

---

(١) إليها.

(٢) يلابس.

(٣) اليها الماء.

انجذب صاحبه إلى عبادة الأصنام والأوثان الباطلة ذهناً كان أو خارجاً، أما الخارج فهو معلوم، وأما الداخل فذلك أيضاً قد سبق بحكم قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[الجاثية/ ٢٣]، وكان من أطاع هواه لا بد وأن يدخل النار لقوله تعالى أيضاً: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة/ ٨ و٩]، أي من خفت موازينه من العلم والعمل الصالح الصادرين من العقل الصحيح والنفس الكامل فهو في الهاوية التي هي أصلها وأمها، لأن منشأ الهوى من النفس الأمارة. والنفس الأمارة منشؤها ومنبعها الطبيعة الحيوانية والقوى الشهوية والغضبية اللتان هما من جنودها وأعوانها، كذلك صادران من الطبيعة والنفس، فلا تكون الهاوية في الحقيقة إلا التوجه إلى النفس الأمارة والشهوة والغضب، وأسفل سافلين إشارة إليها في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين/ ٤ و٥]، أي رددناه بأفعاله إلى أسفل عالم الطبيعة والنفس الأمارة بمتابعة الهوى ومخالفة الحق في أفعاله وأقواله، لقول أهل النار فيه: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك/ ١٠]، ولهذا دائماً أهل الله الذين هم أهل العلم الحقيقي والعمل الصالح والعقل الصحيح موصوفون بالسكينة والوقار والطمأنينة والإخبات وأمثال ذلك، لقوله تعالى فيهم: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾، ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة/ ٢٢]، وأهل الأهواء والبدع موصوفون بالخفة وقلة العقل وعدم السكينة والوقار، لقوله تعالى فيهم: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ [الأنعام/ ٧١]، وقد سد باب سؤال كل سائل في هذا المقام قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات/ ٤٠ و٤١]، لأن هذا تحريض على منع النفس عن الهوى، وتشويق إلى دخول الجنة التي هي المأوى الحقيقي والموطن الأصلي من غير التراخي ولا التأخير، وإليه أشار علي عليه السلام في قوله: «تخففوا تلحقوا فإنما ينتظر بأولكم

آخركم» يعني تخففوا من أثقالكم الحاصلة من متابعة الهوى ومحبة الدنيا، فإن إلحاقكم بالحق وبالجنة موقوف عليه، أي على تخفيفكم منها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾[الصافات/ ٦٠ و٦١]، ثم يغسل جانبه الأيمن، أي يغسل ويطهر روحه وسره الذي هو من الجانب الأيمن المعبر عنه بالروحانيات عن محبة العلويات والروحانيات المعبرة عنها بالآخرة والجنة، لأن أهل الآخرة مخصوصون بأصحاب اليمين والعلويات، لقوله تعالى في الأول: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾[سورة الواقعة/ ٢٧ ـ ٣١]، ولقوله في الثاني: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[الزمر/ ٦٧]، ثم يغسل جانبه الأيسر، أي يغسل ويطهر نفسه وجسده الذي هو الجانب الأيسر المعبر عنه بالجسمانيات عن محبة السفليات والنفسانيات المعبرة عنها بالدنيا بماء الترك والتجريد وعدم الالتفات إليه، فإن الدنيا مخصوصة بأهل الشمال، كما أن الآخرة مخصوصة بأهل اليمين، لقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾[الواقعة/ ٤١ ـ ٤٣]، فإن بهذه الطهارة يحصل له استحقاق دخول الجنة واستعداد القرب لحضرة العزة، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾[القمر/ ٥٤ و٥٥]، رزقنا الله الوصول إليها، فإن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وأما غسل أهل الحقيقة

فالغسل عندهم عبارة عن طهارتهم من الجنابة الحقيقية التي هي مشاهدة الغير مطلقاً، لأن الجنابة كما سبق بيانها هي البعد، وكل من شاهد الغير فهو بعد عن الحق ومشاهدته ولا يمكن إزالة هذا البعد إلا بقربه إلى التوحيد الحقيقي الذي هو مشاهدة الحق تعالى من حيث هو هو، لقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[آل

عمران/ ١٨]، وقد مر بيان هذا التوحيد مراراً، وترتيب هذا الغسل وهو أن يغسل رأسه الحقيقي الذي هو هاهنا روحه المجرد بماء التوحيد الذاتي عن حدث مشاهدة الغير، لأن محبة الله تعالى كما هو وظيفة الباطن المعبر عنه بالنفس المطمئنة، معرفته وظيفة القلب ومشاهدته وظيفة الروح، كما أن الوصول إليه وظيفة السر الذي هو باطن الروح، وإلى هذا الترتيب أشار جعفر ابن محمد الصادق عليه السلام في بعض أدعيته وهو قوله: «اللهم نور ظاهري بطاعتك وباطني بمحبتك وقلبي بمعرفتك وروحي بمشاهدتك وسري باستقلال اتصال حضرتك يا ذا الجلال والإكرام» وهذا الغسل لا يمكن إلا بفناء العارف في المعروف والشاهد في المشهود المعبر عنه بالفناء في التوحيد، وذلك يكون بمشاهدة الحق من حيث هو هو، أعني يشاهده بحيث لا يشاهد معه غيره، أعني لا يشاهد في الوجود إلا وجوداً واحداً وذاتاً واحدة مجردة عن جميع الاعتبارات والتعينات. وإليه أشار الحق تعالى في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[القصص/ ٨٨]، وكذلك في قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[الرحمٰن/ ٢٦ و٢٧]، وقد مر تحقيق هاتين[١] الآيتين غير مرة والتكرار غير مستحسن، وحيث تقرر أن هذا التوحيد هو الصراط المستقيم الحقيقي المأمور بالاستقامة عليه نبينا صلى الله عليه وآله في قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[هود/ ١١٢]، والحد الأوسط المشار إليه في قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام/ ١٥٣]، وتقرر أن له طرفين، طرف إفراط وتفريط، اللذين هما التوحيد الإجمالي والتوحيد التفصيلي، فالطهارة من دنس جانب الإفراط المعبر عنه بالإيمان يكون بخلاصة من التوحيد الإجمالي، والطهارة من دنس التفريط المعبر عنه بالأيسر يكون

---

(١) هاتين ساقطة.

بخلاصة من التوحيد التفصيلي، والاستقامة على الصراط المذكور والحد الأوسط المعبر عنه بالطهارة الكبرى يكون بجمعه بين التوحيدين، وقطع النظر عن مشاهدة الغير أصلاً ورأساً مع اعتباره ومشاهدته من حيث الجمع المعبر عنه بأحدية الفرق بعد الجمع، وذلك صعب في غاية الصعوبة، ولهذا وصفه النبي ﷺ بأحد من السيف وأدق من الشعر، وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[النجم/ ١٧]، إشارة إلى الطرفين، وقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم/ ٩]، إشارة إلى التوحيد الجمعي المحمدي الجامع للتوحيدات كلها.

وبالجملة ليست الجنابة الحقيقية إلا مشاهدة الغير على أي وجه كان: وليست الطهارة الحقيقية عند التحقيق إلا بعد الخلاص منها على أي وجه كان، وفيه قيل:

قنعت بطيف من خيال بعثتم ... وكنت بوصل منكم غير قانع

إذا رمت من ليلى من البعد نظرة ... لتطوي جوى بين الحشا والأضالع

تقول نساء الحي تطمع أن ترى ... بعينيك ليلى مت بداء المطامع

وكيف ترى ليلى بعين ترى بها ... سواها، وما طهرتها بالمدامع

وأمثال ذلك في هذا المعنى كثير، فليطلب من مظانها، والله أعلم وأحكم وهو يقول الحق وهو يهدي السبيل، هذا غسل الطوائف الثلاث بقدر هذا المقام.

وأما تيمم أهل الشريعة

فالتيمم عندهم عبارة عن طهارة ترابية مع تعذر الماء عوضاً عن الوضوء أو الغسل، وحينئذ لا يجوز التيمم إلا بأحد شروط ثلاثة، أما عدم الماء مع الطلب، أو عدم ما يتوصل إليه من الآلة والثمن كالدلو والحبل وأمثال ذلك، أو الخوف على النفس والمال من استعمال الماء ولا يصحّ أيضاً إلا بالأرض

أو ما يقع عليه اسم الأرض على الإطلاق من تراب أو مدر أو حجر، لأنه تراب عقدته الطبيعة أيضاً. وكيفيته وهي أن يضرب المتيمم يديه على الأرض دفعة ضربة إن كان للوضوء وينفضهما ويمسح بهما وجهه من قصاص شعر الرأس من ناصيته إلى طرف أنفه، ويمسح ببطن يديه اليسرى ظهر كفه اليمنى من الزند إلى أطراف الأصابع، وببطن كفه اليمنى ظهر كفه اليسرى من الزند إلى أطراف الأصابع، وإن كان للغسل يضرب ضربتين، ضربة للوجه والأخرى لليدين، والكيفية فيهما واحدة ونواقض التيمم نواقض الوضوء والغسل، ويزيد عليهما التمكن من استعمال الماء، وكلّ ما يستباح بالوضوء من العبادة يستباح بالتيمم على حد واحد، والله أعلم وأحكم وهو يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وأما تيمم أهل الطريقة

فذلك يحتاج إلى تمهيد مقدمتين، الأولى في تحقيق الماء الحقيقي، والثانية في تحقيق التراب الحقيقي.

فالماء الحقيقي بحكم العقل والنقل عبارة عن العلوم والمعارف الإلهية المسماة بالحياة الحقيقية أيضاً، وبيان ذلك وهو أن الله تعالى أخبر في كتابه بأن حياة كل شيء من الماء لقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ[1] حَيٍّ﴾[الأنبياء/ ٣٠]، ومعلوم أن حياة كل شيء ليس من الماء الصوري، لأن الملك والجن والأفلاك والأجرام وأمثال ذلك يصدق عليهم بأنهم[2] شيء، وليس حياتهم من الماء إن أراد به الماء الصوري والتناول منه، وإن أراد به أن جزء كل مركب من[3] الماء

---

(١) قيل إن حياة كل شيء إنما هو بالماء، وهذا غير جائز في العربية، لأن لو كان كذلك لم يكن حي مجروراً، ولكان منصوباً، وإنما حي صفة الشيء، ومعنى الآية خلق الخلق من الماء ويدل له قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور/ ٤٥].

(٢) انهم.

(٣) من ساقطة.

الصوري، فكثير من الموجودات يخرج عن هذا الحكم كالبسائط والعلويات المذكورة ونحوها، فتقرر أن المراد به العلم، وإن كمال العلم يتفاوت في الشرف والخسة كتفاوت الماء في العذب والاجاج وغير ذلك من الأوصاف، والذي سبق عند بحث التوحيد أن كل موجود له نطق وحياة ومعرفة دالة[1] على صدق هذا المعنى، لأن المراد بالمعرفة العلم بالله وبأسمائه وصفاته وأفعاله، وليس هناك موجود يخلو من هذه العلوم على حسب استعداده واستحقاقه وقابليته كما بيناه أيضاً متمسكاً بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء/ ٤٤]، لأن التسبيح للشيء لا يكون إلا بعد معرفته والإقرار بوجوده وهذان الفعلان لا يصدران إلا من موجود حي بحياة صورية أو معنوية، فصح قولنا إن كل شيء في الوجود له ثلاثة أشياء، العلم والمعرفة والحياة، وقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾[الرعد/ ١٧]، باتفاق أكثر المفسرين من[2] المحققين إشارة إلى هذا المعنى، لأن الماء بمعنى العلم، والأودية بمعنى القلوب، وبقدرها بمعنى الاستعداد والقابلية الحاصلة لكل موجود من غير جعل من الجاعل كما سبق تحقيقه أولاً، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾[هود/ ٧] دال على هذا، لأنه ليس بين العرش الصوري والماء الصوري مناسبة، لا على طريق الشرع وترتيب الموجودات، ولا على طريق العقل وتحقيق المخلوقات، فحينئذ لا بد وأن يكون بمعنى العلم الذي هو الحقيقة الكلية السارية في كل شيء بقدر، ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[يس/ ٣٨]، وهذا الوجه أحسن الوجوه، لأن العرش وغير العرش ليس قيامهم إلا بالحياة، والحياة الحقيقية ليس إلا العلم، فيكون حياة كل شيء بالعلم، ويكون معنى الآية مطابقاً وخصوصية العرش بذلك لأنه أعظم الأجسام وأقرب الأشياء إلى العلويات المجردة، وإذا خصص أعظم الأشياء بشيء من

---

(١) دال.

(٢) المفسرين من ساقطة.

الأوصاف المشتركة بين الكل فلا بد لأحقر الأشياء من ذلك، وكذلك قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[طه/ ٥]، لأن الاستواء ليس إلا بمعنى الاستيلاء، وإذا كان كذلك فخصوصية العرش به يكون من حيث إنه أعظم الأشياء وأعظم الأجسام، والاستيلاء على أعظم الأشياء يستلزم الاستيلاء على أحقرها بطريق الأولوية، وهاهنا أبحاث من حيث المعقول ليس هذا موضعها، فافهم ذلك جداً، والله أعلم بحقائق الأشياء ودقائقها وهو يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وأما التراب الحقيقي الذي بازاء هذا الماء بحكم العقل والنقل عبارة عن العلوم الظاهرة التي هي كالتراب بالنسبة إلى تلك، والقشر[١] إلى تلك اللباب، فكما يكون المراد بالماء الحقيقي العلوم الروحانية والمعارف القدسية، يكون المراد بالتراب الحقيقي العلوم المحسوسة الكسبية والمعارف الفكرية الحدسية، لأن المراد بالتراب في جميع المواضع لو كان التراب الصرف لم يقل الحق تعالى في حق آدم عليه السلام: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾[آل عمران/ ٥٩]، لأن آدم خلقه ليس من التراب فقط، بل من التراب وغيره من العناصر، بحيث يكون التراب جزءاً من أجزاء بدنه، لكن من جهة الأغلبية أشار إليه، وكذلك الحيوان بل وكل موجود، لأن إبليس أيضاً لم يكن مخلوقاً من نار صرف حيث قال: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٍ﴾[الأعراف/ ١٢]، بل من العناصر الأربعة، لكن نسبة نفسه إلى النار للأغلبية، لأن جزء النار أغلب في الجن الذين منهم الشيطان[٢] من أجزاء أخر، فحينئذ يكون المراد بالتراب الأرض وما[٣] عليها من المركبات في خلق آدم، وبالنسبة إلى الماء الحقيقي يكون العلوم الظاهرة الحاصلة من الحس بمعاونة الفكر[٤].

---

(١) تلك القشر.

(٢) الشياطين.

(٣) من

(٤) من الفكر بمعاونة الحس.

وإذا تقرر هذا فكل علم يكون منبعه ومنشؤه الحواس الظاهرة والباطنة كالعلوم الكسبية المذكورة نسبته إلى التراب أولى وأنسب، وكل علم يكون منبعه ومنشؤه الكشف والفيض، من العلوم الإلهية والمعارف الربانية المعبر عنها بالوحي والإلهام واللدني وغير ذلك نسبته إلى الماء أولى وأنسب، وإليهما أشار الحق تعالى في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾[المائدة/ ٦٦]، وقد قرر أن المراد بهذا الفوق العالم الروحاني والعلوم النازلة منه، وبالتحت العالم الجسماني والعلوم الحاصلة منه، لأن قول المفسرين في هذا المقام ليس على الأصل الصحيح، لأنهم قالوا المراد بأكل الفوق المطر وبأكل التحت النبات وليس هذا بصحيح، لأن المطر والنبات يحصل لمن يقوم بالتوراة والإنجيل والقرآن، ولغيره من الإنسان والحيوان اللذين ليس لهما هذا القيام، والحال أن حصول هذين الأكلين موقوف على قيام التوراة والإنجيل والفرقان، ووجود المشروط بدون الشرط مستحيل ممتنع، وهذا لا يخفى على اللبيب الفطن، فأهل الطريقة إذا لم يكن لهم تمكن من طهارة الباطن بماء العلوم الحقيقية لمانع من الموانع يجوز لهم التوجه إلى العلوم الظاهرة المذكورة لاستعمال[1] الباطن وصفاته بقدرها، لأن العلوم الظاهرة في[2] المناسبة كالشريعة، والعلوم الباطنة كالطريقة والتي[3] فوقهما من المعارف كالحقيقة، فالسالك إن لم يتمكن من القيام والطهارة من حيث الطريقة باستعمال الماء الحقيقي[4] الذي هو العلوم الحقيقية يجوز له القيام بالشريعة وطهارة ظاهره بها، لأن طهارة الظاهر على التدريج يؤدي إلى طهارة الباطن، ومن هذا أشار

---

(١) باستعمال.

(٢) في ساقطة.

(٣) والذي.

(٤) ساقطة.

إلى علة التيمم وسببه مفصلا[1] ومبيناً، وقال: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[المائدة/ ٦]، هذا وجه، ووجه آخر وهو:

إنه تعالى أمر عبده بأنه يرجع إلى طهارة النفس بمعاونة البدن الذي هو التراب الطيب، بقيامه بالوظائف الشرعية إن لم يتمكن من طهارة النفس بمعاونة العقل الذي هو كالماء في حصول الطهارة الحقيقية، وغرضه من ذلك ليحصل لعبده طهارة الظاهر قبل طهارة الباطن، لأن طهارة الظاهر معدات لطهارة الباطن كما سبق ذكره، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[المدثر/ ٤ و٥]، لأن المراد بالثياب البدن وما اشتمل[2] عليه من أفعال الظاهر، وبطهارته الطهارة الشرعية، وبالرجز تعلقه بالدنيا وتلوثه بها، فإن الدنيا جيفة وطلّابها كلاب، ويجوز أن يكون ذلك إرشاداً للسالك برجوعه إلى الفناء الأصلي والعدم الجبلي قهراً[3]، المسمى بالتراب الذي هو منه بحسب الظاهر البدن[4]، وبالماء الذي هو أصله أيضاً بوجه آخر، أما التراب فلقوله: ﴿خَلَقَكُم[5] مِّن تُرَابٍ﴾[فاطر/ ١١]، وأما العدم فلقوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾[مريم/ ٩]، أعني إن لم يتمكن السالك من استعمال الماء الحقيقي وتحصيله لطهارة الباطن من الأحداث العارضة عليه، فليرجع[6] إليه وإلى خلقته الترابية التي هي ارذل الأشياء وأخسها، ليحصل له

---

(١) ساقطة.

(٢) يشتمل.

(٣) قهقرى.

(٤) والبدن.

(٥) في النسخة الثانية: وقد خلقكم.

(٦) فلترجع.

بذلك الكسر التام والمذلة الكلية، ويصل بها إلى مقام الفقر والانكسار الموجبان للدخول إلى حضرة العزة المعبرة عنها بالجنة الذاتية لقوله: أنا عند المنكسرة قلوبهم، ولقول عارفي[1] عباده: إذا تم الفقر فهو الله، وكذلك الاستغراق في بحر ماء الحياة الأبدية التي بها تحصل الطهارة الحقيقية المشار إليها، والدخول في بيت الله الأعظم والمسجد الأقصى وبيت الله الحرام المحرم على غيره الدخول فيه، وإلى الوجه الأخير المتمثل بالتراب والفقر والانكسار أشار الشيخ قدس الله سره في فتوحاته في فصل مفرد وقال: القصد إلى الأرض من كونها ذلولاً وهو القصد إلى العبودية مطلقاً، لأن العبودية هي الذلة والعبادة منها، فطهارة العبد إنما تكون باستيفاء ما يجب أن يكون العبد عليه من الذلة والافتقار والوقوف عند مراسم سيده وحدود أحكامه وامتثال أوامره، فإن فارق النظر من كونه أرضاً فلا يتيمم إلا بالتراب من ذلك، لأنه من تراب من نحن ابناؤه وبما بقي فيه من الفقر والفاقة من قول العرب: تربت يد الرجل إذا افتقر، ثم إن التراب أسفل العناصر، فوقوف العبد مع حقيقته من حيث نشأته طهور من كل حدث يخرجه من هذا المقام، وهذا لا يكون إلا بعدم وجدان الماء، والماء العلم، فإن بالعلم حياة القلوب كما أن بالماء حياة الجسد أو حياة الأرض، فكأنه حالة المقلد في العلم بالله، والمقلد عندنا في العلم بالله هو الذي يكون قلد عقله في نظره[2] في معرفته بالله من حيث الفكر، فكما أنه إذا وجد المتيمم الماء أو قدر على استعماله بطل التيمم، كذا إذا جاء الشرع بأمر ما من العلم الإلهي بطل تقليد العقل لنظره في العلم بالله في تلك المسألة، ولاسيما إذا لم يوافقه في دليله كان الرجوع بدليل العقل إلى الشرع، فهو ذو شرع وعقل معاً في هذه المسألة، فاعلم ذلك فإنه ينفعك كثيراً

---

(١) ساقطة.

(٢) لنظره (فتوحات).

في إدراك أسرار العبادات، وقد أشار[1] أيضاً إلى تقسيم الماء وتخصيصه بالعلوم الحقيقية المتنوعة وتقسيم التراب وتخصيصه بالعلوم المجازية المتفننة في فصل مفرد تركناه خوف الإطالة والملالة، والمراد واحد وهو الذي ذكرناه وبيناه.

وبالجملة يجب على السالك التيمم على الوجه المذكور، ليحصل له التمكن عن استعمال الماء المذكور الذي هو العلوم الحقيقية، وترتيب هذا التيمم وهو أن يمسح وجهه أولاً بالتراب المذكور، أي يطهر سره وحقيقته من حدث كل تعلق وخبث كل محبوب غيره تعالى، ويزين ظاهره بالأعمال الشرعية والقوانين النبوية، ثم يمسح يمينه أي قلبه ليطهره من التعلق بالآخرة وما يتعلق بها من النعيم والحور والقصور وأمثال ذلك، ثم يمسح شماله أي نفسه من التعلق بالدنيا وما يتعلق بها من المال والجاه وذكر الخير[2] وأمثال ذلك، فإن طهارتهما ليست إلا بتركهما، أعني طهارة اليمين والشمال ليست إلا بترك الدنيا والآخرة كما مر ذكره غير مرة، ولهذا شرط فيه مس ظاهر اليمين بباطن اليسار، ومس ظاهر اليسار بباطن اليمين، لئلا يخالف ظاهره باطنه، وباطنه ظاهره، ويكون طهارة هذا معيناً لطهارة ذاك وبالعكس، وذلك تقدير العزيز العليم وهو يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وأما تيمم أهل الحقيقة

فالتيمم عندهم عبارة عن فنائهم عن عالم الظاهر بأسره، أعني منه ومما اشتمل عليه من البسائط والمركبات، لأن هذا يطهرهم عن الأنانية والغيرية اللازمة لتعلقهم بالدنيا وما فيها، وذلك لأن عالم الظاهر المعبر عنه بالملك بمثابة التراب، كما أن عالم الباطن المعبر عنه بالملكوت بمثابة الماء، لأن الله

---

(١) كذا في النسختين والظاهر: أشرنا.

(٢) وذكر الخير ساقطة.

تعالى ما يشير إلى عالم الملك في أكثر المواضع إلا بالأرض، كما لا يشير إلى عالم الملكوت في أكثر المواضع إلا بالسماء، والأرض لها مناسبة بالتراب لثقلها وكثافتها و[1]بل هي التراب حقيقة، والسماء لها مناسبة بالماء للطفها وخفتها و[2]بل هي الماء حقيقة، لأنها من الماء وجدت باتفاق أهل الشرع وبتطبيق الآفاق بالأنفس، وبيان ذلك وهو: أنهم إذا فرغوا من طهارة باطنهم بإفناء الروحانيات الذي هو كالنية في الطهارة وكالماء في استعماله، شرعوا في طهارة ظاهرهم بإفناء الجسمانيات الذي هو كالفعل[3] في الطهارة وكالتراب في تيممه، وهذا هو المعبر عنه عند أهل الله بفناء الفناء، والفرق بين أهل الطريقة في هذه الطهارة وبين أهل الحقيقة وهو أن أهل الطريقة يتطهرون في الطهارتين عن الأخلاق الذميمة والملكات الردية باتصافهم بالأخلاق الحميدة والملكات الحسنة، وأهل الحقيقة يتطهرون فيهما عن الأنانية والبقية المؤدية إلى الاثنينية والغيرية لقول النبي ﷺ: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله كل يوم وليلة سبعين مرة» ولقول عارف أمته:

بيني وبينك إني ينازعني   فارفع بفضلك اني من البين

والغين المشار إليه في قول النبي ﷺ ليس إلا رجوعه إلى عالم الكثرة للدعوة والارشاد الذي هو من مقتضى التكميل وعالم البشرية لقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[فصلت/ ٦] وقوله: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾[الجن/ ٢٣] يشهد بذلك، والتجرد التام والوحدة الحاصلة له في بعض الأوقات بحكم قوله: «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل» يشهد بأنه كان في عالم الوصول والقرب التام[4] الذي هو من اقتضاء عالم البقاء بعد الفناء و﴿قَابَ

---

(١) «و» ساقطة.

(٢) «و» ساقطة.

(٣) الفعل.

(٤) التامي.

﴿قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[النجم/ ٩] من اقتضاء ذلك المقام، و﴿أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[فصلت/ ٦] من اقتضاء المقام الأول، وكذلك الطهارة أعني الطهارة المائية والطهارة الترابية المعبر عنهما بإفناء عالم الملك والجسمانيات وإفناء عالم الملكوت والروحانيات، ونفض اليدين بعد ضربهما على التراب في التيمم إشارة إلى نفض اليدين عن العالمين بعد التعلق بهما، فافهم جيداً فإنه لطيف.

وترتيب هذه الطهارة وهو أن يضرب العارف بيديه اللذين[1] هما العقل والنفس على أرض عالم الظاهر وعالم الباطن ونفيهما عن النظر بالكلي، ثم ينفض أيديهما المذكورتين عن رؤية هذا الفناء بالكلي أيضاً، ثم يمسح بهما وجهه الحقيقي المعبر عنه بالسر تارة وبالروح[2] أخرى، حتى بقي من محبة العالمين عنده شيء أم لا، ثم تمسح بكل واحد من اليدين المعبر عنهما بالعقل والنفس ظهر كل واحدة منهما وبطنهما، ليعرف حقيقة أنه بقي عليهما من التعلق بالعالمين أثر أم لا. فإن التعلق بالغير مطلقاً قليلاً كان أو كثيراً يمنع عن الطهارة الحقيقية مائية كانت أو ترابية، فيجب على السالك التفتيش لظاهره وباطنه مع افنائهما على أنه بقي فيهما شيء من التعلق بالعالمين أم لا، ويعضد ذلك قوله ﷺ: «الدنيا حرام على أهل الآخرة والآخرة حرام على أهل الدنيا وهما حرامان على أهل الله»، وقد سبق أيضاً أن محبة الدنيا والآخرة حجاب وشرك، ومع الحجاب والشرك يستحيل حصول الطهارة المذكورة، فإن صاحب الحجاب والشرك نجس بحكم قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[التوبة/ ٢٨]، والطهارة والنجاسة ضدان لا يجتمعان، فيجب أولاً رفع النجاسة ثم الشروع في الطهارة على الوجه الذي بيناه. وإليه الإشارة بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[المدثر/

---

(١) الذين.

(٢) الروح.

١ ـ ٥]، لأن قوله ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ إشارة إلى طهارة الظاهر كما مر ذكره ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ إلى طهارة الباطن بهجرانه الرجز المعبر عنه بالشرك والحجاب والغيرية، وأمثال ذلك في القرآن والأخبار كثيرة فاطلبها من مظانها، هذا آخر الطهارات الثلاث من الوضوء والغسل والتيمم بقدر هذا المقام والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وأما معرفة القبلة والوقت والمكان وأخواتها فتلك تطلب من مظانها من الكتب الفقهية، فإن هذا البحث قد طال ولا يحتمل أكثر من ذلك، مع أن هناك أبحاثاً أخر كما ستعرفها لا بد منها، وإذا فرغنا من المقدمات فلنشرع في حكمة[1] أوضاع الصلاة التي هي أيضاً من الأبحاث الموعودة عند بحث الفروع، وهي هذه وبالله العصمة والتوفيق.

ضابطة كلية في حكمة أوضاع الصلاة على الوضع المخصوص مطابقاً للعقل والنقل والكشف[2]

اعلم أيها السامع كحل الله عين بصيرتك بنور الهداية والتوفيق، أن جميع الأوضاع الإلهية والقوانين الربانية مبنية على رعاية الزمان والمكان والاخوان، صورية كانت أو معنوية أو كلاهما، أما الزمان فمثل زمان الصلوات والصوم والزكاة والحج والجهاد وغير ذلك من الأعياد والزيارات والاجتماعات المستحسنة، وأما المكان فمثل مكة والمدينة والمسجد الحرام والكعبة والمسجد الأقصى والصخرة ومسجد الكوفة ومسجد البصرة ومدافن الأنبياء والأولياء عليهم السلام ومشاهد الأئمة المعصومين من أهل البيت عليهم السلام، وأما الإخوان فكالأنبياء والرسل والأولياء والأوصياء وأولي العزم من الرسل والأئمة الراشدين وخلفاء الله في الأرضين والصحابة والتابعين رضوان الله

---

(١) الحكم.

(٢) كذا في النسختين المخطوطتين، ولكن في مخطوطة المجلس كانت هاهنا جملة (الجزء الثاني) وهذه صحيحة أيضاً بحسب تجزئة المؤلف قدس سره كما يشير إليها في الفصول الآتية.

عليهم أجمعين، ثم الملائكة على العموم ثم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل على الخصوص وأمثالهم من الملائكة وعباد الله الصالحين، وبيان ذلك مفصلاً وهو:

إن الزمان من حيث الزمان وإن كان واحداً لكن فيه زمان مخصوص بوقت الصلوات والصوم والعبادات المذكورة، بحيث لا تحصل تلك العبادات بدونه، وذلك من خصوصيته وشرفه على باقي الزمان المطلع عليه النبي أو الرسول بالوحي الخاص من عند الله، كما أن الصلاة مثلاً فإنها لا تصح قبل وقتها كما لا تصح بعد وقتها، وكذلك جميع العبادات، ومثال ذلك مثال شخص يتوفى ويوصي لأولاده بكنز في موضع معين، ويعين لهم أن من الحائط الفلاني يعدون عشر خطوات إلى الجانب الفلاني ويأخذون الكنز، فأولاده لو عدوا إحدى عشرة[1] خطوة ما لقوا الكنز، وكذلك التسع، فيجب عليهم محافظة الأعداد ورعاية الجانب المعين، حتى يلقون كنزهم، فكذلك في العبادات والأزمان المقررة لها. فإنها لو وقعت مثلاً في غير وقتها لا يقبل منها شيء ولا يحصل لصاحبها ثواب أصلاً، وكذلك المكان، لأن المكان من حيث هو المكان وإن كان واحداً لكن لبعض الأمكنة خصوصية وشرف ليس لغيرها، ولا يحصل المقصود بدونه، كالكعبة والمسجد الحرام والمسجد الأقصى وغير ذلك من الأمكنة المخصوصة، وكذلك الإخوان، لأن الإخوان من حيث هم إخوان وإن كانوا واحداً لكن لبعضهم خصوصية وشرف ليس للبعض الآخر منها شيء، كالأنبياء والرسل والأولياء والأوصياء وأمثالهم، وعند التحقيق لم يكن وضع الصلوات[2] اليومية وصلاة الجمعة والأعياد والحج وأمثال ذلك إلا لأجل اجتماع هذه الثلاث، فإن الصلوات اليومية في

(١) في النسخة الثانية أحد عشرة.

(٢) الصلاة.

المحلات مشتملة عليها، وصلاة الجمعة والجماعة في المدينة كذلك، والحج والزيارات في[1] الأقاليم كذلك، أعني المكان الذي يصلون فيه الصلوات أو[2] يحجون فيه الحج ويقضون المناسك أو يزورون فيه الزيارات، وهو مكان مخصوص معين موسوم ببيت الله وبيت عبيده جامع للزمان والإخوان، لأن الصلاة لا بد لها من الوقت المعين في ذلك المكان، وذلك الوقت هو الزمان، ولا بد من جماعة يصلون فيه الصلاة أو يحجون فيه الحج، وذلك الجماعة هم الاخوان، فحصل في فعل واحد المكان والزمان والاخوان ، والحكمة في ذلك إجابة دعائهم فيما يدعون الله من الخير. واستحقاق الفيض الإلهي على نفوسهم فيما يستحقونه بالاستحقاق الذاتي والاستعداد الجبلي الذي لا يحصل بدون هذا الاجتماع على الأغلب و بل لا يمكن إلا به، لأن لكل اجتماع وصورة حكمة وفائدة لا توجد في غيرها كالأعداد مثلاً، فإن في الثلاث خاصية ليس في الأربع وبالعكس، وكذلك بالنسبة إلى جميع الأعداد من العشرة والمائة والألف وما بين هذه المراتب، وقيل: إن هذا الترتيب وإن كان من اقتضاء ترتيب الوجود لكن من حيث الحقيقية ليس إلا من اقتضاء الحقيقة المحمدية التي هي جامعة لهذه المراتب صورة ومعنى، وإليه الإشارة بقوله: «أُوتيت جوامع الكلم وبعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، لأن هذا الكلام من اقتضاء التثليث الغالب عليه وعلى حقيقته كالنبوة والرسالة والولاية، والإسلام والإيمان والإيقان، والوحي والإلهام والكشف وأمثال ذلك من حيث المعنى، وكالمحبة للطيب والنساء والقيام بالصلاة وأمثالها من حيث الصورة لقوله: «حبب لي من دنياكم ثلاث، الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة».

---

(١) في النسخة الثانية «و».

(٢) في النسخة الثانية «و».

والغرض من تقديم هذه المقدمات أنه: لما اقتضى ذاته الاجتماعات بين الأشياء والائتلاف بين الموجودات خصوصاً بين نوع الإنسان، كان غالباً عليه وضع أمثال هذه الأوضاع التي توجب الائتلاف والاجتماع، لأن العلة الغائية من ظهوره وظهور الأنبياء والرسل لم يكن إلا هذا، ومعلوم أن اجتماع طائفة مخصوصة من موضع مخصوص على وضع مخصوص مراراً متعددة في يوم واحد أو أكثر أو أقل يكون موجباً لاشتداد المحبة بينهم واستحكامه بقدر استعدادهم واستحقاقهم، كصلاة الجماعة في المحلة وصلاة الجمعة في المدينة والحج في كل سنة من مكة وغير ذلك من الاجتماعات، فإن العقل الصحيح يحكم بالائتلاف والمحبة بينهم بلا خلاف، وقد شهد به الكتاب الكريم في مواضع شتى، وتفصيل ذلك وهو أن المحبة كما تحصل من اجتماعهم في كل يوم خمس مرات في محلتهم، تحصل أيضاً من اجتماعهم كل جمعة في المدينة والمسجد الجامع، وتحصل أيضاً في بعض الشهور والأوقات في موضع معين من الأعياد والزيارات وتحصل أيضاً من اجتماع أهل الأقاليم في موضع معين للحج، لأن هذه الأوضاع ما وضعت إلا لأجل هذا كما سبق ذكره، وفي غير المحبة أيضاً فوائد أخر، كالمعاملات بينهم والمناكحات وغير ذلك من المعارف بين أهل كل إقليم وكل بلدان التي توجب تلك المعارف معارف أخر وهلم جرا، ولهذه الأوضاع أسرار وأبحاث لا يحتمل بعض ذلك هذه المقامات، لأنها يحتاج إلى مجلدات معتبرة، والغرض أن الكل مبني على الزمان والكل والإخوان.

وإذا عرفت هذا فاعلم: أن معراج النبي ﷺ مشتمل على هذا، وكذلك بحسب المعنى أيضاً، وحيث إن المعراج معراجان، صوري ومعنوي، نشرع أولاً في بيان المعراج الصوري ثم في بيان المعراج المعنوي، لأن فيه اختلافاً كثيراً بين العلماء والعوام، وبين الحكماء والصوفية.

فالمعراج الصوري

هو أن النبي ﷺ أراد أن يحصل له هذه الاجتماعات الثلاثة بحسب الصورة، كما كان له حاصلاً بحسب المعنى في جميع الأمكنة الشريفة في السماوات والعرش وما بينهما، فمجيئه بحسب الصورة من المسجد الحرام إلى مسجد الكوفة ثم منه إلى المسجد[1] الأقصى، ثم عروجه منه إلى السماوات السبع ثم إلى الكرسي ثم إلى العرش كما أخبر به الخبر والقرآن كان لأجل ذلك، أي لأجل الاجتماعات الثلاثة المذكورة، أما من طرفه أو من طرف سكان تلك الأمكنة واستدعائهم منه، فإن هذه الاجتماعات علة في إفاضة كمالاته عليهم، وسبب في زيادة كمالهم منه، لأنه يخرجهم من نقصهم ويوصلهم إلى كمالهم المعين لهم بحسب استعداداتهم وقابلياتهم، أما الخبر فكخبر ليلة الإسرى[2] وله طول وعرض، وأما القرآن فكقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الإسراء/ ١]، وقوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ يدل على عبوره على تلك الأمكنة الشريفة بحسب الصورة كما سنبينه في موضوعه إن شاء الله تعالى، وورد أنهم التمسوا من الله تعالى هذه الصورة المشتملة على هذه الاجتماعات، والحق تعالى أمر نبيه بذلك، أي بالعبور والعروج على تلك الأمكنة بجسده من حيث الصورة، حتى ورد أنه أراد أن يخلع نعليه عند عروجه إلى السماء كما خلع موسى عليه السلام عند صعوده إلى الطور، فقالت الملائكة يا نبي الله لا تخلع، فإنا نريد أن تصل بركة نعليك إلى أمكنتنا، وهذا كله ليس ممتنعاً ولا مستحيلاً على الله تعالى، لأنه ممكن مقدور، والله تعالى قادر على الممكنات والمقدورات، وأيضاً قد تقرر في الحكمة الإلهية والقوانين الربانية أن الأنبياء والأولياء والكمّل والأقطاب، لهم

---

(١) مسجد.

(٢) هكذا وردت (ليلة الإسرى) وواضح أنها (ليلة الإسراء) (العاملي).

هذه الخصوصية وهذا التصرف في الملك والملكوت، لأن الشخص إذا صار كاملاً واستحق خلافة الله تعالى في ملكه وملكوته حصل له التصرف فيهما بما أراد كتصرف بعض أولياء الله في الأرض بالطي والنشر، ومنه تصرف آصف في الأرض بطيه حين أراد حضور تخت[1] بلقيس، وكتصرف موسى عليه السلام في الماء بشقه حين أراد هلاك فرعون ونجاة أهله، وكتصرف سليمان عليه السلام في الهواء بالركوب عليه والسير به بما أراد كما أخبر به الكتاب الكريم، وكتصرف إبراهيم عليه السلام في النار حين أُلقي فيها بالتبريد والخمود وعدم الإحراق، وكتصرف نبينا صلى الله عليه وآله بعد تصرفه في هذه الأربع حين أراد ظهور المعجزة في ملكوت القمر وشقه[2] بحيث رآه الكفرة وغيرهم من المسلمين، وكتصرف شمعون الذي هو من أوصياء عيسى عليه السلام في ملكوت الشمس بردها من المغرب إلى المكان الذي أراد، وكتصرف علي عليه السلام بعد الكل في ملكوت الشمس بردها أيضاً إلى مكان الصلاة مرتين، مرة في المدينة ومرة في أرض بابل كما هو مذكور في كتب الشيعة والسنة، وكتصرف إدريس عليه السلام في ملكوت السماوات بصعوده عليها وبقائه فيها إلى الآن، وكتصرف عيسى عليه السلام كذلك وعروجه إليها، وأيضاً قد تقرر أن الملك والجن يتشكلون بأي شكل أرادوا ويدخلون في أي عالم كان، والإنسان أشرف منهم بالاتفاق، بل وهم مأمورون بسجدة الإنسان وخدمته ومطاوعته ومتابعته في جميع الأمور، فكيف لا يتمكن هو من أمثال هذه وهم يتمكنون؟، وبل يجب أن يكون هو أقدر منهم على ذلك وأمثاله، ويعرف صدق هذا أيضاً من قصة الأبدال وكيفية تبديلهم من صورة إلى صورة أخرى، وحضورهم في أمكنة مختلفة على صورة واحدة

---

(١) كلمة تخت فارسية وتسامح واستغراق لحضرة المؤلف قدس سره والصحيح سرير بلقيس أو عرش بلقيس كما نطق به القرآن أو كلمة تخت بلقيس اصطلاح رائج وفي نظر المؤلف لا بأس بإيراده.

(٢) ساقطة.

وكذلك في ظهور جبرائيل بصورة دحية الكلبي في هذا العالم مراراً متعددة وغيره من الملائكة، كظهورهم لأجل النبيﷺ في يوم بدر وحنين وغير ذلك، وإذا سلمت هذا كله وسلمت أن الإنسان أشرف المخلوقات وأعظمها، وسلمت أن نبيناﷺ أعظم نوع الإنسان وأشرفه، فلم لا تسلم أن كل إنسان كامل تمكن منه مثل هذه التصرفات؟، ولم ما تسلم أن أشرف الأنبياء والأولياء يمكن منه مثل هذه التصرفات وأكثر؟، لأن العروج إلى السماء أقل تصرف من تصرفه في ملكوت القمر وملكوت الشمس وتصرفه في جبرائيلعليه السلام حين أراد نزوله، وكم مثل ذلك في هذا الباب، فافهم جيداً واعتقد صدقاً فإنه لا ينفعك غير هذا، وإذا فهمت هذا وتقرر عندك أن المعراج الصوري حق وصدق فلنشرع في بيان المعراج المعنوي وهو هذا وبالله التوفيق.

وأما المعراج المعنوي

فذلك معلوم محقق متفق عليه أكثر الناس، فإنه عبارة عن وصوله إلى الحق تعالى في تلك الليلة المعينة المسماة بليلة الاسرى[1] بطريق التوحيد الذاتي المسمى بأحدية الفرق بعد الجمع، واطلاعه على حقائق الأشياء على ما هي عليه لقوله: «أرنا الأشياء كما هي» ولقوله: «علمت في تلك الليلة علوم الأولين والآخرين»، وهذا المقام له مناسبة إلى مقام إبراهيمعليه السلام حين قال تعالى في حقه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾[الأنعام/ ٧٥]، ومناسبة النبي إلى إبراهيمعليه السلام بحكم القرآن ومطابقة البرهان معلوم محقق أيضاً، ومعلوم أن مثل هذا المعراج لا يحتاج إلى حركة صورية ولا مسافة جسمانية، بل إلى عدم الحركة ظاهراً وباطناً، أما ظاهراً فلأن الحركة الظاهرة عبارة عن السير بحسب الصورة من مكان إلى مكان آخر، وهذا المعراج غير محتاج إليه، وأما باطناً فلأن الحركة في الباطن عبارة

---

(١) ليلة الإسراء (العاملي).

عن الفكر من المبادىء إلى المقاصد بحسب المعنى، والفكر في هذا الطريق حجاب باتفاق أهل الله، كما قال علي عليه السلام : عرفت الله بترك الأفكار، فلا يكون حصول هذا المقام المعبر عنه بالمعراج إلا بطرح الحركتين وقطع النظر عنهما وعن جميع ما يطلق عليه اسم الغير، وقد سبق ذكره مراراً، ومن هذا قال جعفر بن محمد الصادق عليه السلام الذي كان قطب الوقت وإمام زمانه عقلاً ونقلاً وكشفاً : من عرف الفصل عن الوصل، والحركة عن السكون فقد بلغ القرار في التوحيد، والمراد بالفصل الفرق الأول والكثرة الرسمية الخلقية، وبالوصل الجمع الذي هو بازاء الفرق المذكور، وبالحركة السلوك، وبالسكون القرار في عين أحدية الذات، وقد يعبر عن الوصل بفناء العبد عن أوصافه في أوصاف الحق، وهو التحقق بأسمائه[1] المعبر عنها بالإحصاء، كما قال عليه السلام : من احصاها دخل الجنة، وعن الفصل باحتجاب العبد بأوصافه وأوصاف الخلق واعتبارهم مطلقاً، لأن كل من احتجب برؤية الغير و[2]هو منفصل عن الحق ومشاهدته في عين التوحيد.

وإذا تقرر[3] هذا فاعلم أن الأسفار المعنوية المعبر عنها بالمعراج أربعة بالاتفاق، الأولّ هو السير إلى الله من منازل النفس إلى الوصول إلى الأفق المبين، وهي نهاية مقام القلب ومبدأ التجليات الاسمائية، الثاني هو السير في الله بالاتصاف بصفاته والتحقق بأسمائه إلى الأُفق الأعلى، وهي[4] نهاية الحضرة الواحدية، الثالث هو الترقي إلى عين الجمع والحضرة الأحدية وهو مقام قاب قوسين ما بقيت الاثنينية، فإذا ارتفعت فهو مقام أو أدنى وهو نهاية الولاية، والرابع هو السير بالله عن الله للتكميل وهو مقام البقاء بعد الفناء

---

(١) بالأسماء.

(٢) كذا في النسختين والظاهر «و» زائدة.

(٣) تحقق.

(٤) ساقطة.

والفرق بعد الجمع، وأن لكل واحدة من هذه الأسفار بداية ونهاية، أما بدايتها فقد عرفتها من ابتداء سير كل مرتبة ونهايتها، فنهاية السفر الأول وهو رفع حجاب الكثرة عن وجه الوحدة، ونهاية السفر الثاني هو رفع حجاب الوحدة عن وجوه الكثرة العلمية الباطنية، ونهاية السفر الثالث هو زوال التقييد بالضدين الظاهر والباطن بالحصول في أحدية الجمع، ونهاية السفر الرابع عند الرجوع عن الحق إلى الخلق في مقام الاستقامة هو أحدية الجمع والفرق، بشهود اندراج الحق في الخلق واضمحلال الخلق في الحق، حتى يرى العين الوحدة في صور الكثرة، وصور الكثرة في عين الوحدة، وليس هناك نهاية ولا سفر غير هذه الأربعة، وكذلك العروج بالنسبة إلى الكل نبياً كان أو رسولاً أو ولياً أو وصياً، والتفاوت بينهم يقع بحسب الاستعداد والاستحقاق، وهذا المعراج يجوز أن يكون في ليلة واحدة ويجوز أن يكون في ساعة واحدة، ويجوز أن يكون في طرفة عين، ويجوز أن يكون بعد مجاهدة أربعين سنة، وبل أربعين ألف سنة وأكثر وأقل، لأنه ليس له حد محدود ولا زمان مخصوص، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وإذا عرفت هذا فاعلم أن قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الإسراء/١] شاهد عدل على صدق هذه الدعوى، فإن قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾، معناه سبحان الذي اسرى بعبده الحقيقي الذي هو محمد ﷺ ليلاً، أي في ليلة الكثرة الخلقية الرسمية الاعتبارية ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، أي القلب الحقيقي الحرام على غيره الدخول فيه ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾، أي حضرة الروح وعالم المشاهدة الذي هو أقصى[1] مراتب المشاهدات، وقوله ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾، أي من نعم

---

(١) أقصى نهاية.

الحقائق والمعارف ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾، أي لنريه من آياتنا الدالة على ذاتنا وصفاتنا وأسمائنا وأفعالنا، وبل على مشاهدتنا في عوالمنا الروحانية والجسمانية، وقوله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، أي لأنه هو السميع الحقيقي باستدعاء[1] عبده، البصير باستحقاق[2] كل واحد منهم.

وبيانه مرة أخرى أوضح من ذلك وهو أن المسجد الحرام يكون قلبه الحقيقي الحرام على غير الحق تعالى، لأنه محله الخاص ومنزله المخصوص لقوله فيه: لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن، ونسبة هذا القلب إلى المسجد الحرام الذي هو قبلة أهل العالم، لأنه[3] أرض قبلة جميع أعضائه الظاهرة والباطنة، وقواه الصورية والمعنوية، وأنه أول صورة ظهرت من صور الإنسان حين كان نطفة أو علقة أو مضغة، كما أن الكعبة أول بيت وضع للناس ببكة مباركاً، والمسجد الأقصى يكون روحه الذي هو المضاف إليه لقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾[الحجر/ ٢٩]، لأنه أقصى مراتب المشاهدة وأعلى درجة الكشف لقول الإمام عليه السلام: وقلبي بمعرفتك وروحي بمشاهدتك، ولقول جده صلى الله عليه وآله: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً»، ونسبته إلى المسجد الأقصى الذي هو قبلة أهل الشرق من أمة عيسى عليه السلام، لأن الروح من عالم الروحانيات الذي هو بالنسبة إلى العالم كالمشرق كما قررناه، لأنه قبلة قلب الإنسان، كما أن القلب قبلة جميع الجسد، والكعبة مثلاً بالنسبة إلى المسجد، والمسجد بالنسبة إلى الحرم، لأن البدن بمثابة الحرم والقلب بمثابة المسجد والروح بمثابة الكعبة وقوله ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ إشارة إلى الروح وما حوله، وتقديره أي باركنا حوله بنعم المعارف والحقائق والأسرار والدقائق، وكان العلة في ذلك أي في العروج، لنريه من آياتنا

---

(١) الاستدعاء.

(٢) لاستحقاق.

(٣) أي انه.

الأنفسية دون الآفاقية مشاهدة ذاتنا وصفاتنا في ذاته وصفاته مشاهدة شهود وعيان، ونجعله بعد ذلك سميعاً لأقوالنا وأسرارنا، بصيراً لإشاراتنا ورموزنا، لأنه الخليفة في ملكنا وملكوتنا، وإليه الأمر في آفاقنا وأنفسنا، ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[القصص/ ٧٠]، أي له الحكم فيهما والنصب والعزل تارة بالنسبة إلى أهلها، وإليه يرجعون في حوائجهم وقضائها، أعني في مصالحهم الدينية والدنياوية، وكأنه من لسان[١] مثل هذا الخليفة قيل ما قد قيل:

قلمي ولوحي في الوجود بمده

قلم الإله ولوحه المحفوظ

ويدي يمين الله في ملكوته

ما شئت اجري والرسوم حظوط[٢]

وكذلك خلق الله تعالى آدم على صورته، وكذلك ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[الرحمن/ ١ ـ ٤]، وكذلك أنا الحق، ومن مثلي، وهل في الدارين غيري، وأمثال ذلك لا يخفى على أهله، هذا من حيث الأنفس.

وأما من حيث الآفاق فسبحان الذي أسرى بعبده في ليلة الكثرة الخلقية المشار إليها بالغير ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الذي هو عالم الجسم والجسمانيات الحرام فيه دعوى الوجود والبقاء على غيره من الموجودات في المخلوقات ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ الذي هو عالم الروحانيات والمجردات ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ بنعم مشاهدة العقول والنفوس وحقائق المعارف الملكوتية والجبروتية ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾، أي من آياتنا الآفاقية والأنفسية التي هي

---

(١) لسان هذا الخليفة.

(٢) أي حظوظي.

مظاهرنا الاسمائية والصفاتية، واللام في لنريه لام التعليل، ومعناه أن عروجه إلى هذه العوالم المختلفة كان لأجل هذه المشاهدة كشفاً وذوقاً، كما كان قبل هذا علماً وبياناً، وتقديره أي لنريه حقائق آياتنا ودقائق مظاهرنا ليشاهدنا في عالمي الآفاق والأنفس كشفاً وذوقاً بطريق التوحيد الجمعي المحمدي المعبر عنه بأحدية الفرق والجمع الذي هو مشاهدة الكثرة في عين الوحدة، ومشاهدة الوحدة في عين الكثرة من غير الاحتجاب بأحدهما عن الآخر لقوله فيه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾[فصلت/ ٥٣ و٥٤] أيضاً: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[الأنفال/ ١٧] دال على هذا، لأنه إثبات في عين النفي ونفي في عين الإثبات ولا يتيسر الجمع بين هذين النقيضين إلا بطريق التوحيد المذكور، وقوله في الآية ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ معناه أنه هو السميع باستدعاء كل طالب الذي يطلب بلسان حاله واستعداده لقوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾[إبراهيم/ ٣٤]، البصير باستحقاق كل عبد أزل الآزال وأبد الآباد بحيث يعطي لكل أحد منهم ما يناسب ويوافق مقامه ومنهم النبيﷺ، فإنه كان سميعاً باستدعائه الأزلي، بصيراً باستعداده الجبلي، وأعطاه ما كان مناسباً لحاله، موافقاً لمقامه، ولهذا قال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[النساء/ ١١٣]، فإنه علمه في هذه الليلة علم الأولين والآخرين، والجواد الكريم لا يعطي شيئاً إلا على الوجه الذي ينبغي، أعني لا أزيد ولا أنقص، بل بموجب القسط والعدل المعبر عنهما بوضع كل شيء موضعه، هذا آخر المعراجين[1] الصوري والمعنوي، وإذا تقرر هذا وعرفت سر الاجتماعات المشتملة على الزمان والمكان والاخوان وغير ذلك من الأسرار،

---

(١) المعراج.

فلنرجع إلى الغرض والبحث الذي نحن بصدده من بحث الصلاة وأوضاعها وأعدادها وغير ذلك من الحكمة المترتبة عليها، وهي هذه: اعلم أنه قد سبق قبل هذا أن هذه الأصول الخمسة والفروع الخمسة بأسرها هي وضع الأنبياء والرسل بأمر الله وإذنه لتكميل الناقصين ووصولهم إلى كمالهم المعين لهم في العلم الإلهي، وقد سبق أيضاً[1] أن هذا لم يكن يتيسر إلا بتكميل قوتي العلم والعمل المعبرة عنهما بالقوة النظرية والقوة العملية، وقد سبق أن الناس في وصولهم إلى كمالهم لو كانوا محتاجين إلى أكثر من ذلك لوجب على الله تعالى بيانه، وعلى الأنبياء والرسل تبيانه، ولكن لم يكن لهم احتياج إلى غير هذا، فما أمرهم الله تعالى به، ولا أمر نبيه أن يأمرهم، كالطبيب الحاذق الذي يعطي المريض الدواء، فإنه يعطيه الدواء الذي ينبغي، لا أزيد ولا أنقص، فافهم جيداً، وقد سبق أن هذه كلها ضوابط كلية وقواعد حملية مقررة بين الأنبياء والرسل لأجل إزالة النقصان من بين الناس وإيصالهم إلى كمالهم، كالقاعدة المقررة بين الأطباء الصورية لأجل إزالة المرض وإيصال الصحة إلى المرض، وما وقع الخلاف بينهم في هذا أصلاً إلا في بعض الفروع في بعض الأزمان لأجل مصلحة تلك الزمان وأهلها، الذي عند التحقيق هو أصل الاتفاق وعين الوفاق لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء/ ٨٢]، وإذا تقرر هذا كله يجب عليك أن تعرف كل ما كان النبي أو الرسول أعظم كان وضعه لهذه الأصول وترتيبه لهذه الفروع أعلى وأعظم، ونبيناعليه السلام بالاتفاق أشرف الأنبياء وأعظمهم، فيجب أن يكون وضعه أعظم الأوضاع وأشرفها، ولهذا صارت صلاته التي هي أحد الفروع جامعة لجميع العبادات الشرعية التي وضعوها الأنبياء والرسل بأجمعهم، وبل جامعة لجميع العبادات التي كلف بها المخلوقات بأسرها، لقوله تعالى: ﴿وَمَا

---

(١) ساقطة.

مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[الأنعام/ ٣٨]، وبيان ذلك مفصلاً، وهو أن المصلي حالة الصلاة يصدق عليه أنه في الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد، أما الصلاة فلقوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[النور/ ٤١]، فإن هذا يشهد بأن لكل موجوده[١] صلاة وتسبيح، وإذا كان كذلك فالمصلي حالة الصلاة يكون موافقاً مع[٢] جميع الموجودات مطابقاً لأوضاعهم التكليفية، هذا من حيث اللغة وأن الصلاة بمعنى الدعاء أو الاطاعة، وأما من حيث الاصطلاح فإن الصلاة عبارة عن هيئة جامعة مشتملة على أفعال مخصوصة في زمان مخصوص مترتبة على قيام وقعود وركوع وسجود وتسبيح وتهليل، فذلك أيضاً يصدق على المصلي أنه موافق مع الكل جامع لجميع العبادات، لأن الموجودات كلها من الروحانية والجسمانية، أعني العلوية والسفلية لها تسبيح وتهليل وركوع وسجود وقيام وقعود، كما شهد به القرآن الكريم وعرفت أكثرها في موضعها في أول هذا الكتاب.

أما في القيام والحركة المستقيمة موافق مع نوع الإنسان، لأن حركاتهم مستقيمة بالاتفاق، لأنها الذات الألفية.

وأما في الركوع والحركة الأفقية فمع الحيوان مطلقاً، فإن حركاتهم بالاتفاق أفقية.

وأما في السجود والحركة المنكوسة فمع النبات مطلقاً، فإن حركاتها بالاتفاق منكوسة، وليست الحركات بخارجة عن هذه الثلاث، ولا المركبات عن النبات والحيوان والإنسان المعبرة عنها بالمواليد، وإن شئت قلت: في القيام موافق مع الملائكة التي تكليفهم القيام دائماً، وفي الركوع مع الملائكة

---

(١) موجود.

(٢) موافقاً لجميع

التي تكليفهم الركوع دائماً، وفي السجود مع الملائكة التي تكليفهم السجود دائماً، وكذلك في جميع الحركات والأوضاع المخصوصة بالصلاة، وإلى مجموع ذلك أشار الحق تعالى في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ. . .﴾[الحج/١٨] الآية، والمراد، بالسجدة في الآية ليست إلا الصلاة لغة واصطلاحاً، كما يقال فلان ساجد أي فلان يصلي، أو يقال فلان كثير السجدة أي كثير الصلوات، ويجوز أيضاً بمعنى الإطاعة والانقياد لقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[الرحمن/٦] أي يطيعان لأمره وإرادته، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن وكلام العرب.

وأما تكبيرة الإحرام فمع الكل على العموم، وعلى الخصوص مع الحجاج والقاصدين لبيت الله الحرام.

وأما في النية التي هي القصد بالقلب إلى الفعل فمع الكل، لأن الكل قاصدون إليه متوجهون إلى حضرته، وإن لم يكن لهم بذلك علم لقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[لقمان/٢٥] الآية، ولقوله: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَٰتِ. .﴾[البقرة/١٤٨] الآية.

وأما في التسبيح والتهليل فمع جميع الموجودات لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء/٤٤]، وبالخصوص مع الملائكة لقوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[البقرة/٣٠]، وكذلك في جميع الأذكار والأدعية والحركات والسكنات.

وأما في الصلاة على النبي والسلام عليه وعلى آله فمع الله تعالى جل ذكره ومع الملائكة والمؤمنين بأسرهم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب/٥٦].

وأما في عدد الركعات من الثنائي والثلاثي والرباعي فمع أمة كل نبي من الأنبياء الواضعين للشريعة، فإنه ورد أن بعض الأنبياء كانت صلاته ركعتين لا غير وبهما يأمر أمته، وكذلك الثلاث والأربع، أعني كان لبعض الأنبياء ركعتان وللبعض ثلاث وللبعض أربع، وقيل الركعتان لآدم عليه السلام والثلاث لنوح عليه السلام والأربع لإبراهيم عليه السلام، أو مع الملائكة في صلاتهم المعبرة بالجناح لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[فاطر/ ١]، وذلك لأن صلاة كل موجود في الحقيقة هي التي هو عليه من القابلية والاستعداد كما سبق ذكره عند قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[الإسراء/ ٨٤]، وعند قوله: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[النور/ ٤١]، والغرض أن المراد بالجناح المعبر عنه بالصلاة، القوة التي بها يتصرف الملائكة في العالم علوياً كان أو سفلياً، وقد أشار إلى هذا المولى الأعظم كمال الدين عبد الرزاق قدس الله سره في تأويله للقرآن وهو قوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ عبر عن جهات التأثير الكائنة في الملكوت السماوية والأرضية بالأجنحة، جعلها الله رسلاً مرسلة إلى الأنبياء بالوحي وإلى الأولياء بالإلهام وإلى غيرهم من الأشخاص الإنسانية وسائر الأشياء بتصريف الأمور وتدبيرها، فما يصل به تأثيرهم إلى ما يتأثر منه فهو جناح، وكل جهة تأثير جناح، مثلاً إن لقوة العاقلتين العملية والنظرية جناحان للنفس الإنسانية، والمدركة والمحركة الباعثة والمحركة الفاعلة ثلاثة أجنحة للنفس الحيوانية، والغاذية والنامية والمولدة والمصورة أربعة أجنحة للنفس النباتية، ولا تنحصر أجنحتها في هذا العدد، بل لهم بحسب تنوعات التأثيرات أجنحة، ولهذا حكى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه رأى جبرائيل ليلة المعراج وله ستمائة جناح، وورد أيضاً أنه يدخل كل صباح ومساء في نهر الحياة ثم يخرج وينفض أجنحته، فيخلق سبحانه من قطراته ملائكة لا عدد لها، وإلى

كثرة أجنحتها أشار عقيبه بقوله: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ليعلم أن هذا أمر ممكن والله تعالى قادر عليه، هذا مشاركته مع الكل في صلاة واحدة وهذا الكل موجودات ممكنة، وأما مشاركته مع الحق تعالى في الكل فقد ورد في الخبر عن النبي ﷺ وهو أنه أخبر عن الله تعالى أنه قال: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، يقول العبد ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يقول الله: أثنى علي عبدي، يقول العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، يقول الله: حمدني عبدي، يقول العبد: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، يقول الله: مجدني عبدي، يقول العبد: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، يقول الله: فوض إلي عبدي، يقول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، يقول الله: هذا بيني وبين عبدي، فيقول العبد: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة، يقول الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

وقد نطق في هذا بعض العارفين قدس الله روحه الزكية وأفاض على تربته المراحم الربانية بعين[١] هذه العبارة، وهو لطيف نذكرها هاهنا بسطاً للخاطر وتشوقاً للناظر، وذلك قوله: واعلم أن التعاشق بين الروح والبدن وتواصلهما إنما يقتضي صعود الهيئة[٢] البدنية إلى الروح، ونزول الهيئة[٣] الروحانية إلى البدن، فكما أن الفكر في المعارف والحقائق وسماع ذكر الحبيب ومطالعة صفات جماله وجلاله ومشاهدة عظمته وبهائه يوجب اقشعرار البدن بقوة إشعاره واضطراب جوارحه، وسماع ذكر العدو ومكائده في مساويه وفي كل ما تكرهه النفس يهيج الغضب ويحمر اللون والعين وتملأ العروق وتعظمها وتحمي البدن وتشوش الحركات، فكذلك خشوع الجوارح

---

(١) بغير.

(٢) و(٣) الهيئات.

وخضوع البدن وتنظيفه ونزاهته وتطهيره وذكر الله تعالى باللسان وتحميده وتمجيده، ومواطأة الباطن فيها للظاهر بالنية والاعراض عن الملاذ الحسية والامتناع عنها بكف الحواس وتذكر احوال الملكوت والجبروت والتشبه بهما وبالمقربين من عباد الله المخلصين، يوجب عروج القلب والروح إلى الحضرة القدسية والإقبال إلى الحق والاستفاضة من عالم الأنوار وتلقي المعارف والحقائق عنه والاستمداد من عالم الملكوت والجبروت، فوضعت عبادة شاملة لهيئة[1] الخضوع والخشوع واتعاب الجوارح مع شرائط التنزيه والتنظيف وقصد القربة وصدق النية والأذكار المشيرة[2] إلى نعمه تعالى وتعظيمه وتحميده وتمجيده وثنائه بما يليق بحضرته وغاية التذلل لعظمته والإذعان لأمره وحكمه[3] هي الصلاة، وكررت في اليوم والليلة بعدد الحواس الخمس، فإنها مشاعر للنفس الإنسانية تطلع بها على أحوال العالم الظلماني، ومخارج لها يخرج منها إلى العالم السفلي فتبعد عن الحق، ومداخل تدخل بها الهيئة[4] الظلمانية الغاسقة من المواد الهيولانية وأحوال الجواهر الجسمانية وكدوراتها وتغيراتها، فيتكدر القلب ويتغير ويتلوث ويحتجب عن عالم النور ويتشوش وينقطع عن الحضور، فوضعت بازائها خمس صلوات، وعينت أوقاتها وركعاتها بمقتضى الحكمة الإلهية، ومنعت بها عن استعمال تلك الحواس، وأغلقت عليها تلك الأبواب لينقطع إمداد الظلمة، وينفتح باب الباطن الذي إلى جناب الحق والعالم النوراني بالحضور والنية والتوجه إلى الحق، كما قال عليه السلام: «لا صلاة إلا بحضور القلب» وجعل أولها صلاة الظهر عند الزوال بعد الاستواء، كما قال تعالى: ﴿أَقِمِ

---

(١) لهيئات.

(٢) المستترة

(٣) حكمته.

(٤) الهيئات.

﴿ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾[الإسراء/ ٧٨]، فإن الاحتياج إليها إنما هو عند ميل الروح الإنساني إلى الغروب في الأفق الجسماني وتواريه بالحجاب الظلماني واحتجاب نوره بالجوهر الغاسق الهيولاني، وأما حال الاستواء والبقاء على الفطرة الأولى والاستيلاء على ظلمة الهيولى على ما كان عليه حال آدم عليه السلام في الجنة قبل الهبوط، فهو في مقام المشاهدة حافظاً للميثاق داخلاً في زمرة العشاق فلم يكلف بهذه الأوضاع، وكذا حال شدة التأثير في المواد البدنية والاشتغال بالأمور الطبيعية، فإن الصلاة فيها لم تفد وجعل عدد ركعاتها أربعاً، بإزاء أول أركان وجوده في هذه النشأة التي هي العناصر الأربعة، فإن[1] أول مراتب الإسلام تسليم أول أصول وجوده[2]. وإن جعل العبادة شكر النعمة، فهي أول نعم الله عليه، والشكر أصله إنما هو بتصور النعمة من المنعم، فهو إقرار بأنها منه لا من نفسه، وإذا كانت منه فليس له شيء منها فقد سلمها إليه، وكذا الشكر باللسان إنما هو بالثناء عليه بأنه فاطر الكل ومالكه، كقول المصلي: ﴿وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾[الأنعام/ ٧٩]، وقراءته[3] للفاتحة وجوباً على الأصح، وكذا الجوارح فإنه انقياد للأمر وخروج عن حوله وقوته وقدرته وإرادته وعلمه، وإلا لم يطع بترك مراده واختياره وما يهوى من حركاته وأفعال بمقتضى[4] طبعه وهوى نفسه إلى مراد الحق منه، فهذه أقسام الشكر، فإنها ثلاثة كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة　　　يدي ولساني والضمير المحجبا

وكلها راجعة إلى الفناء في التوحيد.

---

(١) بان.

(٢) وجود.

(٣) وقراءتها.

(٤) ومقتضى

ثم صلاة العصر وإنما جعلت أربعاً لكونها بإزاء ما يلي الأركان الأولى من الأخلاط الأربعة، فإنها يحدث منها أولاً بالامتزاج، وكلما قرب البدن إلى الروح بالاعتدال، بعد الروح من جناب الحق وعالم النور بالانجذاب إليه، فلهذا يكون وقتها أقرب إلى الغروب.

ثم صلاة المغرب عند الاحتجاب ثلاث ركعات بإزاء القوى الثلاث التي هي رؤساء البدن بحسب بقاء الشخص، وهي القوى الطبيعية والحيوانية والنفسانية، فإن حدوثها بأفول الروح في أُفق الجسد وتمام احتجابه، ولهذا خصت بالمغرب.

ثم صلاة العشاء أربعاً بازاء الأعضاء الأربعة التي هي أُصول الأعضاء ومبادىء قواها التي يتم بها أمر البدن المسماة اعضاء رئيسة، وهي الثلاث، الدماغ والكبد والانثيان. فإنها محال القوى التي تبنى عليها حياة الإنسان وبقاؤه بالشخص والنوع وتكمل جسده واستقرت سلطنته واشتد أمره وقوي، ولهذا خص وقته بدخول الغسق وحصول الوقت ووقت النوم، فإن كمال أعضاء البدن يوجب استنامة الروح إليه واستغراقه، وإذا انتهى زمان ازدياد القوى البدنية والأعضاء، وتمت سلطنتها وكملت بكمال البدن، وفرغ الروح من غمراته والاقبال إلى الطبيعة بالإمداد لتمامه، أقبل إلى عالمه وظهر نور عقله وابتداء[1] تجرده وانتبه من نومه وظهر القلب أوجدت[2] بإدراك الكليات واستخراجها من الجزئيات، كانقضاء مدة الليل بطولها، وطلع الصبح المعنوي بظهور نور شمس الروح ورجوعها إلى الأفق الشرقي من عالمه باعتبار، والغربي الذي أفل فيه باعتبار آخر.

---

(١) في النسخة الثانية ابتدء.

(٢) كذا في النسخة الأولى وفي حاشية هذه النسخة كتب والظاهر جذب وفي النسخة الثانية أو حدب.

وجاء وقت صلاة الصبح وخص وقتها للمناسبة وجعلت ركعتين بازاء الروح والبدن، كما أن الإنسان قبل البلوغ وظهور العقل كان شيئاً واحداً جسماً طبيعياً فصار بذلك شيئين.

وأما أوضاعها وأركانها على الترتيب المعلوم، فإن القيام في الركعة الأولى إشارة إلى مقام الفطرة الإنسانية وهيئة النفس الناطقة القائمة من بين الموجودات، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾[التين/ ٤ و٥]، والركوع إشارة إلى مقام النفس الحيوانية التي يليها في هذه النشأة الجامعة، فإن الحيوانات راكعة، والاعتدال إشارة إلى صيرورتها بنور الناطقة نوعاً آخر له خصوصيات اعتدالية وهيئات كمالية يستوي بها ويعتدل ويتخلق بالأخلاق الحميدة الملكية ويتصف بالفضائل الجميلة الإنسانية والسجود إشارة إلى مقام النفس النباتية، فإن النبات ساجد، ورفع الرأس منه معلوم من بيان الاعتدال من الركوع، والسجود الثاني إشارة إلى أن هذه النفس بسبب صيرورتها في الإنسان نوعاً أشرف ممتازاً عن سائر أنواع النبات بالانقلاع عن الأرض والتصرف وتوليد الأخلاط الأربعة وغير ذلك من التصرفات العجيبة التي حصلت لها من خواص الإنسان المشار إليه برفع الرأس من السجود لم يزد مرتبتها، بخلاف الحيوانية المدركة الكاسية للملكات الفاضلة، بل بقيت على حالها في عدم الإدراك والإرادة والاشتغال بما يخصها من الأفعال النباتية بالطبع، وأما القيام في الركعة الثانية فهو إشارة إلى العالم العقلي وانخراطه بذلك في سلك الجبروت بكمال التجرد بالتعقل بالفعل، وأما ركوعها فهو صورة الانخراط في سلك الملكوت السماوية بالتنزه عن ملابس الشهوة والغضب والتأثير في الجهة السفلية، وأما ترفعها عنه بالاعتدال فهو زيادة في مرتبتها باستعداد الولاية وكمال المعرفة، وأما سجودها فهو إشارة إلى النفوس الشريفة الكوكبية وهيئآتها في أجرامها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[الرحمٰن/ ٦]، وأما الاعتدال فمعلوم مما

مر، والرجوع إلى السجود هو البقاء على حال التأثير في العالم الجسماني والاقبال إليه مع شرفها. والتشهد هو بلوغ الروح بهذه العبادة الحقيقية إلى مقام المشاهدة مطلقاً إلى ما في العالمين، واصلاً إلى محل القرب بالمتابعة، مستقراً متمكناً فيما حصل له من المواصلة، معايناً لما اعتقد من حقيقة الشهادتين واجداً لما طلب من متابعة النبي محققاً لمعنى قوله: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، لأن السلام هو الفيض النازل من عند الله والمدد الفائض الواصل من العالم القدسي إلى هذه النفوس المكمل إياها بتجريدها عن صفات النقص وآفات النفس، وتكميلها بالكمالات الخلقية والوصفية الإلهية، فيجعلها اسماً من أسمائه لاتصافها بما أمكن لكل واحد منها من صفاته، هذا آخر كلام ذاك العارف قدس الله روحه ونور ضريحه، وهو مما يدل على نهاية كماله وكشفه في الاطلاع على حقائق أسرار الصلاة وأوضاعها، و[1]افاد هذه الحقائق الكشفية والدقائق الذوقية من تأخر عنه، جزاه الله خيراً، فإنه به وبأمثاله من الكمل والاقطاب ظهرت الأسرار. وكشف عنها نقاب الاحتجاب[2].

هذا بالنسبة إلى حكمة أوضاعها المخصوصة بها، وأما بالنسبة إلى الصوم وأن المصلي حين الصلاة في حكم الصائم، وحكم باقي العبادات المذكورة فذلك يندرج تحت بيان علة تقديم الصلاة على غيرها وترجيحها عليه، وتحت بيان علة حصر الفروع في الأعداد المذكورة، وكل ذلك يحتاج إلى ضابطة أُخرى كلية جامعة لجميع ذلك مفصلاً، وهي هذه:

---

(١) فاقد و.

(٢) في النسخة الأولى قال مذكور في الخزانة.

ضابطة اخرى كلية في بحث الفروع وانحصارها في الخمسة، وعلة تقدم الصلاة على غيرها، وأن المصلي جامع للكل، ثم علة تقديم كل واحدة منها على الأخرى

اعلم أن الفروع أيضاً قد اختلف الناس فيها، لأن بعض الناس اضافوا إلى الصلاة الطهارة، وإلى الصوم الاعتكاف، وإلى الزكاة الخمس، وإلى الحج العمرة، وإلى الجهاد المرابطة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحيث إن هذا غير معتبر عند الكل، فلنشرع في الأشهر والأظهر المتفق عليه الكل وهو الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد، والحق أنها منحصرة في هذه الاعداد، يعني أنها لا ينبغي أكثر منها ولا أقل، والدليل على حصرها فيه، وهو أن الوجوب إما يتعلق بالنفس فقط كالصلاة والصوم، وإما يتعلق بالمال فقط كالزكاة، وإما يتعلق بالنفس والمال معاً كالحج والجهاد، وإذا كان كذلك فلا يحتاج المكلف إلى اكثر من ذلك في تحصيل كمالاته، ولا يمكن تحصيلها بأقل منها، فيجب الحصر حينئذ فيها وهذا هو المطلوب، ويحتاج هذا المكان إلى مثال مناسب في هذا الباب، وهو أن الله تعالى حكيم كامل، والأنبياء والرسل عليهم السلام كما سبق ذكرهم اطباء النفوس ومعالجو القلوب، وأوضاعهم وقوانينهم في الشرائع كالمعاجين والأشربة لمرضى الناس ومصحاهم، فلو عرفوا هناك دواء لدائهم وامراضهم أنفع وأنسب من هذا لأمروا به وأظهروه للناس ليستعملوه في إزالة أمراضهم ودفع دوائهم، لأن ذلك كان واجباً عليهم وعلى الله تعالى أيضاً، لأن هذا كله من قبيل اللطف واجب عليهم وعلى الله كما بيناه مراراً بحيث لا يجوز الإخلال به، فعرفنا أن هذا الدواء المعبر عنه بالفروع كاف في إزالة مرض الجهل والكفر والشك والنفاق، وذلك تقدير العزيز العليم.

ومثال آخر، وهو أنه كما لا يجوز أكثر من ذلك فكذلك لا يجوز أقل منه. كما أن الطبيب الصوري مثلاً إذا أمر بشيء من الأشربة والمعاجين لدفع

المرض الصوري وإزالة الداء الحسي، لا يجوز للمريض أن يزيد عليه شيء ولا ينقص منه شيء[1]، فإنه إن فعل ذلك يكون إما موجباً لزيادة المرض أو سبباً للهلاك، فكذلك الطبيب المعنوي الذي هو النبي أو الرسول فإنه إذا أمر بشيء من التكاليف الشرعية والقوانين الإلهية لدفع إزالة الجهل وداء الكفر والنفاق، لا يجوز للمريض المعنوي أن يزيد عليه شيء[2] ولا ينقص منه شيء[3]، فإن ذلك يكون إما موجباً لزيادة المرض المعنوي، أو سبباً للهلاك الأبدي والشقاء السرمدي، فالأصول والفروع أكثر من ذلك لا ينفع ولا أنقص، فإن زاد عليهما أحد من عنده شيء[4] لا يكون إلا موجباً لزيادة مرضه أو سبباً لهلاكه. وإن نقص أيضاً كذلك، وكذلك كل واحدة منهما، فإن من صلى الظهر مثلاً خمس ركعات لا تنفعه مع أنها طاعة، لأنه خروج عن وضع الشارع وأوامره. وكذلك باقي الفروع والأصول، فافهم ذلك جيداً، والله أعلم وأحكم. ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت/ ٤٣].

وأما علة تقديم كل واحدة من هذه الفروع على الأخرى وترجيحها عليها كالصلاة على الصوم والصوم على الزكاة إلى آخرها، فإن الصلاة جامعة لجميع العبادات الأربعة الباقية بخلاف غيرها، فإن المصلي حال صلاته في الصوم والزكاة والحج والجهاد، أما صلاته فإنه ما دام مستقبلاً القبلة متوجهاً إلى الكعبة مشتغلاً[5] بالركوع والسجود والقيام والقعود فهو في حكم المصلي، وأما صومه فلأنه ما دام مشغولاً بالصلاة فهو لازم للإمساك من المأكول والمشروب وجميع المفطرات، وكل من كان كذلك فهو في حكم

---

(١) شيئاً.

(٢) شيئاً.

(٣) شيئاً.

(٤) شيئاً.

(٥) مشتمل على الركوع.

الصائم، وأما زكاته فلأن الزكاة هي اخراج الحقوق مما في ملكه وتصرفه. وبدنه ملكه، بحكم «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» وقال النبي ﷺ أيضاً: «لكل شيء زكاة وزكاة البدن الطاعة» فكلما كان هو في الركوع والسجود والقيام والقعود والقراءة والتسبيح والنية التي هي القصد بالقلب إلى الفعل والحركات المتبعة بالجوارح والأعضاء يكون هو مخرجاً للزكاة حقيقة، وأما حجه فلأنه ما دام متوجهاً إلى الكعبة، مستقبلاً إلى القبلة، محرماً[1] عن كل فعل يبطل صلاته، قاصداً رضاء الله وطاعته، طائفاً حول قلبه بأن لا يدخل فيه غير الله كما قال عليه السلام: «لا صلاة إلا بحضور القلب» فهو في حكم الحج بلا خلاف، لأن الحج الصوري هو القصد إلى بيت الله الحرام لأداء المناسك الصورية، وهذا قصد إلى بيت الله الحرام الذي هو القلب وما حوله لأداء المناسك المعنوية فيكون هو بذلك من الحجاج الحقيقي دون المجازي الصوري، وأما جهاده فلأن الجهاد عبارة عن محاربة أعداء الدين ومقابلتهم[2] لكي يقبلوا الإسلام ويطيعوا أوامر الله ونواهيه، والمصلي حال الصلاة في المحاربة مع نفسه الأمارة التي هي في حكم الأعداء والكفرة للدين الحقيقي والإسلام المعنوي، لقول النبي ﷺ: «اعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك» لكي تطيع صاحبها وتقبل أوامره ونواهيه، ويشهد بذلك قوله ﷺ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» لأنه لما سئل عن معناه قال: «الجهاد الأكبر هو جهاد النفس» وكل من كان كذلك لا شك أنه يصدق عليه أنه في الجهاد، وفي الصلاة أبحاث كثيرة خلاصتها ما تلوناه عليك، فافهم وتدبره فإنه السر المصون.

وأما تقديم الصوم على الزكاة فلأنه يتعلق بالنفس خاصة، والزكاة تتعلق بالمال خاصة، والنفس أعز من المال وأعظم وأسبق، فيجب تقديمه، ولهذا

---

(١) ساقطة.

(٢) مقاتلتهم.

قال تعالى: «الصوم لي وأنا اجزي به» وذلك لأنه فعل لا يدخله شك ولا شبهة ولا رياء ولا عجب، وبل هو صادر من محض الإخلاص، لأن صاحبه إن لم يكن كذلك لا يصوم، لأنه متمكن عن الأكل والشرب من غير اطلاع أحد عليه، فعرفنا أنه من خوفه من الله وطلب رضائه يفعل هذا الفعل، فيجب حينئذ أجره وجزاؤه على الله، وكل فعل يكون كذلك ويكون هو على النفس خاصة دون المال يجب تقديمه.

وأما تقديم الزكاة على الحج فلأنها على المال فقط[1]، ويتكرر كل سنة وبل كل[2] ساعة لأجل تتالي المكاسب وتعاقب المرابح، والحج ليس بواجب في العمر إلاّ مرة واحدة مع الاستطاعة، فيجب تقديم الواجب في كل سنة بل كل ساعة على الواجب في العمر مرة.

وأما تقديم الحج على الجهاد فلأنه يحتاج إلى اخراج مال كثير ويجب على كل مستطيع، ويمكن أن لا يجب الجهاد على أحد ولا يحتاج إلى مال كثير، لأن الجهاد مشروط بشرائط كثيرة، ومع فقدان الشرائط لا يحصل المشروط ولا يجب أيضاً، وإن أردنا بالجهاد الجهاد الحقيقي المذكور فالجهاد مقدم على الكل حتى الصلاة، فإن كل من لا يحارب نفسه ما يتمكن أن يقوم أن[3] يتوضأ ويصلي، وهذا أمر وجداني يجده كل عاقل من نفسه، وفيه ابحاث كثيرة وأسرار جليلة لا يخفى على أهلها، وسيجيء أكثرها عند بيان كل واحد منها[4].

هذا على طريق أهل الله وأرباب التحقيق، وأما على الظاهر وأرباب

---

(١) خاصة.

(٢) في كل.

(٣) ويتوضأ.

(٤) ساقطة.

التقليد فلها تفسير آخر لا بد منه، وذلك أنهم قالوا: إن تقديم الصلاة على الصوم لأن الصلاة واجبة على العموم و[1] في جميع الحالات، والصوم ليس كذلك، لأنه عبادة مخصوصة بزمان مخصوص، وأيضاً الصلاة تجب على كل عاقل مكلف متمكن من فعلها، وتجب في الصحة والمرض، وعلى النائم على الفراش والمستلقي والقاعد وفي الحرب وفي البر والبحر وغير ذلك من الحالات، لأنه لا يسقط بوجه من الوجوه، والصوم يسقط عن العجائز والشبان والعطاش والمرأة الحاملة إذا كانت قليلة اللبن والحائض حين حيضها وأمثال ذلك، وأيضاً الصلاة تتكرر في كل يوم خمس مرات والصوم في كل سنة مرة واحدة فالصلاة تكون بالتقديم أولى.

وأما تقديم الصوم على الزكاة فلأن الصوم يجب على النفس والزكاة يجب على المال، وليس كل أحد صاحب مال حتى يجب عليه، ولكن كل أحد صاحب نفس ويجب عليه الصوم فيكون أولى بالتقديم لعمومه.

وأما تقديم الزكاة على الحج فلأن الزكاة تجب في كل سنة مراراً متعددة في الذي لم يكن فيه حؤول[2] الحول شرطاً، وفي الذي يكون حؤول[3] الحول شرط[4] مرة واحدة، والحج لا يجب في العمر إلا مرة واحدة مع[5] الاستطاعة، فتكون الزكاة أولى بالتقديم من غيرها.

وأما علة تقديم الحج على الجهاد فلأن الحج واجب على العين، والجهاد واجب على الكفاية، وفرق كثير بينهما، وأيضاً الجهاد لا يجب إلا مع حضور الإمام المعصوم أو من أمره به، وهذا المعنى في أكثر الأوقات

---

(١) ساقطة.

(٢) و(٣) حلول = وحؤول الحول يعني مضى وتمّ.

(٤) شرطاً.

(٥) بعد.

مفقود، ويشهد به زماننا هذا، فيكون الحج أولى بالتقديم منه لعمومه، وهاهنا أسرار كثيرة غير هذه، لأنه يمكن تأويل هذه الصورة بوجوه كثيرة غير هذا، هذا آخر بيان الفروع وعلة تقديم كل واحدة منها على الأخرى بعد بيان الأصول على الوجه المذكور، وكأن الله تعالى إلى هذه العشرة من الأصول والفروع أشار وقال: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾[البقرة/ ١٩٦]، لأن بهذه العشرة تحصل السعادة الأبدية والخلود في الجنة الصورية والمعنوية، رزقنا الله الوصول إليهما بمحمد وآله الأبرار الأخيار، وإذا فرغنا من بحث الأصول والفروع والمقدمات المتعلقة بهما، وحكمة أوضاع الصلاة والمعراج الصوري والمعنوي، وعلة تقديم كل واحدة من الفروع على الأخرى وغير ذلك من اللطائف والنكات، فلنشرع أولاً في الصلاة على طريق الطوائف الثلاث من أهل الشريعة والطريقة والحقيقة، ثم في باقي[1] الفروع على الترتيب المعلوم.

أما صلاة أهل الشريعة

فالصلاة عندهم مشتملة على ثلاثة أجناس، أفعال وكيفيات وتروك، وكل واحدة[2] منها على قسمين، مفروض ومسنون، بحيث تصير هذه الثلاث من الصلوات الخمس الفاً وثلاثمائة وثلاثة وستين فعلاً وكيفية وتركاً، ولسنا نحن بصدد تحقيق هذا المجموع ولا تعداده، بل نحن في صدد أن نذكر هاهنا ما يجب على المكلف القيام به في ركعة واحدة من الأفعال والكيفيات لا غير، لأن الباقي يحصل العلم به بأدنى تأمل، أما الأفعال الواجبة في أول ركعة من الصلاة فهي ثلاثة عشر فعلاً، القيام مع القدرة أو ما يقوم مقامه مع العجز عنه، والنية وتكبيرة الإحرام والقراءة

---

(١) بيان.

(٢) واحد.

والركوع والسجود الأول والتسبيح فيه ورفع الرأس منه والسجود الثاني والذكر فيه ورفع الرأس عنه. وأما الكيفيات الواجبة منها فثماني عشرة كيفية، مقارنة النية لتكبيرة الإحرام واستدامة حكمها إلى عند الفراغ، والتلفظ بالله أكبر وقراءة الحمد وسورة معها مع القدرة والاختيار، والجهر فيما يجهر والاخفات فيما يخافت، والطمأنينة في الركوع والطمأنينة في الانتصاب منه، والسجود على سبعة أعظم، الجبهة واليدين والركبتين وإبهامي الرجلين، والطمأنينة في السجدة الأولى والانتصاب منها، وفي السجدة الثانية كذلك، يصير الجميع أحد وثلاثون فعلاً وكيفية، وفي الركعة الثانية مثلها إلا تجديد النية وتكبيرة الإحرام وكيفياتهما وهي أربعة يبقى سبعة وعشرون، يصير الجميع في الركعتين ثمانية وخمسين فعلاً وكيفية، وينضاف إلى ذلك ستة أشياء: الجلوس في التشهد والطمأنينة فيه، والشهادتان والصلاة على النبي والصلاة على آله، تصير الجميع أربعة وستين فعلاً وكيفية، فإن كانت صلاة الفجر انضاف إلى ذلك التسليم، وإن كانت الظهر والعصر والعشاء الآخرة انضاف إلى ذلك مثلها إلا تجديد النية وتكبيرة الإحرام وكيفياتهما وهي أربعة أشياء، ويسقط قراءة ما زاد على الحمد يبقى ستون فعلاً وكيفية في الركعتين الأخيرتين يصير الجميع مائة وأربعة وعشرين فعلاً وكيفية، هذا ترتيب صلاة أهل الشريعة على طريقة أهل البيت عليهم السلام بحسب الظاهر، وأما بحسب الباطن فذلك يتعلق بأهل الطريقة كما سنذكره الآن وهو هذا:

وأما صلاة أهل الطريقة

فالصلاة عندهم قربة إلى الحق تعالى، وورد عن النبي صلى الله عليه وآله: «الصلاة قربان كل مؤمن» والمراد بهذا القرب القرب المعنوي دون الصوري المعبر عنه عند القوم بقرب المكانة دون المكان، وبقرب الفرائض دون النوافل، وقد ورد أيضاً: إن الصلاة خدمة وقربة ووصلة، فالخدمة هي الشريعة والقربة هي

الطريقة والوصلة هي الحقيقة، وقيل: الشريعة أن تعبده والطريقة أن تحضره والحقيقة أن تشهده، فالقربة بالحق موقوف على سجوده الحقيقي الذي هو الصلاة المعبر عنه بالفناء، أما من الأوصاف في أوصاف الحق وهو مخصوص بأهل الطريقة، وأما من الذات في ذات الحق وهو مخصوص بأهل الحقيقة، وإليه أشار الحق في قوله: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾[العلق/ ١٩]، أعني تفني ذاتك ووجودك في ذات الحق ووجوده، تبقى به أبداً دائماً، وهذا مقام أهل الحقيقة، وحيث نحن في بيان صلاة أهل الطريقة وقربهم بالحق بفنائهم من أوصافهم في أوصاف الحق تعالى فالبحث في هذا الباب أولى، وذلك سيجيء بعد هذا بلا فصل إن شاء الله تعالى، وقد أشار إلى صورة هذا البحث بعض العارفين رضوان الله عليه في صورة مثال مناسب نذكره هاهنا، ثم نرجع إلى ما نحن بصدده وهو قوله:

اعلم على الجملة أن الصلاة صورة صورها رب الأرباب كما صور الحيوان بصورة مثلا، فروحها النية والإخلاص وحضور القلب، وبدنها الأعمال، وأعضاؤها الأصلية الأركان، وأعضاؤها الكمالية الأبعاض، فالإخلاص والنية فيها تجري مجرى الروح، والقيام والقعود تجري مجرى البدن، والركوع والسجود تجري مجرى الرأس واليد والرجل، وإكمال الركوع والسجود بالطمأنينة وتحسين الهيئة تجري مجرى حسن الأعضاء وحسن اشكالها وألوانها، والاذكار والتسبيحات المودعة فيها تجري مجرى آلات الحس المودعة في الرأس والأعضاء كالأذن والعين وغيرهما، ومعرفة معاني الأذكار وحضور القلب عندها يجري مجرى قوى الحس المودعة في آلات الحس كقوة البصر وقوة السمع والشم والذوق في معادنها.

واعلم أن تقربك في الصلاة كتقرب بعض خدم السلطان باهداء(١)

---

(١) واهداء.

وصيفة[1] إلى السلطان. فيجب عليك أن تعرف حينئذ أن فقد النية والإخلاص من[2] الصلاة كفقد الروح من الوصيفة، والمهدي للخليفة[3] الميتة مستهزىء بالسلطان فيستحق سفك الدم، وفقد الركوع والسجود يجري مجرى فقد الأعضاء، وفقد الأركان يجري مجرى فقد العينين من الوصيفة، وجذع الأنف والأذنين، وعدم حضور القلب وغفلته عن معرفة معاني القراءة والأذكار كفقد البصر والسمع مع بقاء جرم الحدقة والأذن، ولا يخفى عليك أن من أهدى وصيفة بهذه الصفة كيف يكون حاله عند السلطان، ثم اعلم أن الصلاة الناقصة غير صالحة للتقرب بها إلى الله عز وجل ونيل الكرامة، وإن أوشك أن يرد ذلك على المهدي ويزجر، وأيضاً أصل الصلاة التعظيم والاحترام للسلطان الحقيقي، وإهمال آداب الصلاة يناقض التعظيم والاحترام، فكيف تقبل وكيف تحصل لصاحبها القرب والكرامة، فالواجب عليك وعلى كل مصل بالصفة المذكورة أن يحفظ روح الصلاة ويراعيها، وهو الإخلاص وحضور القلب في جملة الصلاة واتصاف القلب في الحال بمعانيها، فلا يسجد ولا يركع إلا وقلبه خاشع متواضع على موافقة ظاهره، فإن المراد خضوع القلب لا خضوع القالب، ولا يقول الله أكبر وفي قلبه شيء أكبر من الله تعالى، ولا يقول وجهت وجهي إلا وقلبه متوجه بكل وجهه إلى الله عز وجل ومعرض عن غيره، ولا يقول الحمد لله إلا وقلبه طافح بشكر نعمه عليه فرح به مستبشر، ولا يقول إياك نعبد وإياك نستعين إلا وهو مستشعر ضعفه وعجزه، وأنه ليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، كما قال لنبيه ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران/ ١٢٨]، وكذلك في جميع الأذكار والأفعال يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

---

(١) الوصيفة الغلام دون المراهق.

(٢) في.

(٣) للوصيفة الميتة والظاهر هذا صحيح.

وإذا تحقق هذا وتقرر فاعلم أن صلاتهم بعد قيامهم بالصلاة المخصوصة بأهل الشريعة على كمال أركانها وأفعالها، هي توجههم أولاً بقلبهم إلى القبلة الحقيقية والكعبة المعنوية التي هي القلب الحقيقي المعبر عنه ببيت الله الحرام لقوله تعالى: «لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن» ولقول نبيه ﷺ: «قلب المؤمن بيت الله»، بالنية الخالصة والإخلاص التام والحضور الكامل، لقوله ﷺ: «لا صلاة إلا بحضور قلب»، ولقوله عز وجل: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[الزمر/٣]، ولقوله الجامع لهذا المعنى كله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام/ ١٦٢]، ثم يكبر تكبيرة الإحرام ويحرم على نفسه جميع ما يخالف أمره ويتجاوز رضاه من الأقوال والأفعال. ثم يشرع في القراءة وهي الحمد لله رب العالمين، وذلك هو القيام بشكر نعمه وأياديه بالثناء الجميل عليه، والقيام بوظائف عبادته على اختلاف أنواعها، والإقرار بالوحدانية في مقام الجمعية غير منحرف إلى طرفي الافراط والتفريط، ثم في الاستعانة والإقرار بالعبودية وهي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة/ ٤]، فإن ذلك إشارة إلى التوحيد الفعلي والوصفي بإضافة الأفعال والأوصاف إليه في المرتبتين، لأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إشارة إلى التوحيد الفعلي ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إلى التوحيد الوصفي، ولهذا جاء عقيبهما ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة/٦ و٧]، لأنه إضافة الهداية وإضافة النعمة على الأنبياء والأولياء بل على الكل إليه، وهذا هو كمال التوحيد الحقيقي، ومعناه عند المحققين ثبتنا على هذا الذي نحن عليه من الاستقامة على الصراط المستقيم، لأن هذا صراط الذين أنعمت عليهم من الأنبياء والرسل، وأكد في تحقيق الصراط بالمستقيم ليخرج عنه غير المغضوب عليهم ولا الضالين، لأن ذلك صراط غير مستقيم، وقيل: إنه ورد في اليهود والنصارى، وذلك من حيث التعبير وهو صادق على كل منحرف من الصراط المستقيم الذي هو الحد الأوسط

بين طرفي الإفراط والتفريط في أُصول الأخلاق الحقيقية التي هي الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة، ولفظ ﴿ٱهْدِنَا﴾ لو لم يكن بمعنى ثبتنا على هذا الذي نحن فيه لكان عبثاً وبل مهملاً، لأن الأنبياء والأولياء عليهم السلام بالاتفاق كانوا على الصراط المستقيم، وكذلك تابعيهم من المؤمنين والمسلمين لقوله تعالى: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الأنعام/ ٨٧] فلو كان اهدنا حينئذٍ بمعنى طلب الهداية إلى الصراط المستقيم لكان يلزم الفساد المذكور ويؤدي إلى تحصيل الحاصل وطلب ما عندهم من الهداية، وهذا غير جائز عنه. فلم يبقَ إلا أن يكون المعنى المذكور، ثم يركع أي يتواضع لله تعالى ويرجع إلى نفسه بالكسر والمذلة والافتقار التي هي من مقتضيات ذاته، لأن الركوع هو الرجوع قهقرى إلى عدمه الأصلي وإمكانه الذاتي، لأنه حركة أفقية حيوانية كما أن القيام حركة مستقيمة إنسانية ألفية، وليس معنى القهقرى إلا هذا، أي الرجوع إلى أصله المخلوق منه لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾[مريم/ ٩]، ولهذا جاءت عقيبه حركة منكوسة التي هي السجود، لأنها مخصوصة بالنبات، لأن النبات دائماً في النكس، والنكس إشارة إلى الرجوع الأصلي، ولهذا نزل من الاستقامة والحركة الإنسانية إلى الحيوانية والحركة الحيوانية، ثم من الحيوانية إلى النباتية والحركة المنكوسة، لأنه من حيث الصورة صعد من النباتية إلى الحيوانية ومن الحيوانية إلى الإنسانية المشار إليه في قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين/ ٤ و٥]، لأن أحسن التقويم بالاتفاق هو تقويم الحقيقة الإنسانية، واسفل سافلين بالاتفاق هي الرجوع إلى المرتبة الحيوانية ثم إلى النباتية، وكذلك قوله: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾[الحديد/ ١٣]، لأنه إشارة إلى هذا الرجوع، لأن النور المعبر عنه بالوراء المحصل للكمال لا يحصل إلا بعد الرجوع إلى مقره الأصلي صورة ومعنى، ويشهد به قوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[الفجر/

٢٧] ينفعه هذا الرجوع ومشاهدة هذا الفقر والمذلة في طريق الفناء ظاهراً وباطناً، ويسهل عليه ترك اللذات والشهوات المشتملة عليهما، حتى إذا شاهد عظمة الباري وحقارة نفسه في ذلك قام بتعظيم الله وتبجيله غاية التعظيم والتبجيل بلسان الحال والمقال وقال: سبحان ربي العظيم وبحمده، ولذلك ثمرة هذا التعظيم والتبجيل بعد مشاهدته مذلته وانكساره، والرجوع إلى العدم الأصلي الانتصاب والاستقامة الموجبتان لمشاهدة حاله مع الحق وحال الحق معه في تبديل أوصافه بأوصاف الحق وتهذيب اخلاقه به حتى قال سمع الله لمن حمده، لأن هذا اخبار عن شهوده الحق مع الكل وشهود الكل معه، بحيث يسمع كلام الكل من غير مانع وحاجب سيما مع نفسه، فإنه كان يسمع بنفسه من قائله كما سبق ذكره من قول الإمام: كنت أكرر آية حتى سمعت من قائلها، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه يشهد بذلك صريحاً، وفيه أسرار أخر ليس هذا موضعها، وعن هذا اخبر الحق تعالى أيضاً في كتابه الكريم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾[فصلت/ ٥٣ و٥٤]، وكذلك في حديثه القدسي كنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله. الحديث، وليس هذا ببعيد من الشجرة المباركة الإنسانية المشار إليه بقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[ق/ ١٩] وبقوله: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات/ ٢١]، وحديث يجوز هذا من الشجرة الصورية النباتية لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[القصص/ ٣٠]، وإن كان في التحقيق أيضاً ليس هذه الشجرة وهذه البقعة المباركة إلا الإنسان وصورته ومعناه لقوله عليه السلام: «من رآني فقد رأى الحق» لأن مشاهدة الحق على ما ينبغي ليس بممكن إلا في الصورة الإنسانية لقوله: «لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن الوادع» وأشار الشبلي رحمة الله عليه أنا أقول وأنا أسمع وهل في الدارين غيري، ما

كان إلا في هذا المقام، ويشهد به أيضاً قول الإمام العارف ابن الفارض:

ولو كنت بي من نقطة الباء خفضة
رفعت إلى ما لم تنله بحيلتي

لأن هذا إشارة إلى الفناء والرجوع إلى العدم الأصلي ثم إلى البقاء والوصول إلى العالم القدسي المعبر عنه بالحضرة الإلهية، لقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾[القمر/ ٥٤ و٥٥]، ثم يسجد أي يرجع أيضاً إلى أصله قهقراً[1] حتى يصل إلى المرتبة النباتية وحركتها المنكوسة المخصوصة بها[2]. لأن السجدة عبارة عن تعفير اشرف الأشياء في الإنسان وأجلها الذي هو الوجه بأخس الأشياء في الوجود الذي هو الأرض، كسراً لنفس الساجد وإذلالاً له. وهذا الكسر والإذلال في المرتبة الثانية إشارة إلى الفناء بعد الفناء، لأن الفناء الأول كان من الصفات والأخلاق وهذا الفناء عن الوجود والذات، لأن القرب الحقيقي كما هو موقوف على الفناء الوصفي، و[3] الوصل الحقيقي موقوف على الفناء الذاتي المخصوص بأهل الحقيقة كما أشرنا إليه، ولهذا قال فيه سبحان ربي الأعلى وبحمده، لأن السالك ما دام في مقام الكثرة ومشاهدة مظاهر الصفات فهو بعيد، لأنه يعبد ربه المقيد لا الرب المطلق، لكن إذا وصل إلى التوحيد الذاتي خلص من ذاك وقال بلسان الحال: سبحان ربي الأعلى وبحمده، أي الأعلى من ربه الخاص، ومعلوم أن قيام الأرباب المقيدة ليس إلا بالرب المطلق، ومن هذا خاطب نبيه وقال: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[النجم/ ٤٢]، وربه في الحقيقة ليس إلا الرب المطلق الذي هو منتهى كل رب ومقصد كل إليه، وذلك لأنه مظهر

---

(١) قهقرى.

(٢) به.

(٣) و ساقطة.

الاسم الله الذي هو الاسم الأعظم، ومظهر الأعظم لا يكون إلا أعظم، فافهم، وهذا لو لم يكن كذلك لم يصدق عليه تعالى أنه رب الأرباب ولا أحسن الخالقين، وهاهنا أبحاث تعرف من بحث الأسماء ومظاهرها، ثم يسلم أي يسلم الأمر كله إلى الله ويرجع عن السير بنفسه إلى السير فيه الذي هو مقام البقاء الحاصل من الرضا والتسليم الجامع للتوحيد الفعلي والوصفي، وإليه اشارة الحق بقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء/ ٦٥]، وفيه قيل:

وكلت إلى المحبوب أمري كله فإن شاء أحياني وإن شاء أتلفا

وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[الأحزاب/ ٣٦]، وكذلك قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران/ ١٢٨] شاهد عدل على صدق هذه الدعوى، وبرهان صادق على هذا[1] المعنى، ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[هود/ ١٢٠]، والله أعلم وأحكم وهو يقول الحق وهو يهدي السبيل، هذا آخر صلاة أهل الطريقة بقدر هذا المقام.

وأما صلاة أهل الحقيقة

فالصلاة عندهم عبارة عن الوصلة الحقيقية والشهود الحقيقي اللذين فوق القرب المذكور المخصوص بأهل الطريقة كما سبق تقسيمه من قولهم: الصلاة خدمة وقربة ووصلة، فالخدمة هي الشريعة والقربة هي الطريقة والوصلة هي الحقيقة، ومن قولهم: الشريعة أن تعبده والطريقة أن تحضره والحقيقة أن تشهده، وقد ورد في اصطلاحهم تقسيم آخر أوضح منه، وهو

---

(١) هذه

أنهم جعلوا العبّادة على ثلاثة أقسام، وخصصوا كل قسم منه[1] بطائفة من الطوائف الثلاث، وذلك قولهم: العبادة هي غاية التذلل للعامة، والعبودية للخاصة الذين صححوا النسبة إلى الله بصدق القصد إليه في سلوك طريقه، والعبودة لخاصة الخاصة الذين شهدوا نفوسهم قائمة به في عبودية، فهم يعبدونه في مقام أحدية الفرق بعد الجمع، وهؤلاء هم أهل الحقيقة المختصين بمقام العبودة دون العبودية، لأن ذلك خاص بأهل الطريقة الذين هم من الخواص وأهل الوسط كما بيناه عند بحث الشريعة والطريقة والحقيقة، وبون بعيد بين أهل العبودية وأهل العبودة وبين الخاص وخاص الخاص، وبالجملة صلاتهم عبارة عن مشاهدة محبوبهم بعين المحبوب لا غير، لقوله عليه السلام: «رأيت ربي بعين ربي، وعرفت ربي بربي» وورد عنه عليه السلام: «حبب إلي من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة» والمراد رعاية مراتب الثلاث، لأن الأول إشارة إلى القيام بالشريعة علماً وعملاً وطيب الاخلاق وتهذيبها قوة وفعلاً، والثاني إلى القيام بالطريقة ذوقاً ووجداناً الذي هو إما محبة نساء النفس لإخراج ذرية المعاني والحقائق عنها بالفعل كما هو مركوزة فيها بالقوة، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[النساء/ ١] الآية، أو محبة الخارجة لإخراج الذرية الصورية الذي هو السعي والاجتهاد في إبراز المعدومات إلى الوجود، والثالث إلى القيام بالصلاة الحقيقية التي هي مشاهدة المحبوب وقرة العين بها، كما ورد في تعريف الإحسان حين سئل النبي صلى الله عليه وآله عن معناه وقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه وإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وقد نطق بعض العارفين في الخبر الأول الوارد عن النبي صلى الله عليه وآله وتحقيق الصلاة وحصول المشاهدة منها وهو مناسب لهذا المقام

(١) منهم.

نذكره هاهنا ثم نرجع إلى غيره وهو قوله بعد بيان الطيب والنساء والدقائق التي فيهما:

أما قوله ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة» فلأنها مشاهدة، وذلك لأنها مناجاة بين الله وبين عبده كما قال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[البقرة/ ١٥٢]، وهي عبادة مقسومة بين الله وبين عبده بنصفين، فنصفها لله ونصفها للعبد كما ورد في الخبر الصحيح عن الله تعالى، وهو الذي ذكرناه أولاً أنه قال: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل يقول العبد ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ يقول الله ذكرني عبدني، يقول العبد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فيقول الله حمدني عبدي، يقول العبد ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، يقول الله اثنى على عبدي، يقول العبد ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، يقول الله مجدني عبدي، ثم يقول العبد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يقول الله هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فأوقع الاشترك في هذه الآية دون الآيات التي سبقت[١]، فإنها كانت خالصة لله، فيقول العبد ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، يقول الله فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل، فخلص هؤلاء لعبده كما خلص الأول له تعالى، فعلم من هذا وجوب قراءة الحمد[٢]، فمن لم يقرأها لم يصل[٣] الصلاة المقسومة بين الله وبين عبده، ولما كانت مناجاة فهي ذكر، ومن ذكر الحق فقد جالس الحق وجالسه الحق، فإنه صح في الخبر الصحيح الإلهي أنه قال تعالى: أنا جليس من ذكرني، ومن[٤] جالس من ذكره وهو ذو بصر حديد رأى جليسه، فهذه مشاهدة ورؤية، فإن لم يكن ذا

---

(١) سبق.

(٢) الحمد لله رب العالمين.

(٣) فما صلى.

(٤) ما.

بصر لم يره، فمن هنا[1] يعلم المصلي رتبته، هل يرى الحق هذه الرؤية في هذه الصلاة أم لا؟، ثم قال: وأما قوله: جعلت قرة عيني في الصلاة ولم ينسب الجعل إلى نفسه، فإن تجلي الحق للمصلي إنما هو راجع إليه تعالى لا إلى المصلي، فإنه لو لم يذكر هذه الصفة عن نفسه لأمره بالصلاة على غير تجلٍ منه له، فلما كان منه ذلك بطريق الامتنان كانت المشاهدة بطريق الامتنان، فقال: «وجعلت قرة عيني في الصلاة» وليس إلا مشاهدة المحبوب التي تقر بها عين المحب من الاستقرار، فتستقر العين عند رؤيته، فلا ينظر معه إلى شيء غيره في شيء وغير شيء، ولذلك نهى عن الالتفات في الصلاة، فإن الالتفات شيء يختلسه الشيطان من صلاة العبد، فيحرمه مشاهدة مربوبه، بل لو كان محب هذا الملتفت ما التفت في صلاته إلى[2] غير قبلته بوجهه، والإنسان يعلم حاله في نفسه، هل هو بهذه المثابة في هذه العبادة الخاصة أم لا؟ فإن الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره، فهو يعرف كذبه من صدقه في نفسه، لأن الشيء لا يجهل حاله، فإن حاله ذوقي، ثم قال: اعلم أن الرؤية والسماع والشهود من العبد المصلي للحق قد يكون بقوة الإيمان واليقين. حتى يكون جلية اليقين بمثابة الإدراك البصري، والسمعي، أعني في قوة الضروريات والمشاهدات، وقد يكون ببصر القلب، أي نور البصيرة والفهم، أعني بنور تجلي الصفات الإلهية للقلب حتى صار العالم عياناً. وقد يكون بالرؤية الحسية البصرية[3]، فيتمثل له الحق متجلياً مشهوداً له مشاهدة عين قاسماً للصلاة (بينه وبين عبده[4])، ويعرف هذا من الخبر الوارد في التجلي الإلهي يوم القيامة، وتنوع ظهوره بحسب اعتقاد كل معتقد

---

(١) هذا.

(٢) بصر.

(٣) ساقطة.

(٤) ساقطة.

فيه، ثم قال فانظر علو رتبة الصلاة وإلى أين تنتهي بصاحبها، فمن لم تحصل له درجة الرؤية في الصلاة فما بلغ غايتها ولا كان له فيها قرة عين، لأنه لم ير من يناجيه، فإن من لم يسمع ما يرد الحق عليه فيها فما هو ممن ألقى السمع، ومن لم يحضر فيها مع ربه مع كونه لم يسمع ولم ير فليس بمصل أصلاً، ولا هو ممن ألقى السمع وهو شهيد، وإلى مثل هذه المشاهدة أشار الحق تعالى وقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾[فصلت/ ٥٣، ٥٤]، وكذلك النبي ﷺ في قوله: «سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر»، وكذلك أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «أفأعبد ما لا أرى؟» وفي قوله: «الحق أبين وأظهر مما ترى العيون» وفي قوله: «وهو من اليقين على مثل ضوء الشمس» وفي قوله: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً» وفي مثل هذه المشاهدات الجلية والصلاة الحقيقية يصدق عليهم أنهم في صلاتهم مشاهدين، لأن الصلاة الدائمة عند التحقيق ليست إلا مشاهدة الحق على الوجه المذكور المخصوصة بأعظم عباده وأخص أوليائه، جعلنا الله منهم بفضله وكرمه، وقد جمع الله تعالى هذه كلها في عبده الكامل الأوحدي، رزقنا الله الوصول إليهم، والجمع بعباده الذين رزقهم كمالات الأولى والأخرى.

وإذا تقرر هذا وتحقق أن المراد بصلاة أهل الحقيقة المشاهدة والوصول إلى المحبوب، فلنشرع في ترتيب صلاتهم وكيفية أركانها على الوضع المخصوص، وهو هذا:

اعلم أن صلاتهم بعد قيامهم بصلاة أهل الشريعة وصلاة أهل الطريقة عبارة عن قيام العارف بما هو مأمور به من الاستقامة على الطريق المستقيم التوحيدي المشار إليه في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[هود/ ١١٢]، وتلك الاستقامة إشارة إلى استقامة الكامل في مقام التكميل، والسير بالله بعد الفراغ من السير إلى الله والسير في الله الذي هو عبارة عن أحدية الفرق بعد

الجمع، ثم توجهه من الحضرة الفعلية والوصفية المعبر عنهما[1] بالحضرة الواحدية والحضرة الربوبية إلى الحضرة الأحدية الذاتية التي هي قبلة العارفين وكعبة المحققين بنية أن لا يشاهد في الوجود غيره أصلاً، ثم تكبيرة الإحرام بمعنى أن يحرم عليه التوجه إلى غير بابه، وصدور الفعل منه بغير رضائه، لقوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام/ ١٦٢]، مع القيام بقوله: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام/ ٧٩]، ثم قراءة[2] الفاتحة بالمعنى المذكور الذي هو التقسيم بين الله وبين عبده مع المشاهدة الجلية العينية في هذه القراءة المشار إليها في قوله وقول أنبيائه مطابقاً لقوله في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[الأنعام/ ٧٥]، ثم يركع ركوعاً أي يتواضع لله تواضعاً يتخاضع معه الملك والملكوت لقيامه بخلافة الله فيهما، واحتياج الكل إليه في الوجود وتوابعه من الكمالات المترتبة عليه، ثم يسجد سجوداً يفنى فيه وجود الموجودات والمخلوقات بأسرها مع افناء وجوده وإفناء هذا الفناء أيضاً لشهوده العيني معنى ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[الرحمٰن/ ٢٦ و٢٧]، ثم ينزهه ويقدسه في الحركتين بالتعظيم والتبجيل تنزيهاً وتقديساً يوجب التقديس عن جميع النقائص السلبية والثبوتية[3]، مشاهداً معنى قوله: سبحان ربي العظيم وبحمده في الأولى، ومعنى قوله: سبحان ربي الأعلى وبحمده في الثانية على ما سبق ذكرها. ثم يشهد بوحدته الذاتية المطلقة والأحدية الوجودية الصرفة المنفية عندها جميع الاعتبارات بكل الاعتبارات مطابقاً لقوله وقول اكمل عباده في كتابه: ﴿شَهِدَ

---

(١) عنها.

(٢) قرأ.

(٣) يمكن كلمة الثبوتية سبق لسان وتسامح لحضرة المؤلف. لأن صفات الثبوتية ليست فيها النقص حتى المصلي نزه وقدّس عنها والله أعلم.

ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[آل عمران/ ١٨]، ثم يسلم لهذا التوحيد من قلبه وروحه بشهوده الحقيقي الذي هو مخصوص بهما خاصة من غير مانع ودافع، لقوله تعالى المتقدم: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء/ ٦٥]، ولقوله أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب/ ٥٦]، لأن التسليم لله لا يصح إلا بتسليم رسوله، وكذلك تسليم رسوله إلا بتسليم وليه المعبر عنه بأولي الأمر لقوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[النساء/ ٥٩]، ويشهد بذلك قوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران/ ٣١]، وهاهنا أبحاث وأسرار تريد بسطاً عظيماً نختصر على ذلك ونعتمد على من له استعداد استخراج باقي الأسرار من أهل الله خاصة، فإن ذلك لا يخفى على أهله.

فجماعة يكون اعتقادهم في الأصول والفروع بهذه المثابة التي عرفتها من أول الأصول الخمسة في الجزء الأول من هذا الكتاب، ومن الجزء الثاني الفروع الخمسة[1] إلى هذا المكان، ويكون اطلاعهم على الحقائق الإلهية والدقائق الربانية إلى هذه الغاية، وقيامهم بالشريعة والطريقة والحقيقة بهذه المرتبة، كيف ينسب إليهم عدم الاعتقاد في الأصول والفروع وقلة القيام بالأوضاع الإلهية والقوانين النبوية؟ جل جنابهم عن أمثال ذلك، وذلك لأن أكثر علماء الظاهر ومجموع أرباب التقليد من العوام بمجرد استماع قول الجهال من الصوفية في الإباحة والإهمال في الأوضاع الشرعية، اعتقدوا أن اعتقاد أرباب التوحيد على هذا، وأنهم ذهبوا إلى أن كل من وصل إلى الله تعالى سقطت عنه التكاليف الشرعية والعبادات الدينية، حاشا وكلا، نعوذ بالله

---

(١) ومن هنا تبين أن هذا الكتاب على الجزأين والجزء الأول إلى صفحة ٢٠٧ والجزء الثاني من هناك إلى خاتمته.

عن نسبة أمثال ذلك إليهم، بل اعتقادهم واتفاقهم على أن كل من وصل إلى الله تعالى أو إلى بعض حضراته، طاعته تكون أكثر وعبادته تكون أعظم ومجاهدته ومشقته على هذا المثال أشد وأصعب، كما كان حال رسول الله ﷺ مع كمال وصوله إليه وقربه لديه، ويعرف هذا من الخبر الوارد عن عائشة وهو أنه ﷺ كان يقوم بالليل ويصلي حتى تورمت قدماه، فقالت عائشة يا رسول الله ما ورد فيك ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[الفتح/ ٢]؟، فقال ﷺ في جوابها: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟»، يعني إذا كان نعمة الله علي هذه المثابة أفلا أكون عبداً شكوراً له ولنعمه، وسورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾[المزمل/ ١ ـ ٣]، وسورة ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾[طه/ ١ و٢] ما ورد إلا في مجاهدته ورياضته وقيامه بالليل وظمئه وسهره صلّى الله عليه وعلى نفسه القدسية، وحال باقي الأنبياء والرسل عليهم السلام في هذا المعنى مشهور معروف، وقد شهد بصحته القرآن والأخبار النبوية والولوية صلى الله عليهما، هذا بالنسبة إلى الأنبياء والرسل، وأما بالنسبة إلى الأولياء والأوصياء فيعرف هذا من حال أمير المؤمنين عليه السلام، فإنه كان يستغرق في الصلاة ومشاهدة الحق فيها، بحيث إذا أراد أولاده عليهم السلام اخراج النصل عن رجله كانوا يصبرون حتى يشتغل بالصلاة ويخرجون النصل من رجله ويشدونها وما له به حس من غاية الاستغراق، ولأجل أداء صلاته في وقتها رجعت الشمس من المغرب مرتين في المدينة ومرة في أرض بابل، وله في زماننا هذا مسجد[1] يسمى بمسجد[2] الشمس كما ردت مرة أُخرى قبلها لأجل شمعون وصي عيسى عليه السلام[3] فلو لم تكن الصلاة عندهم في غاية الاعتبار ما تعلق خاطرهم بأدائها إلى هذه الغاية، ولا

---

(١) مشهد.

(٢) بمشهد.

(٣) والظاهر ردت الشمس لأجل يوشع وصي موسى عليه السلام.

قبل الحق تعالى دعاءهم فيها، وقد ورد أن ولده المعصوم زين العابدين عليه السلام كان يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة، وكان يقول رضيت أن تكون جميع هذه الصلوات مقابلة لركعتين من صلاة أمير المؤمنين عليه السلام، وكذلك ورد في كل واحد واحد من أولاده صلوات الله عليهم مثل ذلك، وأبلغ هذا بالنسبة إلى الأولياء المعظمين، وأما بالنسبة إلى المشايخ من أهل الله وخاصته رضوان الله عليهم[1] فينقسم ما ورد عنهم إلى قسمين، أقوال وأفعال.

أما الأقوال فقال بعضهم: إن الكامل من لا يطفىء نور عرفانه تورعه[2]، وتوجيهه إن الكمال الكمل إنما يتحقق بالجمع بين العرفان الحقيقي[3] والورع التام، فلا بد أن يكون الكامل جامعاً بينهما حتى به يكون كاملاً، فأما من إذا وصل إلى تمام المعرفة بشهود الحقائق تاه به واتقدت[4] نورانية علمه، فاطفأت صور الأعمال الظاهرة ونورها الحاصل عن الورع عما حماه الله على أهل طاعته، فانطفأ نور الورع بنور العرفان، فليس حينئذ بكامل ولا متحقق بالكمال ولا بنور العرفان، وكذلك من اكتفى بنور الورع عن نور العرفان واتكل عليه وجعله سلماً إلى كماله دون الوصول إلى الحقائق الشهودية بنور المعرفة فليس بكامل أيضاً ولا متحققاً[5] بمقام الكمل، بل الكامل القائم بالأمرين الجامع بين النورين نور العرفان ونور الورع، وسر هذا الجمع إنما يظهر من سر معرفة الانطباق بين الظاهر والباطن وحصول العلم بالارتباط بينهما، فإن به يتحقق الارتباط بين نوري العرفان والورع، هذا توجيه كلام ذلك العارف وهو موافق لما نحن بصدده من نزاهته عما ينسب إليهم مما لا يليق.

---

(١) عليهم أجمعين.

(٢) تورعه ساقطة رفي النسخة الأولى نورعه.

(٣) ساقطة.

(٤) وانعدت.

(٥) متحقق.

وقال: آخر الوصول بالحقيقة ترك ملاحظة العمل، وتوجيه ما ذكره هذا العارف اجمالاً أن الواصل إلى الحقيقة[1] لا يتحقق عنده فعل ولا فاعل غيره تعالى، فلا يلاحظ حينئذ شيئاً من الأعمال، ولا يلزم من عدم ملاحظة العمل من حيث وجوده عن فاعله في نظر المحجوبين عدم ملاحظة فعله ووجوب تركه، فإن الملاحظة الأولى لا تنافي الثانية والحديث الوارد عن سلطان الأولياء والوصيين عليه السلام بقوله: ما عبدتك... الحديث دال على هذا المعنى وبه يعرف سر معنى الإخلاص في العمل وتوجه النفس فيه إلى سر العبودية دون ملاحظة الخصوص والمخاوف أو غيرهما من الأعراض الحاجبة عن الوصول والاتصال بالمعبود، هذا على سبيل الاجمال، وإلا فالتفصيل ليس هذا موضعه، تركناه خوف الإطالة، وعليك بملاحظة هذا السر، فإن به يندفع أوهام الإباحية والملاحدة.

وأما الأفعال فورد عن الجنيد رضي الله عنه أنه قال: طاحت الضمارات وفنيت الإشارات وما نفعتنا إلا ركيعات صليناها في جوف الليل، وورد عن الشيخ الكامل سعد الدين الحموي قدس الله سره أنه كان يصلي كل ليلة ويوم كذا وكذا ركعات، ومن أوراده المشهورة عقيب كل صلاة يعرف صدق هذا وكذلك الشيخ شهاب الدين الكبير السهروردي قدس الله سره، وكذلك أبي يزيد البسطامي رحمة الله عليه الذي كان سقاء في دار جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، وكذلك الشيخ الأعظم محيي الدين الأعرابي فإنه صلى بعدد كل نبي وولي ركعتين بعد قيامه بجميع ما وجب عليه، وكذلك في كل الزيارات التي كانت في المغرب والشام ومصر والإسكندرية ومكة والمدينة وبيت المقدس، ويعرف صدق هذا من فتوحاته وأسرار الصلاة التي ذكرها فيها.

والغرض من هذا كله أن هؤلاء القوم ليسوا في شيء مما يظنون فيهم

---

(١) بالحقيقة.

علماء الظاهر وأرباب التقليد من العوام، الذين هم بقايا ذرية كانوا على عهد رسول الله ﷺ يستهزئون بأهل الله وأرباب التوحيد والتأويل، ويتغامزون في حقهم وينكرون طريقتهم لا اليوم خاصة، وعند التحقيق ليس إنكار هذا اليوم إلا نتيجة ذلك اليوم، لأن هؤلاء المنكرين الذين هم في هذا الصدد ليسوا إلا أولادهم وأولاد أولادهم، لقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[الزخرف/ ٢٣]، نعوذ بالله منهم ومن أمثالهم، ونعم ما قال الشاعر في هذا المعنى:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني
أو كنت تعلم ما تقول عذلتكا

لكن جهلت مقالتي فعذلتني
وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

وقد قال بعض العارفين: إن كل شخص يكون عارياً عن فضيلة لا يصدق بوجود تلك الفضيلة في آخر، بل وينكر عليه، لأن أهل الله في مقام المتابعة التامة والأسوة الحسنة المشار إليها في قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب/ ٢١]، وقد سبق عند بحث الشريعة والطريقة والحقيقة أن الأسوة الحسنة هي القيام بجميع المراتب الشرعية، فمن المراتب المذكورة هذه المتابعة، والأسوة لا تقتضي المخالفة في شيء أصلاً، فكيف يصدر منهم ما يخالف هذا وما ظنوا فيهم الجهال والعوام الذين هم بقايا الذرية المذكورة، ، ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[فصلت/ ٢٣]، وعند التحقيق ليست قضية هؤلاء القوم مع تلك الجماعة إلا قضية إبراهيم عليه السلام مع أمة موسى وعيسى عليهما السلام، لأنهم كانوا يقولون: إن إبراهيم منا لا من المسلمين، حتى كذبهم الله تعالى في دعواهم وقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾[آل عمران/

٦٧]، فإن بعض الناس ينسبونهم إلى الإلحاد والكفر والزندقة، وبعض الناس إلى الحلول والاتحاد والتشبيه، والحال أنهم منزهون عن تصوراتهم الباطلة وتوهماتهم الكاذبة، كإبراهيم عليه السلام عن تصور تلك الجماعة وتوهم تلك الطائفة، وقوله تعالى في الحديث القدسي: «أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري» إشارة إليهم، وكذلك قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[المائدة/ ٥٤]، وقول أمير المؤمنين عليه السلام: «اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيناته» وكم ذا وأين أولئك، أولئك والله الأقلون عدداً والأعظمون قدراً، يحفظ الله حججه وبيناته بهم حتى يودعوها نظرائهم ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون، وانسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أُولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه، آه. آه. شوقاً إلى رؤيتهم، أيضاً إشارة إليهم، وفيهم قيل:

لله تحت قباب العز طائفة
أخفاهم عن عيون الناس إجلالا

هم السلاطين في اطمار مسكنة
استبعدوا من ملوك الأرض إقبالا

غبر ملابسهم سم[1] مطاعمهم
جروا على الفلك الخضراء أذيالا

---

(١) صم.

ومع ذلك حيث إن الأنبياء والرسل الذين كانوا من عند الله ما خلصوا من ألسن الطاعنين والجاحدين، لأنهم كانوا ينسبونهم إلى الشعر والسحر والكهانة والجنون وغير ذلك، كما قالوا: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ﴾[الشعراء/ ٢٧]، وقالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾[يونس/ ٢] فليس بعجب إن لم يخلصوا هؤلاء القوم من طعنهم وجحودهم، وذلك أيضاً أُسوة بهم لقولهم: البلاء موكل بالأنبياء ثم بالأولياء ثم بالأمثل فالأمثل، وفي هذا المعنى قيل:

وما أحد عن ألسن سالما

ولو أنه ذاك النبي المطهر

فإن كان مقداماً يقولون اهوج[1]

وإن كان مفضالاً يقولون مبذر

وإن كان سكيتاً يقولون أبكم

وإن كان منطيقاً يقولون مهذر[2]

وإن كان صواماً وبالليل قائماً

يقولون زراق يرائي وينكر

فلا تحتفل بالناس في الذم والثنا

ولا تخش غير الله فالله أكبر

هذا آخر بحث الصلاة على الطوائف الثلاث وما يتعلق بها من المقدمات والأفعال والكيفيات بقدر هذا المقام. وإذا فرغنا من هذا فلنشرع في الصوم

(١) الشجاع يرمي بنفسه في الحرب. طيش وتسرع.

(٢) خلط وتكلم بما لا ينبغي.

وأقسامه على طريق الطوائف الثلاث المذكورة وهو هذا، وبالله العصمة والتوفيق.

وأما صوم أهل الشريعة

فالصوم عندهم عبارة عن الإمساك عن أشياء مخصوصة بزمان مخصوص، ومن شرط صحة النية فإن كان الصوم متعيناً بزمان مخصوص على كل حال، مثل شهر رمضان والنذر المعين، (فيكفي فيه مطلق النية دون نية التعين)[١]، وإن لم يكن متعيناً احتاج إلى نية التعيين، وذلك كل صوم عدا شهر رمضان نفلاً كان أو واجباً ونية القربة يجوز أن تكون متقدمة، ونية التعيين لا بد من[٢] أن تكون مقارنة وقتها[٣]، فإن فاتت نسياناً إلى أن يصبح جاز تجديدها إلى زوال الشمس، فإذا زالت فقد فات وقتها، فإن كان صوم شهر رمضان صام ذلك اليوم وقضى يوماً بدله، ولهذا الصوم أقسام وشرائط وأحكام، وهو واجب ومندوب ونذر معين وغير معين وأمثال ذلك ، ولا يحتمل هذا المكان كلها، نختصر منها على بيان ما يلزم منه القضاء والكفارة وعلى بيان ما يلزم القضاء دون الكفارة، فما يوجب القضاء والكفارة تسعة أشياء: الأكل والشرب والجماع في الفرج وإنزال الماء الدافق عامداً والكذب على الله وعلى رسوله والأئمة عليهم السلام متعمداً والارتماس في الماء عند البعض وأيضاً الغبار الغليظ متعمداً، مثل غبار الدقيق أو غبار النفض وما جرى مجراه، والمقام على الجنابة متعمداً حتى يطلع الفجر ومعاودة النوم بعد انتباهتين حتى يطلع الفجر، والكفارة عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكيناً مخير في ذلك. وأما ما يوجب القضاء دون الكفارة فثمانية أشياء: الإقدام على الأكل والشرب أو الجماع قبل أن يرصد الفجر مع القدرة

---

(١) ساقطة.

(٢) ساقطة.

(٣) ساقطة.

عليه، ويكون طالعاً وترك القبول عمن قال إن الفجر قد طلع، (والإقدام على تناول ما ذكرناه ويكون الفجر قد طلع)[1]، وتقليد الغير في أن الفجر لم يطلع مع قدرته على مراعاته ويكون قد طلع، وتقليد الغير في دخول الليل مع القدرة على مراعاته، والإقدام على الإفطار ولم يدخل، وكذلك الإقدام على الإفطار لعارض يعرض في السماء من ظلمة ثم تبين أن الليل لم يدخل، ومعاودة النوم بعد انتباهة واحدة قبل أن يغتسل من الجنابة ولم ينتبه حتى يطلع الفجر، ودخول الماء إلى الحلق لمن يتبرد بتناوله دون المضمضة للصلاة، والحقنة بالمائعات، هذا صوم أهل الشريعة على طريق أهل البيت عليهم السلام.

وأما صوم أهل الطريقة

فالصوم عندهم بعد قيامهم بالصلاة المذكورة عبارة عن إمساكهم عن كل ما يخالف رضا الله تعالى وأوامره ونواهيه قولاً كان أو فعلاً، علماً كان أو عملاً كما سبق سيجيء تفصيله مبيناً، وإذا تقرر هذا فاعلم: أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال مروياً عن الله تعالى أنه قال: «لكل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم، فإنه لي وأنا اجزي به»، وقال النبي صلى الله عليه وآله: «لكل شيء باب وباب العبادة الصوم» وخصوصية الصوم بهذه الخصال وذكره بهذا التعظيم والإجلال عند النظر الصحيح ليس إلا لأمرين، أحدهما أنه يرجع إلى كف من المحارم ومنع النفس من الشهوات، وإلى أنه عمل سري لا يطلع عليه غير الله دون الصلاة والزكاة وغيرهما من العبادات، فإنه يمكن اطلاع الغير عليها. ويمكن دخول الرياء والعجب فيها، اللذان هما سببان عظيمان لإبطال العبادات وإحباط الطاعات لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف/ ١١٠]، والشرك هاهنا باتفاق المفسرين هو الرياء، وقال النبي صلى الله عليه وآله: «دبيب الشرك في أمتي أخفى من

---

(١) ساقطة.

دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء». وعند علماء الظاهر هذا الشرك بمعنى الرياء، وإن كان عند علماء الباطن كما سبق ذكره بمعنى رؤية الغير مع وجود الحق تعالى كما عرفته مراراً، وقال علي عليه السلام: «إن أدنى الرياء الشرك»، وذلك أيضاً يرجع إلى هذا المعنى، لأن الرياء لا يحصل إلا مع رؤية الغير وإظهاره[1] العبادة عليه رياء وشهرة، وهاهنا أبحاث قد سبق ذكرها عند بحث التوحيد والشرك وانقسامهما إلى الجلي والخفي والألوهي والوجودي، والثاني أنه قهر[2] لعدو الله، فإن الشيطان هو العدو، ولم[3] يقو الشيطان إلا بواسطة الشهوات والجوع يكسر جميع الشهوات التي هي آلة الشيطان، ومع عدم الآلة يستحيل الفعل، ولذلك قال صلى الله عليه وآله: «إن الشيطان يجري في ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع» وفيه سر قوله صلى الله عليه وآله: «إذا دخل رمضان فتحت الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين ونادى مناد يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر أقصر» والمراد منه[4] أن الشيطان الذي هو ممد الشر ومنشؤه قد ضعف وكذلك أعوانه، فعليكم بالسعي في الخيرات والتقصير في الشرور والشهوات.

وأما الإمساك المذكور فعلى قسمين، قسم يتعلق بالظاهر وقسم يتعلق بالباطن، أما الظاهر فالإمساك الأول فيه إمساك اللسان عن فضول الكلام وعن كل ما يخالف رضا الله تعالى وإرادته من الأوامر والنواهي، لأن الله تعالى ما أمر مريم عليها السلام في صومها إلا بإمساك الكلام لقوله: ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾[مريم/٢٦]، ويعلم صدق هذا أيضاً من قوله: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي

---

(١) إظهار.

(٢) في النسخة الثانية قهراً.

(٣) لن يقوى.

(٤) ساقطة.

عَيۡنٗا﴾[مريم/ ٢٥ و٢٦] الآية، لأن هذا أمر بالأكل والشرب، وذاك[1] أمر بالسكوت عن فضول الكلام، فعرفنا أن أعظم الصوم السكوت عن فضول الكلام، وهذا لو لم يكن كذلك ما قال النبي ﷺ: «من صمت نجا»، والحكمة في ذلك أن صمت الظاهر من القول باللسان سبب لنطق الباطن والقول بالجنان، ولهذا كانت إذا سكتت مريم عليها السلام من القول باللسان نطق عيسى عليه السلام في المهد بالبيان ودعوى خلافة الرحمن: فافهم جيداً فإنه دقيق، ويعرف من هذا سر قوله ﷺ: «من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» وورد عن النبي ﷺ أيضاً: «إذا بلغ الكلام إلى الله فأمسكوا» والمراد أي فأمسكوا الشروع فيه باللسان والقول، وبل بالعبارة والإشارة فإنه ليس بقابل لذلك، وكلما ليس بقابل للقول فيه لا ينفع الإخبار عنه باللسان، وبل يضر كالعلوم الذوقية والمعارف الإلهية، ولهذا قال ﷺ في موضع آخر: «من عرف الله كَلَّ لسانه» أي كَلَّ لسانه عن القول فيه والعبارة، لأنه ذوقي شهودي، واللسان يعجز عن القول فيه كما يعجز الشخص مثلاً عن بيان حلاوة العسل إذا عرفها وذاقها بالتناول منه، وقد ورد أيضاً: «إذا ذكر النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا» وكان المراد هذا، لأن سر القدر على التحقيق ذوقي شهودي، وكذلك سر أصحابه الحقيقي فإنه أيضاً ذوقي شهودي وجداني، وورد أيضاً: «هل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم؟» وحصائد الألسنة في الأغلب لا يستعملون إلا في فضول الكلام، وقال أيضاً عليه السلام: «من كثر كلامه كثر سخطه ومن كثر سخطه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه دخل النار» ويشمل جميع ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ

---

(١) ساقطة.

بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[النور/ ١٤ ـ ١٨]، والله ثم والله لو لم يكن في هذا الباب في القرآن إلا هذه الآيات لكفى جزماً بالسكوت عن فضول الكلام وعن الذي ليس لصاحبه به علم، ومع ذلك كله كل من يعتقد أن عليه ملكان موكلان وكلهما الله تعالى ليكتبا كلّ ما صدر منه خيراً كان أو شراً ما تكلم إلا بقدر الضرورة، ولا نطق بشيء غير الخير، والشاهد على هذا قوله جل ذكره: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾[ق/ ١٧]، وإذا عرفت هذا فعليك بحفظ اللسان والسكوت عن فضول الكلام، فإن مضرته أكثر من منفعته، وفساده أعظم من فائدته، وقد عرفت صدق هذا من العقل والنقل، والله أعلم وأحكم وهو يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فأما الإمساك الثاني فإمساك البصر عن مشاهدة المحرمات والمنهيات مطلقاً، وعن المحللات والمباحات إلا بقدر الضرورة، لأن الورع والتقوى ليس في الاجتناب والاحتراز عن المحرمات والمنهيات فقط، بل عن المحللات والمباحات إلا بقدر الحاجة والضرورة، وإلى هذا المعنى أشار الحق في قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ . . .﴾ [النور/ ٣٠] الآية، لأن غض الأبصار لازم لحفظ الفروج في الأغلب، لأن من لم يشاهد الشيء لم تطلب نفسه منه ولا يكون له ميل إليه، كالأعمى فإنه حيث ما شاهد الألوان ولا يعرف الفرق بينها ليس له ميل إلى مشاهدتها إلا من حيث الاستماع، وهذا أمر وجداني يجده كل عاقل من نفسه، والغرض أن غض الأبصار له دخل عظيم في حفظ الفروج التي هي مادة كل فساد ومنبع كل شر، وقد أخبر الله تعالى عن ذلك وأدخل الحافظين لفروجهم في زمرة الصالحين والخاشعين من عباده وأثنى عليهم بذلك، وهو قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون/ ١ ـ ٧] وقوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ إشارة إلى ما قلناه أن النظر إلى المحللات والمباحات ينبغي أن يكون بقدر الحاجة أيضاً.

وأما الإمساك الثالث فإمساك السمع عن استماع ما حرم الله تعالى عليه وعلى المكلفين مطلقاً، كالغيبة للمسلم واستماع التغني بالحرام واستماع كلام أهل الضلال والفسقة من أهل البدع الذي يكون سبب انحرافه عن طريق الحق والدين القويم والصراط المستقيم لقوله تعالى فيه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾[الأنعام/ ٦٨]، ولقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[القصص/ ٥٥]، وقد جمع الكل قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء/ ٣٦]، والفؤاد وإن لم يكن داخلاً في الحس الظاهر لكن في الحقيقة الكل يرجع إليه، لأن عند الأكثر الحواس ما لها شعور بنفسها، بل هي آلات للنفس المعبر عنه تارة بالفؤاد وتارة بالعقل وتارة بالروح، فإنها الشاعر بالحقيقة، لأن حس البصر ما له قوة أن يعرف أن جرم الشمس مثلاً على جرم الأرض بكذا كذا[1] مقدار، فإن مقدار أقل كوكب في السماء وهو أضعاف جرم الأرض فضلاً عن الشمس وحسن البصر يدركه بقدر القرص أو الترس ولا يشعر بذلك أصلاً لأن هذا ليس كذلك، وإن رؤيتها لها بقدر قوتها[2] إدراكها لا غير، وذلك مبسوط في الكتب الحكمية من أرادها وقف عليها، والسلام.

وأما الإمساك الرابع فإمساك الشم عن رائحة خبيثة أو طيبة، أما الخبيثة فلأنها توجب النفر والكراهية في الطبع، وبل يؤذي منها أعظم الجوارح

---

(١) ساقطة.

(٢) كذلك في النسختين والظاهر قوة.

وأشرفها كالكبد والدماغ والقلب، وبل يؤدي إلى الموت المعبر عنه بالفجأة، وأما الطيبة فلأنها مهيجة إلى الشهوات محرمة كانت أو محللة، كالمسك والعبير والعنبر وأمثال ذلك، وقد ورد أن النبيﷺ كان يكره رائحة الثوم والبصل ويحب رائحة الورد والنرجس وأمثالهما، كما قالﷺ: «حبب إلي من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة» كما سبق بيانه.

وأما الإمساك الخامس فإمساك الذوق من أن يذوق شيئاً يجذبه إلى الشهوات أو إلى إزالة العقل كالمسكرات المعلومة وغيرها كمال اليتيم والربا وامثالهما لقوله تعالى في الأول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[الأنعام/ ١٥٢]، ولقوله في الثاني: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[البقرة/ ٢٧٥]، و﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[الأعراف/ ٣١]، إشارة إلى التعديل في المأكول والمشروب المتعلقان بالذوق، لئلا يصل إلى حال[1] الإفراط والتفريط المذمومان مطلقاً، المعبر عنهما باليمين والشمال لقولهﷺ: «اليمين والشمال مضلتان» فالطريق المستقيم هي الوسطى.

وأما الإمساك السادس فإمساك اللمس عن لمس شيء يجذبه إلى المحرمات المذمومة أو إلى المحللات المفرطة الخارجة عن حد الاعتدال لقوله تعالى فيه وفي غيره من الحواس: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾[فصلت/ ٢٢]، حتى إذا ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت/ ٢١] ولقوله: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[يس/ ٦٥]، ونظراً إلى هذه الحواس التي هي رعايا الشخص وأعوانه وأفعاله وأقواله وتحصيل كمالاته قال النبيﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»،

---

(١) ساقطة.

يعني كلكم راع وحاكم وسلطان بالنسبة إلى رعاياكم التي هي حواسكم وقواكم، وكلكم غداً تكونون من الذين تُسأل عنهم وعن استعمالهم، فإن استعملتموهم في الذي خلقوا لأجله فأنتم معدودون في أهل العدل والقسط، ومرجعكم إلى الجنة والرحمة، وإن استعملتموهم في غير الذي خلقوا لأجله فأنتم معدودون في أهل الظلم والجور والعدوان، ومرجعكم إلى الجحيم والغضب والنقمة، لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، كما أن العدل وضع الشيء في موضعه، فكل من استعمل أعضاؤه وجوارحه في غير ما خلق لأجله فهو الظالم، والظالم ملعون مستحق للنار والعذاب، والحق تعالى جل ذكره لتنظيف هذه الحواس واستعمالها في موضعها أمر بالطهارة المذكورة من الوضوء والغسل والتيمم، ولقوله فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾[المائدة/ ٦] الآية بتمامها، لئلا يغفل العبد عن هذه ويقوم بوظائف الطهارة بحسب الشرع في الظاهر وبحسب باطن الشروع في الباطن كما سبق ذكره أيضاً، وقد ورد عن بعض الأئمة عليهم السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾[الجن/ ١٨]، إنه تعالى أراد بالمساجد المساجد السبعة من الأعضاء الظاهرة كالجبهة واليدين والركبتين والرجلين، ومعناه أن هذه المساجد هي لله ملكه وخلقه وعبيده، فلا تصرفوها في غير مرضاته وغير ما خلقوا لأجله، والكل راجع إلى ما قلناه أولاً وأخيراً، وهو أنه يريد أن العبد يقوم بصرف كل عضو له فيما خلق لأجله ليتصف بالذين يضعون الأشياء مواضعها ويصدق عليه أنه من أرباب العدل والقسط قولاً وفعلاً وعلماً وعملاً، ويدخل بذلك في سلك أهل الله وسلك ملائكته وأولي العلم من عباده، لقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾[آل عمران/ ١٨ و١٩]، وأنا على ذلك من الشاهدين، هذا بالنسبة إلى الحواس

الخمسة الظاهرة وليس اللسان منها بوجه، لأن اللسان من حيث إنه مخصوص بالنطق والتكلم ما له دخل في الحواس، ومن حيث إنه من جملة أعوان الذوق وآلاتها فهو داخل في الذوق، وبناء على هذا وهو يكون خارجاً بوجه وداخلاً بوجه، أو يكون خارجاً بالكلية ويكون بحث الحواس بحث برأسه وبحث اللسان بحث[1] برأسه ولا خلل في ذلك وبالله التوفيق.

وأما بالنسبة إلى الحواس الخمس الباطنة فالإمساك الأول إمساك القوة المفكرة عن الفكر في الأمور الغير النافعة، أو العائدة إلى صلاح معاده ومرجعه، لأن القوة المفكرة ما خلقت إلا لأجل سير الإنسان بها من المبادىء إلى المقاصد المسماة عند المتكلمين بالقوة النظرية، فالقوة المفكرة صرفها فيما خلقت لأجله أولى وأنفع، لأنها لو صرفت في غيره يلزم اتصاف صاحبها بالظلم، وقد عرفت حال الظالم من البحث السابق بأنه ملعون مطرود عن باب الله، ومن حيث إن القوة المفكرة لها هذا الاستعداد والاستحقاق قال تعالى بالنسبة إليها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الرعد/ ٣]، وقال النبيﷺ: «تفكر ساعة خير من عمل سبعين سنة».

وأما الإمساك الثاني فالإمساك عن صرف القوة الحافظة إلا فيما خلقت لأجله، وهو حفظ المعارف الإلهية والعلوم العقلية وما شاكل ذلك، لأنها خازن القوة المفكرة، والقوة المفكرة ما خلقت إلا للفكر في أمثال ذلك وإذا كان كذلك فلا يكون في خزانته[2] غير ذلك، فيحرم على القوة الحافظة إلا حفظ أمثالها لتدخل بذلك في طائفة ورد فيهم. ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾[التوبة/ ١١٢]، وأول حفظ الحدود صرف كل قوة فيما خلقت لأجله، والله أعلم وأحكم.

---

(١) بحثاً.

(٢) خزينته.

وأما الإمساك الثالث فالإمساك عن صرف القوة المتخيلة إلا فيما خلقت لأجله، وهو تصور صورة الشخص عمراً[1] أو زيداً بأنه كذا وكذا من حيث الشكل واللون، كما أن شغل القوة الوهمية تصور العداوة والمحبة في الأشخاص، والقوة المتخيلة بهذا السبب تعرض كل ساعة على صاحبها الأشخاص الكثيرة والصور المتنوعة، ويمنعها عن تخيل[2] فيما خلقت لأجله، لأن هذا شغله، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[طه/ ٦٦]، لأن القوة الخيالية لو كان لها قوة إدراك المعنى لم يكن يتصور أنها حية تسعى، بل عرف أنه سحر وهو على غير الحق، وعند التحقيق ما خلقت إلا لأجل استدلال صاحبها بها على العالم المثالي المعبر عنه بالخيال المطلق، كما عبر عنها بالخيال المفيد، وهذا يعرف من تطبيق الآفاق بالأنفس بحكم قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت/ ٥٣].

وذكر الشيخ الإلهي والعارف الرباني شمس الدين الشهرزوري قدس الله سره صاحب الشجرة الإلهية في رسالته للنفس كلاماً يدل على هذا، وهو قوله: ينبغي أن تعلم أن كل شيء في العالم العلوي والروحاني له مثال وظل في العالم السفلي، فنور الشمس مثال النور الربوبي الإلهي، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[الروم/ ٢٧]، وأراد به الشمس، ونور القمر نظيراً لنور العقل المذكور في قوله ﷺ: «أول ما خلق الله العقل» ونور الكوكب نظيراً للنور الحسي لقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[الإسراء/ ٣٦]، ثم ذكر ما يدل على قولنا الأول في بيان المتخيلة وكيفية تصرفها، وهو قوله: اعلم ثانياً أن أكثف الحجب المعمية للنفس من ذاتها إنما هو المتخيلة، لتخيل الصورة تارة والمعاني أخرى،

---

(١) في النسخة الثانية عمرواً.

(٢) التخيل.

والتركيب والتفصيل بينهما أخرى، وعرضها جميع ذلك على النفس دائماً لا يفتر نوماً ولا يقظة فتشتغل النفس عن مطالعة ذاتها بمطالعة ما تعرضه المتخيلة، فيكون حجاباً لذاتها، ولا تحجب ذاتها عن حقيقة ذاتها، أعني الظهور الإلهي، إذ الظهور لا يحجبه شيء ظهوره، ولكن يحجبه عن التفطن والشعور لأجل الاستغراق بالغير، وفي كلامه هذا قوله: لتخيل الصورة تارة والمعنى أخرى والتركيب بينهما، لا يطابق قول بعض العلماء وأكثر الحكماء، فإنهم ذهبوا إلى أن تصور القوة المتخيلة الصورة فقط، وتصور القوة الوهمية المعنى فقط، وتصور الحس المشترك الصورة مع المعنى، وتسميته بالمشترك كان لأجل هذا، فكأنه اشتبه عليه نسبة الحس المشترك إلى المتخيلة، وحيث إن الإنساني[1] في معرض السهو والغلط يجوز ذلك من طرفه ويجوز من طرفنا أيضاً، ولا يعلم الغيث إلا الله، والله أعلم واحكم وهو يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وقد ورد عن رئيس المكاشفين وقطب الواصلين الشيخ الأعظم محيي الدين العربي قدس الله سره في تدبيراته الإلهية في المملكة الإنسانية ما يخالف قول الشهرزوري، وهو قوله: اعلم أن العين والأُذن واللسان واليد والبطن والفرج والرجل من عمال الإنسان وأمنائه من أهل تأديته، وكل واحد منهم رئيس وخازن على صنف من أصناف ماله وخزائنه ورئيسهم، وأمامهم الحس الذي ترجع إليه هذه الحواس كلها بأعمالها، والحس برياسته ومملكته مرؤوس تحت سلطان الخيال، والخيال بما فيه من صحة وفساد مرؤوس تحت سلطان الذكر، والذكر مرؤوس تحت سلطان الفكر، والفكر مرؤوس تحت سلطان العقل، والعقل وزير الإنسان، والإنسان رئيس الإمام المعبر عنه بالروح القدسي، والمراد من هذا النقل قوله: والخيال بما فيه من صحة وفساد تحت سلطان الذكر، والذكر مرؤوس تحت سلطان الفكر، لأن الخيال

(١) في النسخة الثانية الإنسان.

لو كان له تصرف في المعنى مع الصورة والتركيب بينهما ما كان مرؤوساً تحت الذكر والفكر، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت/ ٤٣].

وأما الإمساك الرابع فإمساك القوة الوهمية عن عرض عداوة طائفة كل ساعة على النفس وعرض محبة طائفة أخرى كذلك، فإن ذلك يمنع النفس عن الاستقامة على الطريق المستقيم والتوجه إلى الدين القويم الذي هو التوحيد الحقيقي المانع عن أمثال ذلك، لأن أمثال ذلك أي المقام في دركات رؤية العداوة والمحبة والعدو والمحب وظيفة النفس الأمارة بمعاونة قوى الغضبية والشهوية، وصاحب النفس المطمئنة المستحق للرجوع فارغ عن هذا وعن غيره، لأنه في مقام مشاهدة المحبوب وأفعاله، وكلّ ما فعل المحبوب محبوب، فلا عداوة له مع أحد ولا قيد له أيضاً بالمحب والمحبة، لأنه في عالم الإطلاق ومشاهدة الوجود الواحد المطلق، وذلك العالم خال عن جميع ذلك، و﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[الأنعام/ ٩١]، ورد في ذلك وأمثاله، فافهم جيداً، وصاحب الصوم الحقيقي يجب أن يكون صاحب النفس المطمئنة لا الأمارة، ليستحق بها الرجوع لقوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[الفجر/ ٢٧ - ٣٠]، والأمر بالدخول في العباد لا يمكن إلا في مقام الاطمئنان، ولهذا قال: «الصوم لي وأنا اجزي به» وجزاؤه على الوجه المذكور لا يكون إلا مشاهدته في مظاهره الآفاقية والأنفسية، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر» وقد قيل في أسرار الصوم ما يوافق هذا المقام وهو قول بعض العارفين.

وأما درجات أسرار الصوم فثلاثة، أدناها أن يقتصر على الكف عن المفطرات ولا يكف جوارحه عن المكاره، وذلك صوم العموم وهو قناعة بالاسم، الثانية أن يضيف إليه كف الجوارح، فيحفظ اللسان عن الغيبة والعين عن النظر بالريبة وكذا سائر الأعضاء، وذلك صوم الخواص من أهل الله،

وأما الثالثة فهو أن يضيف إليهما صيانة القلب عن الفكر والوساوس ويجعله مقصوراً على ذكر الله تعالى ومشاهدته في مظاهره، وذلك صوم خصوص الخصوص وهو الكمال المقصود بالذات، وأمثال ذلك في هذا الباب كثيرة فارجع إلى مظانها، والله أعلم وأحكم.

وأما الإمساك الخامس فإمساك الحس المشترك الجامع للوهم والخيال عن عرض الصورة والمعنى على النفس كل ساعة، فإنه مانع عن السلوك والسير، لأن كل من يشتغل بالصورة الحسية يحجب عن الصورة المعنوية، وكل من يشتغل بالمعاني الوهمية يحجب عن المعاني الحقيقية العقلية، والمحجوب محجوب سواء كان بحجاب أو بألف حجاب، فيجب على الصائم الإمساك عن أمثال ذلك ليخلص من الحجب ويشاهد المحبوب على الوجه الذي ذكرناه.

وقد تقرر عند أهل الله وخاصته أن مثال النفس مثال شجرة لها عشرة أغصان، يأخذ كل غصن منها حقه من الماء الذي تشرب هذه الشجرة منه، وذلك[1] أمر طبيعي لا يمكن بدون هذا، فلو فرض قطع تسعة أغصان منها لا بد أن تصل قوة تلك التسعة وشربها إلى تلك الواحدة منها، فينمو بذلك ويكبر وتكون ثمرته أحلى وأكثر وألطف وأحسن، وكذلك النفس الإنسانية مع أغصانها العشرة التي هي الحواس، فإن الإنسان لو قطع أغصانها التسعة عن نفسه بقطع تعلقاته عن العالم، فإن كل واحدة منها مخصوصة بتعلق تكبير الغصنة الباقية منها، وتكون ثمرته الفكرية أعلى وأعظم وألطف وأشرف، ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ[2] فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[الزمر/ ٢٧] هذا آخر صوم أهل الطريقة.

---

(١) هذا.

(٢) ساقطة.

وأما صوم أهل الحقيقة

بعد قيامهم بالصومين المذكورين فهو عبارة عن إمساك العارف عن مشاهدة غير الحق تعالى مطلقاً بحكم قولهم: ليس في الوجود سوى الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، فالكل هو وبه ومنه وإليه، لأن كل من لم يمسك نفسه عن مشاهدة الغير مطلقاً فهو مشرك، والمشرك لا يصح صومه ولا صلاته، لأن الأصل في الصوم الطهارة الباطنية من رجس الشرك وخبث رؤية الغير بماء التوحيد ونور الإيمان، كما أن في الصلاة وأكثر العبادات مع هذه الطهارة طهارة أخرى شرط، ومعلوم أن الصلاة وباقي العبادات كما لا تصح إلا بالطهارة المعلومة ولا تصح من المشرك والكافر أصلاً، وكذلك الصوم فإنه لا يصح من المشرك جلياً كان الشرك أو خفياً، وكل مشرك كافر وكل كافر مشرك لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾[النساء/ ١١٦]، وهذه[1] قاعدة كلية في طريق التوحيد وأربابه، ولا يجوز إظهارها إلا عند أهلها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[النساء/ ٥٨]، وعن النبي ﷺ: «لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم»، وما قيل:

ومن منح الجهال علماً أضاعه ... ومن منع المتوجبين فقد ظلم

وقول عيسى عليه السلام: لا تعلقوا الجوهر في أعناق الخنازير. كل ذلك إشارة إلى ما ذكرناه.

وقد تقرر أن الشرك في الظاهر والباطن، وكذلك التوحيد وأنهما يقتضيان، فكما أن صاحب الشرك الجلي الذي بازاء التوحيد الألوهي لا يصح صومه ولا صلاته، فكذلك صاحب الشكر الخفي الذي بازاء التوحيد

---

(١) في النسخة الثانية هذا.

الوجودي لا يصح صومه ولا صلاته، وإلى صاحب الشرك الخفي أشار الحق تعالى وقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف/ ١١٠]، لأن هذا لو كان إشارة إلى صاحب الشرك الجلي لقال ولا يشرك بربه أحداً، فحيث قال عبادة ربه عرفنا أنه إشارة إلى صاحب الشرك الخفي المعبر عنه بالمؤمن والمسلم كما سبق تقريره مراراً متعددة، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف/ ١٠٦] أيضاً إشارة إلى صاحب[1] الشرك الخفي، وكذلك قول النبي ﷺ: «دبيب الشرك في أمتي أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء»، وفي الشرك الجلي والخفي معاً، وكذلك في التوحيد الألوهي والوجودي معاً ورد أن توحيد ساعة واحدة يفني كفر سبعين سنة، وكفر ساعة واحدة يفني إسلام سبعين سنة، لأن اجتماعهما من المستحيلات عقلاً ونقلاً كما قيل.

النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان. وبالجملة اجتماع النقيضين محال، وقد ثبت أنهما نقيضان فيستحيل اجتماعهما وهو المطلوب، والغرض أنه يجب على العارف أولاً الإمساك عن مشاهدة فعل الغير مطلقاً ليصل به إلى مقام التوحيد الفعلي، ثم الإمساك عن مشاهدة صفة الغير مطلقاً ليصل به إلى مقام التوحيد الوصفي، ثم الإمساك عن مشاهدة وجود الغير مطلقاً ليصل به إلى مقام التوحيد الذاتي الذي هو المقصود من السلوك مطلقاً وبل من الوجود بأسره، ويصدق عليه أنه صائم بالصوم الحقيقي ممسك عما سواه بالكلي، وهذا هو الصوم الذي ورد أن كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، لأن غير هذا الصوم لا يستحق أن يكون هو جزاؤه، بل جزاء هذا الصوم لا يكون إلا هو، لأن الصومين المذكورين جزاؤهما الجنة والنعيم والحور والقصور أو القرب والوصول والكشف

---

(١) ساقطة.

والشهود، وهذا الصوم جزاؤه هو، لا غير، فيكون أعظم وأعلى منهما، وذلك لأنه أعظم العمل وأعظم العمل لا يستحق إلا أعظم الجزاء وليس هناك أعظم منه فلا يكون جزاؤه إلا هو، فافهم جيداً، وفيه قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾[الصافات/ ٦٠ و٦١] وإليه أشار بقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء/ ١١٤]، والفرق بين صوم أهل الطريقة وصوم أهل الحقيقة أن الأول سبب لتهذيب الأخلاق والاتصاف بصفات الحق لقوله ﷺ: «تخلقوا بأخلاق الله»، والثاني سبب لفناء العبد وبقائه بالحق في مقام التوحيد الصرف المعبر عنه بالفناء في التوحيد المشار إليه في قول العارفين، وقد ورد أيضاً في الحديث القدسي أنه قال: «من طلبني فقد وجدني، ومن وجدني فقد عرفني، ومن عرفني فقد أحبني، ومن أحبني فقد[1] قتلته، ومن[2] قتلته فعلي ديته، ومن علي ديته فأنا ديته» والكل إشارة إلى فناء العبد فيه وبقائه به في مقام الوحدة الصرفة المعبر عنه بأحدية الفرق بعد الجمع المشار إليه بقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[الأنفال/ ١٧]، ويقول النبي ﷺ: «من رآني فقد رأى الحق، وسبحاني ما أعظم شأني».

وقد ضرب أهل الله وخاصته رضوان الله عليهم أجمعين مثالاً لطيفاً لئلا يتوهم الجاهل أن كلامهم ليس له تحقيق، وهو أنهم قالوا: نفرض هناك ناراً موصوفة بالضوء والإحراق والحرارة والإنضاج وغير ذلك، ونفرض بإزائها فحماً موصوفاً بالظلمة والكدورة وعدم الحرارة والانضاج، ثم نفرض أنه حصل لهذا الفحم قرباً إلى تلك النار بالتدريج واتصف بجميع صفاتها فصار ناراً، وحصل منه ما يحصل من النار، وبل صار هو هي، فلا يجوز له أن يقول أنا النار؟، كما قال العارف أنا الحق؟، ومعلوم أنه يجوز، لأنه صادق

---

(١) فانا.

(٢) أنا قتلته.

في قوله، وفيه قيل: أنا من اهوى ومن اهوى أنا، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[العنكبوت/ ٤٣]. وهاهنا أسرار لا يجوز إفشاءها أكثر من هذا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، هذا آخر بيان الصوم بالنسبة إلى الطوائف الثلاث من أهل الشريعة والطريقة والحقيقة وحيث فرغنا فلنشرع في الزكاة كذلك، وهو هذا:

وأما زكاة أهل الشريعة

فالزكاة عندهم تجب في تسعة أشياء، الإبل والبقر والغنم والذهب والفضة والحنطة والشعير والتمر والزبيب وما عداها لا يجب فيه، وهي على ضربين، أحدهما يراعى فيه حؤول[1] الحول والآخر لا يراعى فيه ذلك فما يراعى فيه حؤول[2] الحول الأجناس الخمسة التي هي سوى الغلات والثمار، وما لا يراعى فيه الحول الأجناس الأربعة من الغلات والثمار، فشرائط ما يراعى فيه الحول على ضربين، أحدهما يرجع إلى المكلف والآخر يرجع إلى الأجناس، فما يرجع إلى المكلف على ضربين، أحدهما شرائط الوجوب والآخر شرائط الضمان، فشرائط الوجوب اثنان. الحرية وكمال العقل، فالحرية شرط في الأجناس الخمسة كلها، وكمال العقل شرط فيما عدا المواشي من الأثمان، لأن من ليس بكامل العقل من الصبيان والمجانين يجب في مواشيهم الزكاة، وشرائط الضمان اثنان: الإسلام وامكان الأداء، وما يرجع إلى الأجناس فشرطه اثنان، حؤول[3] الحول وبلوغ النصاب، وما لا يراعى فيه الحول فشرطه اثنان، أحدهما يرجع إلى من تجب عليه والثاني يرجع إلى الأجناس، فما يرجع إلى من تجب عليه الحرية فقط، لأن غلات

---

(١) حلول.

(٢) حلول.

(٣) فحلول.

من ليس بكامل العقل تجب فيها[1] الزكاة، وليس في مال من ليس بكامل العقل شرط الضمان، وما يرجع إلى الأجناس شرط واحد وهو بلوغ النصاب، وهاهنا أبحاث وأحكام مختلفة بالنسبة إلى كل واحدة من هذه الأقسام وليس هذا المكان محتاج إلى أكثر من ذلك، والله أعلم وأحكم.

وأما زكاة أهل الطريقة

فالزكاة عندهم بعد قيامهم بالزكاة المذكورة إذا وجبت عليهم تزكية النفس عن رذيلة البخل وتطهير القلب عن قذارة الشح المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[التغابن/ ١٦]، وإلى كثرة ثمراتها ونمائها وبركاتها من العلوم والحقائق والمعارف والدقائق بعد ذلك أشار وقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾[البقرة/ ٢٦١].

وبيان ذلك مفصلاً وهو أن السالك إذا أخرج من قلبه صفة البخل والشح وأنبت موضعه صفة البذل والسخاوة، حصل من هذا أوصاف أخر لا يمكن حصر شعبها وسنابلها من المعارف والحقائق، وأقلها الفلاح والنجاة من الأوصاف الرذيلة والأخلاق المذمومة التي هي الموجبة للدخول في الجحيم المعنوية دون الصورية، لأن الصورية لا يكون إلا بعد المعنوية، لأن الجحيم ومراتبها بحسب الملكات والأخلاق وتمثيله بالحبة والسنبلة للمناسبة لأن كل صفة اتصف بها السالك محمودة كانت أو مذمومة يحصل منها أوصاف أخر يطول حصرها كالحبة، فإن الحبة الواحدة تقع في الأرض وتنبت منها سنبلات متعددة في كل سنبلة كذا وكذا من الحبة، لقوله: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾[البقرة/ ٢٦١]، وهذا أمر حسي مشاهد لا ينكره عاقل، وله المثل الأعلى، وبالنسبة إلى الزكاة

---

(١) فيه.

المالية قيل: إنما سر التكليف بها بعد ما يرتبط بها من مصالح البلاد والعباد وسد الخلات والفاقات، لأن[1] المال محبوب الخلق وهم مأمورون بحب الله ومدعون للحب بنفس الإيمان، فجعل المال معياراً لحبهم وامتحاناً لصدقهم في دعواهم، فإن المحبوبات كلها تبذل لأجل المحبوب الأغلب حبه على القلب، وقيل أيضاً: يجب على المعطي أن يحذر من المن بها على قابلها، وحقيقة المن أن ترى نفسك محسناً إلى الفقير متفضلاً، وعلامته أن يتوقع منه شكر أو تستنكر تقصيره في حقك وموالاته عدوك استنكاراً يزيد على ما كان قبل الصدقة، فذلك يدل على أنك رأيت لنفسك عليه فضل[2]، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾[البقرة/ ٢٦٤]، وعلاج ذلك وهو أن تعرف أنه المحسن إليك بقبول حق الله تعالى منك، فإن من أسرار الزكاة تطهير القلب وتزكيته عن رذيلة البخل وخبث الشح، فإذا طهرتها[3] من هذا وجعلتها موصوفة بالعجب والكبر وإيذاء الغير فكأنك ما طهرته من شيء بل زدت خباثته ونجاسته نعوذ بالله منه، ولهذا[4] كانت الزكاة طهرة إذ بها تحصل الطهارة وكأنها غسالة نجاسة من باطن فاعلها، ومن[5] هذا ترفع رسول الله ﷺ وأهل بيته من أخذ الزكاة وقال: «إنها أوساخ أموال الناس» فإذا أخذ منك الفقير ما هو طهرة لك فله الفضل عليك، أرأيت لو أن فصاداً فصدك وأخرج من باطنك الدم الذي تخشى ضرره في الحياة الدنيا، أكان لك الفضل أم له؟، فالذي يخرج من باطنك رذيلة البخل وضررها في الحياة الأخرى فهو أولى بأن تراه متفضلاً. هذا بحسب الظاهر.

---

(١) إن.
(٢) فضلاً.
(٣) طهرنا.
(٤) ولذلك.
(٥) ولهذا.

وأما بحسب الباطن فحيث إن أهل الطريقة ليس لهم مالاً حتى به يخرجون زكاتهم، فزكاتهم تكون بإخراج ما يزكي نفوسهم من الأخلاق الذميمة والملكات الردية ثم بإنفاق أحب الأشياء إليهم في سبيل الله ومرضاته الذي هو النفس لقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران/ ٩٢]، ومعلوم أن أحب الأشياء إلى الإنسان وبل إلى جميع الحيوان روحه ونفسه، فيجب حينئذ انفاقه في سبيل الله حتى تحصل له التزكية الحقيقية والطهارة الكلية المذكورة، ويصدق عليه أنه أدى الزكاة حقيقة لقوله تعالى أيضاً: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[آل عمران/ ١٦٩ و١٧٠]، ومعناه لا ينبغي أن تحسب أن من قتل في سبيل الله صورة أو معنى أنه عدم وما له من[1] أجر، فإنه ليس كذلك، بل لصاحب القتل الصوري أجر ونصيب في الآخرة من الجنة والنعيم والقصور والقرب والكرامة، ولصاحب القتل المعنوي كذلك، لأن له في الدنيا المعارف والحقائق وحسن الأخلاق وطيب العيش والمكاشفات والمشاهدات والاطلاع على حقائق عالم الملكوت والجبروت، وعلى الجملة مشاهدة الحق تعالى في مظاهره الآفاقية والأنفسية التي هي أعلى المشاهدات وفي الآخرة الجنة والنعيم والقصور والقرب والكرامة المذكورة، وفوق ذلك كله الوصول إلى المحبوب والمقصود وحصول ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، كما أخبر عنه أيضاً: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾[القمر/ ٥٤ و٥٥]، وقوله جل ذكره: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى

---

(١) منه.

ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة/ ١٧٧] إشارة إلى مجموع ما ذكرناه في هذا الباب وسيما إلى تعيين البر وتحقيقه الذي هو المقصود في هذا المقام، هذا وجه من الوجوه التي فيه، ووجه آخر وهو أن الزكاة بحسب الشرع يترتب على المواليد الثلاث من المعدن والنبات والحيوان لأن الذهب والفضة من المعدنيات، والحنطة والشعير والتمر والزبيب من النباتات، والإبل والبقر والغنم وغيرها من الحيوان، وقد قال النبيﷺ: «لكل شيء زكاة، وزكاة البدن الطاعة»، فكل عبد قام بطاعة ربه على ما أمر به فقد أدى الزكاة على الترتيب المذكور وحصل له التزكية الحقيقية كما ذكرناه، لأن أهل الله وخاصته قدس الله أرواحهم ونور ضرائحهم ذكروا في تطبيقهم للعالم الآفاقي بالعالم الصغير الأنفسي، أن عظامه الكبار والصغار بمثابة المعادن، وإن شعره وظفره وما شاكل ذلك بمثابة النبات، وإن نفسه الحيوانية وحواسه الظاهرة والباطنة بمثابة الحيوان، فكل من يقوم بطاعة ربه لا بد أن يحصل لجوارحه وأعضائه وأركانه المشتملة على المراتب الثلاثة[1] تعب ونصب، وهذا التعب والنصب هي الزكاة عند التحقيق، وثمرة ذلك في الدنيا أنه إذا عمل هذا وطهر من الرجس والرجز، وارتفع عند الكدورات الطبيعية والرذائل الخلقية بحكم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر/ ١ ـ ٥]، وبمقتضى إشارته ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس/ ٧ و٨] صارت مرآة قلبه مجلوة وظهرت فيها أنوار ملكوتية وآثار جبروتية، وبل صارت من سكانهما وأهاليهما اللواتي هي العقول المجردة والنفوس المطهرة المعبرة في الشرع بالملائكة المقربين المشار إليها بالملأ الأعلى، ومن هذا كان الرسول ﷺ يقول دائماً في دعائه ومناجاته: «اللهم اجعل لي نوراً في قلبي ونوراً في سمعي ونوراً في

---

(١) الثلاث.

بصري ونوراً في لحمي ونوراً في دمي ونوراً في عظامي ونوراً من بين يدي ونوراً من خلفي ونوراً عن يميني ونوراً عن شمالي ونوراً من فوقي ونوراً من تحتي ونوراً في قبري اللهم زدني[1] نوراً واجعل لي نوراً بحق حقك يا أرحم الراحمين» والحكمة[2] في هذا أنه يزول عنه الظلمة والكدورة والرجز والخبث والحدث ويحصل بازائها النور والصفاء والطهارة والتزكية واللطف والخلق، وتصير بسببها من أهل الملكوت والجبروت بقوة المناسبة[3]، ويحصل له ما حصل لهم من المشاهدات والمكاشفات، وهذا الدعاء قد سبق مرة أخرى حتى لا يتوهم متوهم أنه مكرر من غير شعور، وهذا ارشاد لغيره وتعليم لأمته تحريضاً لهم على تحصيل هذه المقامات والمراتب، وإلا النبي المعصوم عليه السلام منزه عن امثال ذلك كما تقرر في الأصول عند علماء الظاهر وأهل البرهان، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ويجوز أن يحمل ذلك على الأرواح الثلاثة دون الأجساد في صورة الأعضاء، لأن في الإنسان روح معدني وروح نباتي وروح حيواني كما في الافاق، فيحمل زكاة المواليد الثلاث على هذه الثلاث بإخراج أوصافها الرديئة وأخلاقها الذميمة عن كل واحدة منها، وطهارتها بالذي بازاء كل واحدة منها من الأخلاق والأوصاف، لأن الأرواح في الحقيقة حقيقة واحدة يتكثر بحسب الإضافات والاعتبارات، لأن لها بحسب كل صفة يحصل لها بسبب النزول إلى عالم الطبيعة اسم، أعني من حيث تجردها واطلاقها تسمى نفساً إنسانية، ومن حيث تعلقها بالبدن في أول الحال تسمى نفساً نباتية، وفي ثاني الحال نفساً حيوانية، وفي المرتبة الثالثة نفساً نفسانية، وقد أخبر الشرع والقرآن عن هذه النفوس الأربعة بالأمارة واللوامة والملهمة والمطمئنة، أما الأمارة فلقوله

---

(١) زد لي.

(٢) والحكم.

(٣) مناسبة.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[يوسف/ ٥٣]، وأما اللوامة فلقوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[القيامة/ ١ و٢]، وأما الملهمة فلقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس/ ٧ و٨]، وأما المطمئنة فلقوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[الفجر/ ٢٧ و٢٨]، وذلك لأن النفس في أول الحال لضعف قوة العقل ومنعها عما يضرها تكون أمارة على البدن والقوى وما يتعلق بها، لكن إذا غلبت عليها النفس اللوامة بقوة العقل ومنعتها ملائماتها صارت لوامة، وقامت بملامتها ورجعت عما كانت عليه، وإذا صارت هذه الملامة لها مَلكة وثبتت عليها واستقرت صارت ملهمة واستحقت الإلهام من الله تعالى في أفعالها وأحوالها، وحصل لها الفرق بين حسنها وقبيحها، خيرها وشرها، وإذا صارت هذه الحالة أيضاً ملكة لها وشاهدت بسببها عالم الغيب وصارت مستحقة لمشاهدة ربها صارت مطمئنة وحصل لها الرجوع إلى عالمها لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾، ونعم الزكاة التي تكون ثمرتها هذه، والله أعلم وأحكم، هذه زكاة أهل الطريقة.

وأما زكاة أهل الحقيقة

فالزكاة عندهم بعد القيام بالزكاتين المذكورين عبارة عن إخراج كل ما في الوجود عن درك تقييده وإيصاله إلى عالم الإطلاق ليزكيه به عن رجز الغيرية وخبث الاثنينية، لأن كل موجود يفرض وهو مطلق مع قيد شخصي بإضافة المطلق إلى المقيد، وأما كيفية الإخراج من قيد التقييد فبالنسبة إلى المواليد الثلاث أولاً يكون بإخراجها عن قيد التركيب وإيصالها إلى البساطة الصرفة التي هي مرتبة العناصر، وبالنسبة إلى العناصر يكون بإخراجها عن قيد البساطة والتشخيص العنصري وإيصالها إلى بسائط[1] العوالم العلوية من

(١) بساطة.

السماوات والأجرام، وبالنسبة إلى السماوات والأجرام يكون بإخراجها عن قيد السماوي والكوكبي وإيصالها إلى الجسم الكلي الطبيعي، وبالنسبة إلى الجسم الكلي يكون بإخراجها عن قيد الجسمية وإيصالها إلى مرتبة الهيولى الكلية، وبالنسبة إلى الهيولى الكلية بإخراجها عن قيد الهيولاني وإيصالها إلى مرتبة الطبيعة الكلية، وبالنسبة إلى الطبيعة الكلية يكون بإخراجها عن قيد الطبيعة وإيصالها إلى[1] مرتبة الأرواح البسيطة، وبالنسبة إلى الأرواح البسيطة يكون بإخراجها عن القيد الروحي وإيصالها إلى مرتبة الأرواح القدسية إلى مرتبة النفس الكلية وعالم النفوس، ومن مرتبة النفوس الكلية المعبر عنها بالملكوت الأعلى إلى مرتبة العقول المجردة، ومن مرتبة العقول المجردة إلى مرتبة الحضرة الأحدية والوجود المطلق المعبر عنه بالحق تعالى جل ذكره، فإن هذا الإخراج عن هذه القيود هي الطهارة الحقيقية والتركية الكلية بالنسبة إلى كل موجود من الموجودات الممكنة، وقد سبق أن كمال المعدن في وصوله إلى أُفق النبات وكمال النبات في وصوله إلى مقام الحيوان وكمال الحيوان في وصوله إلى مقام الإنسان وكمال الإنسان في وصوله أولاً إلى مقام الملك ثم إلى مقام الخلافة الإلهية ثم إلى مقام الوحدة الصرفة المعبر عنه في قول العارف بالوصول الكلي المشار إليه في قوله: إذا تم الفقر فهو الله، وهذه الزكاة حيث يجعل الإنسان وبل الموجودات كلها طاهراً مطهراً من رجز التقييد ودنس التعين الذي هو الشرك الخفي المتقدم ذكره، فهي الزكاة الحقيقية المقصودة بالذات، لأنه ليس هناك طهارة أعظم من هذا، لأن طهارة الموجودات من قيد[2] التقييد والإضافات أعظم الطهارات وأعلاها، وبل هي المقصودة بالذات من تكليف العباد بإخراج الزكاة، وفقنا الله تعالى للقيام بها وبأمثالها، لأنه المستعان وعليه التكلان، وحيث فرغنا من بحث الزكاة

---

(١) ساقطة.

(٢) غير.

فلنشرع في بحث الحج على الترتيب المذكور[1] وهو هذا:

وأما حج أهل الشريعة

فالحج عندهم من حيث اللغة القصد ومن حيث الاصطلاح الشرعي القصد إلى بيت الله الحرام لأداء مناسك مخصوصة متعلقة بوقت مخصوص، وهو واجب ومندوب، فالواجب على ضربين، مطلق ومقيد، فالمطلق هو حجة الإسلام وهي واجبة بشروط ثمانية، البلوغ وكمال العقل والحرية والصحة ووجود الزاد والراحلة والرجوع إلى كفاية من المال أو الصناعة أو الحرفة وتخلية السرب من الموانع وإمكان المسير، ومتى اختل واحد من هذه الشروط سقط الوجوب ولم يسقط الاستحباب ، ومن شروط صحة أدائها الإسلام وكمال العقل، وعند تكامل الشروط تجب في العمر مرة واحدة، وما زاد عليها فمستحب ووجوبه على الفور دون التراخي، وأما المقيد فهو يجب عند سبب، وذلك ما يجب بالنذر أو العهد، وهو بحسبهما إن كان واحداً فواحداً، وإن كان أكثر فأكثر، ولا يتداخل الفرضان على الأقوى، وإذا اجتمعا لا يجزي[2] أحدهما عن الآخر، وقد روي أنه إذا حج بنية النذر اجزأ عن حجة الإسلام، والأول أحوط، ولا ينعقد النذر به إلا من كامل العقل الحر، ولا يراعي باقي الشروط.

وأما أقسامه فالحج على ثلاثة أضرب، تمتع وقران وإفراد، فالتمتع هو فرض من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام، والإفراد والقران فرض من كان حاضريه وحدّه من كان بينه وبين المسجد الحرام اثنا عشر ميلاً من أربع جوانب البيت، أعني أربعة فراسخ، لأن كل فرسخ ثلاثة أميال وكل ميل أربعة آلاف ذراع وكل ذراع أربعة وعشرون أصبعاً فيكون المجموع أربعة فراسخ.

---

(١) المعلوم.

(٢) يجوز.

وأما أفعاله فأفعال الحج على ضربين، مفروض ومسنون والمفروض على ضربين، ركن وغير ركن في الأنواع الثلاثة التي ذكرناها، فأركان التمتع عشرة أربعة منها للعمرة وستة للحج، أما التي للعمرة فالنية والإحرام من الميقات في وقته وطواف العمرة والسعي بين الصفا والمروة، أما التي للحج فالنية بالحج والوقوف بعرفات والوقوف بالمشعر وطواف الحج والسعي للحج، وما ليس بركن فثمانية أشياء التلبيات الأربع مع الإمكان أو ما يقوم مقامها مع العجز، وركعتا طواف العمرة والتقصير بعد السعي والتلبية عند الإحرام بالحج أو ما يقوم مقامها والهدي أو ما يقوم مقامه من الصوم مع العجز وركعتا طواف الحج وطواف النساء وركعتا الطواف له، وأما أركان القارن والمفرد فستة، النية والإحرام والوقوف بعرفات والوقوف بالمشعر وطواف الزيارة والسعي، وما ليس بركن فيهما أربعة أشياء، التلبية أو ما يقوم مقامها من تقليد أو إشعار وركعتا طواف الزيارة وطواف النساء وركعتا الطواف له، ويتميز القارن من المفرد بسياق الهدي ويستحب لهما تجديد التلبية عند كل طواف، وأما المسنونات فتلك كثيرة تعرف من مظانها، والسلام على من اتبع الهدى، هذا حج أهل الشريعة على طريقة أهل البيت عليهم السلام .

وأما حج أهل الطريقة

بعد القيام بالحج المذكور والاعتقاد فيه فهو القصد إلى بيت الله الحقيقي والكعبة المعنوية بحسب السير والسلوك، ولبيت الله عندهم اعتبارات اعتبار في الافاق واعتبار في الأنفس، أما الافاق فهو عبارة عن قلب الإنسان الكبير المسمى بالنفس الكلية والبيت المعمور واللوح المحفوظ، وأما الأنفس فهو عبارة عن قلب الإنسان الصغير المسمى بالفؤاد والصدر والنفس الناطقة الجزئية وغير ذلك من الأسماء الواردة فيهما، والأول يتعلق بأهل الحقيقة لأنه قبلتهم والثاني يتعلق بأهل الطريقة فإنه أيضاً قبلتهم أما أهل الحقيقة وكيفية قصدهم وتوجههم إلى قبلتهم فستعرفها بعد هذا البحث إن شاء الله تعالى.

وأما أهل الطريقة وكيفية قصدهم وتوجههم إلى قبلتهم التي هي قلبهم فهي موقوفة على تقرير مقدمة، وهي أنه ورد في الخبر: إن أول بيت مدت على الماء وظهرت على وجهه كانت الكعبة قبل الأرض وما عليها من البيوت، وهو قوله ﷺ: «الكعبة أول بيت ظهرت على وجه الماء عند خلق السماء، خلقه الله قبل الأرض بألفي عام وكان زبدة بيضاء على وجه الماء فدحيت الأرض تحته» وقد شهد بصحة ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[آل عمران/ ٩٦ و٩٧]، والمراد من إيراد الخبر والآية أنك تعرف أن هناك كعبة صورية وكعبة معنوية، وكل واحدة منهما تنقسم إلى قسمين، أما الصورية فقسم منها المسجد الصوري المسمى ببيت الله الحرام، وقسم آخر القلب الصوري المسمى أيضاً ببيت الله الحرام، وأما المعنوية فقسم منها قلب الإنسان الكبير المعبر عنه بالنفس الكلية، وقسم آخر قلب الإنسان الصغير المعبر عنه بالنفس الناطقة الجزئية، فكما أن يصدق الخبر والآية من حيث التطبيق على القسمين الأولين، كذلك يصدق على القسمين الأخيرين، لأن أول حقيقة ظهرت في العالم الروحاني من روح الإنسان الكبير المعبر عنه بأول ما خلق الله الروح أو العقل، كانت قلبه الحقيقي المعبر عنه بالنفس الكلية لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[النساء/ ١] كما أن أول صورة ظهرت في العالم الجسماني المعبر عنه بالأرض كانت صورة البكة الصورية لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾[آل عمران/ ٩٦]، وأول حقيقة ظهرت في العالم الروحاني من روح الإنسان الصغير المعبر عنه بقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾[الحجر/ ٢٩] كانت قلبه الحقيقي المعبر عنه بقوله: «لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن» كما أن أول صورة ظهرت في

العالم الجسماني المعبر عنه بالبدن كانت صورة القلب الصوري المعبر عنه بالصدر لقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[الشرح/ ١]، فكما أن من الكعبة الصورية يستدل على الكعبة المعنوية التي هي قلب الإنسان الكبير، فكذلك في الصورة القلبية يستدل على الكعبة المعنوية التي هي قلب الإنسان الصغير بحكم قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[فصلت/ ٥٣]، وهذا بيان إجمالي محتاج إلى بيان تفصيلي وهو أن نقول:

اعلم أن قوله ﷺ: «الكعبة أول بيت ظهرت على وجه الماء عند خلق السماء». الحديث، بالنسبة إلى الإنسان الكبير أول بيت يكون نفسه الكلية المسماة ببيت الله الأعظم، وظهورها على وجه الماء يكون إشارة إلى العوالم الروحانية التي صدرت منها قبل العوالم الجسمانية، فإن كل شيء يكون فوق شيء يكون هو عليه، ولا شك أن النفس الكلية فوق النفوس الجزئية والعوالم الروحانية فتكون هي عليهما، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[هود/ ٧]، هذا معناه أيضاً، يعني كل العرش قبل خلق السماوات وأرض الجسمانيات على الروحانيات من العقول والنفوس، إن أراد بالعرش العرش المعنوي الذي هو العقل الأول، وإن أراد بالعرش العرش الصوري الذي هو الفلك الأعظم الأطلس أعني التاسع، يكون المراد بالماء الماء الصوري على قول بعض المفسرين، لأنهم قالوا إن بين العرش والماء حيث لم يكن في أول الحال حائل يجوز أن يقال إنه عليه، وهذا القائل ناصر الدين البيضاوي، هذا وجه ووجه آخر، إن الماء هو العلم الإلهي الذي عليه كل شيء من حيث الثبوت فيها دائماً أبداً، وتخصيصه بالعرش يكون لعظمته، أعني إذا كان قيام العظيم وبقاؤه به فالصغير بالطريق الأولى، والغرض أنا إذا فرضنا هذا الماء الذي عليه العرش نطفة الإنسان الكبير من حيث الصورة كما هو مقرر عند أهل الله فيكون الماء بمعنى الماء الصوري، ويكون ظهورها عليه بمعنى تعلقها بالنطفة التي يوجد منها صورة

العالم بأسرها، فإن أهل الشرع قد اتفقوا على أن ابتداء العالم كان من الماء بحكم ما ورد عن النبيﷺ في هذا الباب وهو قوله: «أول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر إليها فذابت حياءً ـ أو قهراً ـ على اختلاف الروايتين ـ فصارت نصفها ناراً ونصفها ماء، فخلق من الماء السماوات ومن النار الأرضون ـ أو خلق من الماء الجنة ومن النار الجحيم، أو خلق من الماء الروحانيات ومن النار الجسمانيات ـ» ولا مشاحة في الألفاظ، وبرهانهم على ذلك التطابق بين العالمين الآفاقي والأنفسي، فإن ابتداء العالم الصغير وإيجاده بحسب الصورة[١] كان من الماء الذي هو النطفة، والصغير انموذج[٢] الكبير من جميع الوجوه، فيجب أن يكون هو أيضاً كذلك، وهذا أقرب الوجوه، لأن إيجاد الإنسان الصغير الذي هو نسخته وأنموذجه[٣] حيث كان على هذا الوضع، لأنه أوله كان نطفة ثم صار مضغة ثم صار علقة إلى آخر الأطوار، فيجب أن يكون هو كذلك، وقوله عند خلق السماء يكون إشارة إلى تقديم الروحانيات على الجسمانيات، بناء على هذا الترتيب الأول لا الثاني، أعني من حيث النزول من العلويات إلى السفليات لا العكس، وقوله قبل الأرض بألفي عام يكون إشارة إلى أن النفس الكلية المسماة بالكعبة الحقيقية خلقها الله قبل الأجسام المعبر عنه بالأرض بألفي عام، يكون المراد بألفي عام طورين كاملين، الأول طور العقل ثم طور النفس، لأنهما سابقان على الأرواح والأجسام بمدة مديدة. وأما دورين من ادوار الكواكب لأن لكل كوكب منها دور خاص وهو ألف سنة ودور مشترك وهو ستة آلاف سنة، ويكون المراد أن عالم الأجسام خلق بعد خلق الأنفس والأرواح بدورين كاملين، وقد سبق أيضاً هذا البحث مبسوطاً، وقد تقرر أن في مدة دور زحل يكون العالم خراباً،

---

(١) بحسب الصورة ساقطة.

(٢) كذا في النسختين.

(٣) كذا في النسختين.

وفي ابتداء دور المشتري يبتدىء بالعمارة وفي آخرها توجه الحيوانات حتى ينتهي إلى الإنسان، فيكون المراد بألفي عام دور هذين الكوكبين على الوجه الذي قررناه أو طوري العقل والنفس، وعندي هذا أنسب، وإن كان الوجهان من عندي، وتقديم الأرواح على عالم الأجسام أظهر وأبين من أن يحتاج إلى بيان وبرهان وسيما قد شهد به الخبر والقرآن، فإن النبيﷺ قال: «خلق الله تعالى الأرواح قبل الأجساد بألفي عام» والقرآن قد نطق بأن الأرواح قبل الأجسام في مواضع شتى، منها قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[الأعراف/ ١٧٢] الآية، وقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون/ ١٤]، وثم لا يكون إلا للتراخي، وكان زبدة بيضاء على وجه الماء إشارة إلى صفاء النفس الكلية ولطافتها بالنسبة إلى الروحانيات الأخر التي كان تحتها المشار إليها بالماء، لأن كل ما هو أعلى من الروحانيات فهو ألطف، وكذلك من الجسمانيات أيضاً، وقوله: فدحيت الأرض تحته يكون إشارة إلى إيجاد عالم الأجسام بعدها، لأن عالم الأجسام وجد بعد عالم الأرواح بمدة مديدة، وفيه قيل: إن عالم الأمر والأرواح هو الذي لا يحتاج إلى مدة ومادة، وعالم الخلق والأجسام هو الذي يحتاج إلى مادة ومدة، هذا من حيث الخبر وأما من حيث المعنى[1] يمكن هذا المعنى بعينه لكن يطول فالإعراض عنها اعتماداً على أهلها أولى وأحسن، وأما تطبيق الخبر بالنسبة إلى الإنسان الصغير فقولهﷺ: «الكعبة أول بيت ظهرت على وجه الماء عند خلق السماء..» الحديث. البيت بالنسبة إليه يكون القلب الحقيقي المسمى ببيت الله الحرام وظهوره على وجه الماء يكون بمعنى تعلق روحه بالنطفة من حيث التدبير والإيجاد إن قلنا بالتجرد، وإن لم نقل بالتجرد فذلك ظاهر، وخلقه عند خلق السماء يكون عبارة عن خلق الروح الإنساني

---

(١) الآية.

المعبر عنه بالقلب قبل الروح الحيواني المعبر عنه بالسماء، وقبل الأرض بألفي عام يكون إشارة إلى خلق روحه قبل بدنه بالطورين الكاملين المذكورين أو الدورين المعلومين، أعني كان إيجاد روحه قبل إيجاد بدنه ومادته الصورية بالطورين الكاملين من طوري العقل والروح، أو الدورين اللذين هما دور زحل والمشتري المتقدم ذكرهما، وقوله: زبدة بيضاء يكون إشارة إلى صفاء جوهريته ولطافته قبل تعلقه بالبدن المعبر عنه بالأرض، وعلى وجه الماء يكون إشارة إلى النطفة التي هي مادة البدن وصورة الإنسان، ويكون المراد تعلق الروح بإيجاده وإظهاره في عالم الغيب وعالم الأمر. وقوله: فدحيت الأرض تحته يكون إشارة إلى البدن، ويكون معناه أن الروح إذا توجهت إلى النطفة من حيث التدبير والتعلق دحيت وبسطت البدن بحسب حكمه وأمره لينتظم حال الصورة الإنسانية باجتماعهما واتحادهما، وذلك تقدير العزيز العليم، وبناء على هذا فمعنى الآية وهو أن يقول: ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ[1]﴾ البدن، الذين هم قواه وجوارحه وأعضاؤه كان[2] صورة القلب الصوري دون المعنوي، ليتوجهوا إليه في تحصيل مقاصدهم ومعارفهم، و﴿بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ يكون إشارة إلى صدره الذي يحيط به كمكة بالمسجد والمسجد بالكعبة، لأن الكعبة بمثابة القلب والصدر بمثابة المسجد والبدن بمثابة الحرم أو مكة، ومباركاً يكون صفة للبركات التي تحصل منها من[3] المعارف الإلهية والحقائق الربانية، ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي هذا البيت هدى للطوائف التي[4] حواليه من أهل عالمه أي من قواه الروحانية والجسمانية والأرواح الحيوانية والنفسانية والنباتية وغير ذلك. والطائفون والقائمون والركع السجود إشارة

---

(١) في النسخة الثانية: لناس.

(٢) كانت.

(٣) ساقطة.

(٤) الذي من.

إليهم كما سبق بيانه في معنى الشكر الحقيقي والحديث النبوي «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» و﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾ يكون إشارة إلى حضرة العقل المستفاد التي هي حضرة القدس ومقام التداني، فإنه من أعظم آيات الله وأعلاها[1]، ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ يكون[2] تقديره أن من دخل هذا البيت المسمى بالقلب على ما ينبغي أمن من إغواء الشياطين النفس[3] الأمارة وإغواء عفريت الخيال واختطاف جنود الوهم وتصرف صعاليك[4] الجن والإنس، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾، معناه أي ولله على الناس التي ذكرناهم حج هذا البيت، أي القصد إليه والطواف له، ليطلعوا على آياته وأسراره وحقائقه، ويصلوا به إلى الله وإلى جناته وحضراته، لكن من استطاع إلى هذا سبيلا أي من استطاع إلى هذه الطريقة والقيام بها طريقاً وتمكناً، أي يتمكن من سلوك هذا الطريق بقوة الزاد الحقيقي الذي هو العلوم اليقينية والفناء الكلي والموت الإرادي المعبر عنهما بالعلم والعمل، لأن كل من لم يكن له هذه الاستطاعة يسقط عنه هذا الحج كما تقرر في الحج الشرعي الظاهر، ومن كفر بهذا الحج وخالف أمر الله وانتكس عن طريقه وانحرف عن استقامته فإن الله غني عنه وعن العالمين الذين هم من أهل مدينته وبلده المعبر عنهما بالقوى والأعضاء والأرواح وأمثال ذلك، ومن يعتصم بالله في سلوك هذا الطريق والسير فيه بالانقطاع إليه والتمسك بعنايته وهدايته فقد هدي إلى صراط مستقيم، أي قد هدي إلى صراط مستقيم توحيد حقيقي الذي هو المقصود من السلوك والتوجه إلى بيت الله المعنوي، هذا بالنسبة إلى الأنفس والحج الحقيقي المعنوي السلوكي.

---

(١) اعلاه.

(٢) فيكون.

(٣) والنفس.

(٤) سعاليك.

وأما بالنسبة إلى الآفاق والحج الآفاقي والاطلاع على حقائق الملكوت والجبروت والطواف بهما فقس على كل واحدة من هذه القوى عالم[1] من العوالم ومظهر[2] من المظاهر، فإنك تجده حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة، وإذا تقرر هذا وتحقق فاعلم: أن كل من يريد أن يحج هذا الحج وأن يقصد هذا البيت يجب عليه أولاً أن يحرم من الميقات الذي هو الإحرام من مقام النفس وحظوظها، بمعنى أن يحرم عليه جميع الملذات والمشتهيات من المحرمات والمحللات إلا بقدر الضرورة لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾[البقرة/ ١٧٣]، ويمنعها عن إيذاء كل حيوان وإنسان[3] قوة وفعلاً ونية وعزماً، ثم يتوجه إلى الحرم الحقيقي والبيت المعنوي الذي هو البدن وقواه ليشاهد حاله وما حواليه من القوى المعبر عنها بالآيات والمشاعر، ويحصل له من ذلك علوماً ومعارفاً، لأن كل واحدة من قواه ومشاعره مشحونة بمعارف لا يطلع عليها إلا الكامل الفرد من أفراد العالم، ويجب له الاشتغال في هذه الحالة بالتلبيات الأربع ومعناها التي هي الإقرار باستغناء مالكه عن طاعته وعبادته وطاعة كل أحد وعبادته، واحتياج كل موجود إليه ذاتاً ووجوداً وحولاً وقوة بحيث يسمع منه هذا النداء بسمع الحال، ويستقبل عليه بلبيك لبيك على لسان الحال دون المقال ليتحقق له حقيقة العبودية وكمال الربوبية، ثم يدخل مسجد الصدر الذي هو المسجد الحرام حول القلب الذي هو الكعبة الحقيقية، ويطوف به سبعة أشواط، أعني يطلع عليه سبع مرات ليعرف حاله ويرتفع عنه حجابه الذي هو أخلاقه الذميمة وأفعاله الردية المعبرة عنه بسبعة حجب[4] عدد أبواب الجحيم التي هي العجب والكبر والحسد والحرص

---

(١) عالماً.

(٢) مظهراً.

(٣) ساقطة.

(٤) أشواط حجب.

والبخل والغضب والشهوة، بحيث تزول منه هذه السبعة بسبعة من الطواف، ويكون كل واحدة منها علة إزالة كل واحدة منها، وعلة اتصاف القلب بما يقابلها من الأخلاق الحميدة كالعلم والحكمة والعفة والشجاعة والعدالة والكرم والتواضع، ثم يصلي في مقام إبراهيم العقل صلاة الشكر لاتصاله إلى هذا المقام بمحض الطاقة وعين إشفاقه، وقد عرفت حقيقة الصلاة قبل هذا وتحققت أن المراد بها الإقرار بالعبودية الصرفة والالوهية المحضة بعد فنائه في السجود الأول فيه ورجوعه إلى القيام وبقائه به، ثم يسعى بين الصفا والمروة، أي يسير بين عالمي الظاهر والباطن ليشاهد محبوبه فيهما. ويطلع على الآيات التي يتعلق بهما بحكم قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[فصلت/ ٥٣]، وتحصل له هذه المشاهدة الحقيقية والمعارف اليقينية ويتحقق معنى قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾[فصلت/ ٥٣و٥٤]، ثم يقصر في المروة، أي يسقط عن رأسه ما بقي فيه من الأنانية والاثنينية، ليخرج بهذا عن الإحرام وأفعال العمرة التي هي بمثابة الوضوء إلى الصلاة ويحل عليه كل ما حرم به قبل ذلك، لأن العبد في مقام الأنانية والغيرية لا يحل له شيء أصلاً بمذهب العارفين، فإذا خرج منها وصار فانياً فيه باقياً به حل عليه كل شيء، وبل بقوله يحرم ويحل، لأنه الخليفة والآمر والناهي، فافهم ذلك جيداً ليحصل لك معرفة مقام النبوة ثم الولاية، لأنه ليس غيرهما بعد الحق متصرف في الوجود، ويشهد بذلك قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[النساء/ ٥٩]، ثم يحرم إحراماً[1] آخر من حضرة العقل تحت ميزاب القلب، لأن العقل كالميزاب بالنسبة إلى القلب، لأن من بحر

---

(١) في النسخة الثانية احرام.

القلب تجري الحكمة والمعارف على ميزاب العقل ويصل إلى ما تحته من القوى، لقوله ﷺ: «من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» أي لسان العقل الذي هو المترجم بالنسبة إلى القلب، ثم يتوجه إلى عرفات الدماغ وجبل العرفان للوقوف به والاطلاع على ما حواليه من الآيات والمعارف والحقائق، لأن الدماغ بالنسبة إلى البدن تارة كجبل أبو قبيس أو جبل هراة[1] وتارة كعرش المجيد أو عرش الكريم المتقدم ذكره، وفي هذا المقام يقع المعارف بين آدم الحقيقي الذي هو الروح وبين النفس الكلية[2]: التي هي حواء، وما سمى تلك الحضرة بعرفة إلا لهذا، ويشهد به قوله ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» ثم يرجع إلى المشعر، أي[3] الوقوف بمشاعره الصورية والمعنوية المعبرة عنها بالحواس العشرة، ليطلع على أحوال كل واحدة منها ويخرجها من حكمه ويجعلها مطيعة لخالقه وربه بحكم «كنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله. .» الحديث، لأن الحواس ما دامت في حكم العبد فهي مطيعة للنفس الأمارة متابعة لشيطان الهوى المردي، فأما إذا صارت بحكم الرب مطيعة لما أمر به من الأوامر والنواهي فهي مطية للنفس المطمئنة متابعة للعقل الذي هو الأمير والحاكم في مدينتها وبلدها، ثم يرجع إلى منى عالم بالصدر لرمي أحجار أخلاقه الذميمة وأوصافه الردية عند الجمار الثلاث التي هي المعدن والنبات والحيوان، أعني في عالم المركبات وما يتعلق به، وسبب ذلك أن هذا مقام الإخلاص ومقام الخطر العظيم لقوله ﷺ: «العالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم» فصاحب هذا المقام إن خلص عند الإحرام من أخلاقه وأوصافه لكن إذا رجع إلى مقام التكميل وحالة البشرية

---

(١) كذا وفي النسخة الأخرى هرات، والظاهر حراء.

(٢) الكلي الذي هو.

(٣) إلى.

بحكم قولهم: النهايات الرجوع إلى البدايات، يجب الاحتراز أيضاً عن رجوعه إلى تلك الأخلاق، لأن هذا ورد: «حسنات الأبرار سيئآت المقربين» ثم يتوجه إلى حلق رأسه، أي رأس نفسه من الأنانية، ورؤية الفعل والحول والقوة منه الذي هو الأعظم من الأول، والحجب والموانع من الاستقامة على ما هو عليه من الكمال والتكميل، ثم يتوجه إلى ذبح نفسه مرة أخرى، بحيث لا يبقى منها اسم ولا رسم لقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ ثم ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾[1]، ثم يرجع إلى الكعبة للطواف الثاني، أي يرجع إلى الكعبة الحقيقية التي هي القلب للطواف الثاني، أي للاطلاع مرة أخرى عليه ليطهرها من دنس مشاهدة الغير بالكلية، وهذا مقام قوله ﷺ: «وإنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة»، لأن النبي المعصوم ما له ذنب شرعي حكمي حتى يستغفر من ذلك الذنب، بل ذنبهم في طريق سلوكهم وتوجههم إلى الله تعالى هو مشاهدة الغير ولو طرفة عين، وذلك من غلبة عالم البشرية وقوة النفس الحيوانية بمقتضاها، وقد مر تفصيل ذلك أيضاً، ثم يصلي في مقام إبراهيم عليه السلام ركعتي طواف الحج، أي ركعتي صلاة الشكر بوصوله إلى محبوبه ومقصوده في توجهه وقصده في صلاته الحقيقية، ثم يسعى مرة أخرى بين صفاء العالم الروحاني ومروة العالم الجسماني، أو بين صفاء القلب ومروة النفس (ليشاهده فيهما آيات كمال مظاهره ومشاهدة علامات جماله وجلاله)[2]، ثم يقصر في مروة العالم الجسماني أو مروة النفس بحذف ما بقي فيه مشاهدة الكثرة في عالم الوحدة، ثم يرجع إلى منى لرمي الجمار الثلاث في أيام التشريق، أي يرجع من كعبة القلب مرة أخرى إلى منى الصدر في أيام التشريق التي هي أيام التوحيد التفصيلي المعبر عنه بالفعلي والوصفي

---

(١) قال تعالى ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة/ ٥٤) (العاملي).

(٢) ليشاهد فيهما وآيات كمال مظاهره وعلامات مشاهده جماله وجلاله

والذاتي، لحذف كل ما سواه في المراتب الثلاث بحيث لا يبقى عنده إلا الحق تعالى جل ذكره، ويرتفع عن نظره الخلق بأسره، بحيث لا يبقى لهم وجود أصلاً عنده ولا له أيضاً، ويشاهد الحق من حيث هو الحق تارة في عالم وحدته مجرداً عن جميع الاعتبارات، وتارة في عالم كثرته تحت ملابس أسمائه وصفاته وجماله وجلاله، وتارة في عالم الجمع بينهما المتقدم ذكره عند التوحيد الجمعي المحمدي، وهذا هو المقصود من الحج المعنوي عند أرباب الطريقة، وإذا عرفت هذا فلنشرع في حج أهل الحقيقة وبيانه، وهو هذا:

وأما حج أهل الحقيقة

فالحج عندهم بعد قيامهم بالحجين المذكورين عبارة عن القصد والتوجه من حيث السير المعنوي إلى قلب الإنسان الكبير الذي هو بيت الله الأعظم المسمى بالبيت المعمور وحضرة القدس والنفس الكلية وأمثال ذلك، كما أن حج أهل الطريقة عبارة عن قصدهم وتوجههم إلى قلب الإنسان الصغير، وبيان ذلك يحتاج إلى تمهيد مقدمات، منها قول بعض العارفين في تطبيق العالمين:

اعلم أن سلطان الروح الجزئي الذي هو روح الإنسان الصغير كما لا يكون إلا في الدماغ، فكذلك سلطان الروح الكلي الذي هو روح الإنسان الكبير المسمى بالعالم لا يكون إلا في العرش الذي هو بمثابة الدماغ منا، وكما أن مظهره الأول في الإنسان الصغير هو القلب الصوري الذي هو منبع حياة، فكذلك مظهره الأول في الإنسان الكبير هو الفلك الرابع الذي هو فلك الشمس ومنبع حياة العالم، فإنه بمنزلة الصدر فيه، والشمس بمنزلة القلب الصوري، وأما القلب الحقيقي فهو النفس الكلي المسماة باللوح المحفوظ والكتاب المبين وآدم الحقيقي المشار إليه في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً..﴾ [النساء/ ١] الآية، وروح الفلك الرابع بمثابة الروح الحيواني الذي في القلب،

إذ به تحيا جميع الأعضاء وهو البيت المعمور المشهور في الشريعة أنه في السماء الرابعة المقسم به في التنزيل حيث قال ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٍ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾[الطور/ ١ ـ ٦]، ولهذا جعلت مقام عيسى روح الله وكانت معجزته إحياء الموتى، والطور هو العرش، والكتاب المسطور هو النفس الكلية التي هي قلب العالم، والرق المنشور هو الفلك الثامن الذي هو مظهره، والسقف المرفوع يجوز أن يكون العرش ويجوز أن يكون سماء الدنيا، والبيت المعمور يجوز أن يكون الفلك الرابع ويجوز أن يكون النفس الكلية، والفلك الثامن أيضاً[١] الذي هو مظهر النفس الكلية، والبحر المسجور هو بحر الهيولى السيالة المملوءة بالصور، ويجوز أن يكون عالم البرزخ الأول المركب من العالمين الروحاني والجسماني المسمى بالخيال المطلق المملوء بصور الموجودات كلها. ومع ذلك نشرع في تفصيله بحكم الحديث النبوي والآية المذكورة مرة أخرى، ليتحقق عندك ما قررناه.

أما الحديث فقوله عليه السلام: «الكعبة أول بيت ظهرت على وجه الماء عند خلق السماء خلقه الله قبل الأرض بألفي عام، وكان زبدة بيضاء على وجه الماء ودحيت الأرض تحته» وأما الآية فقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا﴾[آل عمران/ ٩٦] إلى آخرها[٢]، وبيان الحديث وهو أنه يكون المراد من قوله: الكعبة أول بيت ظهرت على وجه الماء عند خلق السماء ما تقدم ذكره عند حج أهل الطريقة، وهو أن الكعبة هي النفس الكلية المسماة ببيت الله الأعظم، وظهورها على وجه الماء يكون إشارة إلى العوالم الروحانية التي صدرت منها قبل العوالم الجسمانية، فإن كل شيء يكون

---

(١) ساقطة.

(٢) آخره.

فوق شيء يكون هو عليه، ولا شك أن النفس الكلية فوق النفوس الجزئية والعوالم الروحانية فتكون هي عليها، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[هود/ ٧] هذا معناه أيضاً، يعني كل العرش قبل خلق[1] السماوات والأرض الجسمانيان على الروحانيان[2] من العقول والنفوس إن أردنا بالعرش العرش المعنوي الذي هو العقل الأول، وإن أردنا بالعرش العرش الصوري الذي هو الفلك الأعظم الأطلس أعني التاسع، يكون المراد بالماء الماء الصوري على قول بعض المفسرين، لأنهم قالوا: إن العرش والماء حيث لم يكن في أول الحال حائلاً وكان بينهما خلاء يجوز أن يقال إنه عليه، وهذا ذكره ناصر الدين البيضاوي في تفسيره، وهاهنا أبحاث، ويجوز أن يكون الماء إشارة إلى الهيولى الكلية التي هي بمثابة الماء بالنسبة إلى النفس الكلية التي فوقه بمراتب، ويجوز أن يكون ذلك قبل الفتق في حالة الرتق الذي هو إجمال المادة كلها في حالة كانت العقل والنفس والعرش والكرسي حقيقة واحدة ومادة كلية، لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾[الأنبياء/ ٣٠] الآية، وهكذا ورد في اصطلاح العارفين في تعريف الفتق والرتق وهو قولهم: الرتق اجمال المادة الوحدانية المسماة بالعنصر الأعظم المطلق المرتوق قبل السماوات والأرض المفتوق بعد تعينها بالخلق، وقد يطلق على نسب الحضرة الواحدية باعتبار لا ظهورها، وعلى كل بطون وغيبة كالحقائق المكنونة في الذات الأحدية قبل تفاصيلها في الحضرة الواحدية مثل الشجرة في[3] النواة، والاستشهادات في ذلك كثيرة هذا وجه ووجه آخر:

---

(١) ساقطة.

(٢) الروحانيات.

(٣) و.

إن الماء هو العلم الإلهي الأزلي عليه كل شيء من حيث فيه دائماً أبداً، وتخصيصه بالعرش يكون لعلو شأنه وعظمة جلاله وكبريائه، أعني إذا كان قيام العظيم الذي هو العرش به وبوجوده فالصغير بالطريق الأولى، والغرض أنا إذا فرضنا هذا الماء الذي عليه العرش نطفة الإنسان الكبير من حيث الصورة كما هو مقرر عند أهل الله، فيكون الماء بمعنى الماء الصوري ويكون ظهورها عليه بمعنى تعلقها بالنطفة التي توجد منها صورة العالم بأسرها، فإن أهل الشرع قد اتفقوا على أن ابتداء العالم وإيجاده كان من الماء، وتمسكوا في ذلك بقوله بالحديث النبوي بعد القرآن والبحث الذي في سورة[1] الدخان كقوله عليه السلام: «أول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر إليها فذابت تلك الجوهرة حياءً أو قهراً ـ على اختلاف الروايتين ـ فصار نصفها ماءً ونصفها ناراً، فخلق من الماء السماوات ومن النار الأرضون، أو خلق من الماء الجنة ومن النار الجحيم، أو خلق من الماء الروحانيات ومن النار الجسمانيات» ولا مشاحة في الألفاظ، واستدلوا بذلك[2] التطابق بين العالمين، فإن ابتداء العالم الصغير وإيجاده بحسب الصورة كان من الماء الذي هو النطفة، والصغير انموذج[3] الكبير من جميع الوجوه، فيجب أن يكون هو أيضاً كذلك، وهذا أقرب الوجوه، لأن إيجاد الصغير الذي هو نسخته وأنموذجه[4] حيث كان على هذا الوضع، لأن أوله كان نطفة ثم صار علقة ثم صار مضغة إلى آخر الأطوار، فيجب أن يكون هو كذلك، وقوله: «عند خلق السماء» يكون إشارة إلى تقديم الروحانيات على الجسمانيات بناء على الترتيب الأول لا الثاني، أعني من حيث النزول من

---

(١) صورة.

(٢) على ذلك بالتطابق.

(٣) هكذا في النسختين.

(٤) كذا في النسختين.

العلويات إلى السفليات لا العكس، وقوله: «قبل الأرض بألفي عام» يكون إشارة إلى أن النفس الكلية المسماة بالكعبة الحقيقية خلقها قبل الأجسام المعبر عنها[1] بالأرض بألفي عام، ويكون المراد به طورين كاملين، الأول طور العقل ثم طور النفس، لأنهما سابقان على الأرواح والأجسام بمدة مديدة، أو دورين من أدوار الكواكب السبعة، لأن لكل كوكب منها دور خاص وهو ألف سنة، ودور مشترك وهو ستة آلاف سنة، ويكون المراد بذلك أن عالم الأجسام خلق بعد خلق الأنفس بدورين كاملين من أدوار الكواكب السبعة، وقد سبق هذا البحث أيضاً، وقد تقرر هناك أن في مدة دور زحل يكون العالم خراباً وفي ابتداء دور المشتري يبتدىء بالعمارة وفي آخرها توجد الحيوانات حتى تنتهي إلى الإنسان، فيكون المراد بألفي عام دورين هذين الكوكبين على الوجه الذي قررناه أو طوري العقل والنفس، وعندي هذا أنسب وإن كان الوجهان من عندي، وتقديم عالم الأرواح على عالم الأجسام أظهر وأبين من أن يحتاج إلى بيان وبرهان، وسيما قد شهد به الخبر والقرآن، فإن النبي ﷺ قال: «خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي عام» والقرآن قد نطق بأن الأرواح قبل الأجساد في مواضع شتى، منها قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[الأعراف/ ١٧٢] الآية، وقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون/ ١٤]، وثم لا يكون إلا للتراخي، وقوله عليه السلام: «وكان زبدة بيضاء على وجه الماء» يكون إشارة إلى صفاء النفس الكلية ولطافتها بالنسبة إلى روحانيات أخر التي كانت تحتها المشار إليها بالماء، لأن كل ما هو أعلى من الروحانيات فهو ألطف وكذلك من الجسمانيات أيضاً، وقوله: «فدحيت الأرض تحته» إشارة إلى إيجاد عالم الأجسام بعدها أي بعد الأرواح، لأن عالم الأجسام وجد بعد عالم

---

(١) عنه.

الأرواح بمدة مديدة، وفيه قيل: إن عالم الأرواح وعالم الأمر هو الذي لا يحتاج إلى مادة ومدة، وعالم الخلق والأجسام هو الذي يحتاج إلى مادة ومدة، هذا تأويل الخبر، وأما تأويل الآية على سبيل البسط فيطول ويخرج المبحث من المقصود، وأما على سبيل الاختصار فاعلم:

إن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران/ ٩٦ و٩٧]، ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ إشارة إلى البيت المذكور الذي هو النفس الكلية ومظهرها الذي هو الفلك الثامن، و﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ إشارة إلى مطلق الإنسان من حيث العموم وتكليف الكل بالتوجه إليه وإلى أشرف الناس منهم الذين هم الأنبياء والرسل والأولياء والأوصياء والعارفين من أمة كل نبي على الخصوص، و﴿بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ إشارة إلى الفلك الثامن الذي هو مظهرها المعبر عنه بالكرسي، و﴿مُبَارَكًا﴾ إلى البركات التي هي حواليها من المعارف والحقائق النازلة منها إلى ما دونها من المخلوقات والموجودات، ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ إشارة إلى فيضانه وتجلياته لجميع العالمين، فإن فيضان[1] جميع العالمين من جنابه القدسي وحضرته العليا، والمراد بالفيضان أما الوحي وإما الكشف وإما الإلهام، فإن حصول[2] العلوم والفيض من الله بغير هذه الوجوه الثلاث مستحيل، و﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ إشارة إلى مشاهدة آيات الملكوت والجبروت وبواسطتها، فإنها محل تفصيل المعلومات والموجودات، كما أن العقل الأول محل تجميل المعلومات والموجودات، و﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ إشارة إلى وصول السالك بواسطتها إلى مقام التوحيد الجمعي الحقيقي الإبراهيمي الذي

---

(١) فيضانها.

(٢) ساقطة.

لم يكن منشؤه في عالم الشهادة إلا منه. ولهذا أمر نبيناﷺ بمتابعته في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران/ ٦٨]، ولقوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[البقرة/ ١٢٥]، ولولا خصوصية إبراهيمعليه السلام بهذا المقام ما قال تعالى في حقه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[الأنعام/ ٧٥]، وقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ إشارة إلى أن من دخل البيت المذكور على الوجه المذكور أمن من جميع الشبهات والشكوك، وعلى الخصوص من الشركين المذكورين أعني الجلي والخفي، وعلى الجملة عن حجب رؤية الغير مطلقاً، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾، أي ولله على الناس المستعدين لهذا المقام حج هذا البيت، أي قصد هذا البيت على الوجه المذكور، أي من حيث المعرفة والمشاهدة والكشف والشهود، وقوله: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ دليل على تخصيصه بطائفة متمكنين منه مستطيعين لسبيله بقوتي العلم والعمل، فإن زاد هذا الحج وراحلته المسمى بالاستطاعة العلم والعمل، أي العمل النافع والعمل الصالح، والعلم النافع يحصل بوجهين، إما من الله تعالى بغير واسطة أحد من البشر وهو المعبر عنه بالوحي والإلهام والكشف، وإما منه بواسطة بعض عبيده من العارفين كالأنبياء والأولياء والرسل، وإليهما أشار بقوله في الأول ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق/ ٣ ـ ٥]، وفي الثاني بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[آل عمران/ ١٨٧]، والعمل الصالح أيضاً يكون على قسمين، قسم يختص بأهل الشريعة والطريقة وهو الذي لا يدخل فيه الرياء والسمعة والشك والشبهة وأمثال ذلك، بل يكون خالصاً مخلصاً لله تعالى لقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام/ ١٦٢]، ولقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[الزمر/ ٣]، وقسم يختص بأهل الحقيقة وأهل الوصول، وهو الذي لا

يشاهد صاحبه في الوجود غير الحق تعالى جل ذكره، وقد عرفت تحقيقه مراراً وإليه أشار بقوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف/١١٠]، وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي بهذا الحج ولم يفعل ولا يقر به فهو من المشركين المحجوبين ليس الخطاب إليه، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عنه وعن أمثاله من العالمين إنساناً كان أو جناً، وإن الله لغني عن العالمين وعن طاعتهم وعبادتهم من حيث هو هو، فإن الطاعة والعبادة فائدتهما عائدة إلى المكلف لا غير، وإلا[1] الحق تعالى فإنه غني عن العالمين وطاعتهم وعبادتهم، لأنه لا يجوز أن يستكمل هو بغيره، والغرض العائد إليه نوع استكمال فلا يجوز فحينئذ لا يكون عائداً إليه، والعلة في ذلك أنه لا يقع فعل الحكيم الكامل[2] عبثاً، فإن كل فعل يصدر من فاعل لا لغرض يكون عبثاً والعبث على الله تعالى محال، لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[الأنبياء/١٦]، ولقوله ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[المؤمنون/ ١١٥]، فيجب أن يكون لغرض، وحوالة الغرض إليه كما ذكرنا محال، فيجب أن يكون إلى العبيد وهو المطلوب، ولهذا قال في مواضع كثيرة من القرآن: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾[فصلت/ ٤٦]، وقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[الأنعام/ ١٠٤]، وهاهنا أبحاث كثيرة نختصر على ذلك، وإذا تقرر هذا وعرفت هذه المقدمات والضوابط والقواعد التي فيها بحكم الآية والخبر فلنشرع في الترتيب والتفصيل وكيفية ترتيب هذا الحج والوصول إلى المقصد، وهو هذا:

اعلم أنه من أراد أن يتوجه إلى هذا البيت ويقصد زيارته أعني الوصول

---

(١) في النسخة الثانية ولا الحق.

(٢) العامل.

إليه يجب عليه أولاً أن يأخذ الإحرام من مشاهدة عالم المحسوسات مطلقاً، بمعنى أن يحرم على نفسه مشاهدة عالم الجسمانيات وما يتعلق به من اللذات، ثم يتوجه إلى عالم الروحانيات التي هي بمثابة الحرم ومكة وبكة وغير ذلك من الاعتبارات حتى يصل إليهم بالفعل، ويتصف بصفاتهم ويتخلق بأخلاقهم ويحصل له معارف ذواتهم وخواصهم ولوازمها، ثم يتوجه إلى الكعبة الحقيقية التي هي النفس الكلية ومعارفها وحقائقها، ويطوف بها سبعة أشواط ليحصل له بكل شوط معرفة كل فلك من الأفلاك السبعة أو العلوم السبعة القرآنية[1] المشار إليها بقوله ﷺ: «إن للقرآن ظهراً وبطناً ولبطنه بطناً إلى سبعة ابطن» ثم يتوجه إلى مقام إبراهيم الذي هو مقام الوحدة والحضرة الواحدية المعبرة عنها بالعقل الأول والروح الأعظم ويصلي فيه ركعتي الشكر بوصوله إلى تلك الحضرة، والركعتان عبارتان عن فنائه أولاً عن عالم الظاهر وثانياً عن عالم الباطن وما اشتمل عليهما من المخلوقات والموجودات حتى نفسه، ثم يتوجه إلى السعي بين الصفا والمروة، أي بين عالمي الظاهر والباطن ليطلع عليهما بسعيه واجتهاده مرة أخرى، ويقطع النظر عن الكثرة بمطالعة ما في ضمنها من الوجود الواحد الحق، ويستقر في المقام الجمعي المقصود بالذات، كما قال ﷺ: «الدنيا حرام على أهل الآخرة والآخرة حرام على أهل الدنيا وهما حرامان على أهل الله» ويعرف هذا أيضاً من تقسيم أهل الشمال وأهل اليمين والمقربين المتقدم ذكرهم، وإليه أشار العارف

---

(١) هاهنا حاشية للمؤلف قدس سره في النسخة الأولى وليست في الثانية ولهذا نذكرها وهي هذه أي في العلوم السبعة القرآنية: وهي علم التوحيد والتجريد والفناء والبقاء وعلم الذات والصفات والأفعال، وعلم النبوة والرسالة والولاية والمروة وعلم الوحي والإلهام والكشف، وعلم المبدإ والمعاد والحشر والنشر وعلم الأخلاق والسياسة والتهذيب والتأديب، وعلم الآفاق والأنفس والتطبيق بينهما، فإنه أعظم العلوم وأشرفها، وقيل المراد بالعلوية السبعة غير ما ذكر آنفاً، وإلا صح ما ذكرناه، لأنه مناسب لما نحن بصدده في هذا الكتاب.

بقوله: وعليكم بهما فإن جامعهما موحد حقيقي جامع للجميع وله المرتبة العليا والغاية القصوى، ثم يقصر بمروة عالم[1] الظاهر التي هي نهاية الكثرة بإسقاط ما بقي عنده من الأنانية ورؤية الغير، وهذا تمام أفعال العمرة المتمتع بها إلى الحج، ثم يتوجه إلى الكعبة مرة أخرى إلى مشاهدة النفس الكلية والاطلاع على حقائقها ليأخذ إحرام الحج من عندها تحت ميزاب العقل على الترتيب المعلوم، ثم يتوجه إلى مقام عرفات النفس والعقل عند الجهل الحقيقي الذي هو العرش الصوري مظهر العقل الأول ليتحد بهما بقوة المعرفة الحاصلة له بأن الكل واحد، ولهذا سمي هذا المقام عرفات، لأنه مقام المعرفة الحقيقية، وليس وراء هذه الحضرة حضرة أخرى إلا حضرة الذات الممتنع الوصول إليها لأحد، والمراد بالوصول الاتصاف والاتصاف بالحضرة الأحدية الذاتية مستحيل، وفيه قيل: ليس وراء عبادان قرية، وفي هذا المقام يحصل الوصول إلى التوحيد الجمعي الحقيقي المعبر عنه بالتوحيد المحمدي مرة أخرى، والفائدة والفرق بينهما أن في التوحيد الأول يرتفع الخلق عن نظره بالكلية لقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص/٨٨]، وفي التوحيد الثاني يرتفع الصفات كلها، لقول العارف الرباني صلوات الله عليه: أول الدين معرفته وكمال معرفته التصديق به وكمال التصديق به توحيده وكمال توحيده الاخلاص له وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه بشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، وفي هذا المقام يصير الإنسان إنساناً والكامل كاملاً والعارف عارفاً، ولهذا يجب الرجوع إلى التكميل وعالم الكثرة لقوله تعالى: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾[التوبة/ ١٢٢]، ولقول الجنيد رضي الله عنه لما سئل عن النهايات: الرجوع إلى البدايات، وهذا هو سر رجوع الحاج من عرفات إلى منى وفيه ما فيه من

(١) العالم.

الأسرار أيضاً، ثم يرجع إلى منى عالم الكثرة الذي هو عالم المشاعر الإلهية والمناسك الربانية من الأفلاك والأجرام والعناصر والمواليد، وينظر إليهم بنظر الوحدة الحقيقية دون الأول، ويشاهدهم على أنهم مظاهر إلهية ومشاعر ربانية، والمظهر عين الظاهر والظاهر نفس المظهر، فيشاهدهم عيناً من وجه، غيراً من وجه، خلقاً من وجه، حقاً من وجه كما سبق ذكره من كلام العارف، ثم يشتغل بأداء المناسك فيه أي في منى عالم الظاهر من الرمي والذبح والحلق، ويرمي أولاً في جمرة العقبة التي هي الدنيا ومتاعها سبع طبقات، عالمها العنصرية والطبيعية من المواليد رمياً لا يمكن الرجوع إليها، وهذا رمي عرفان لا رمي عيان، أعني رمي نظر لا رمي تصرف، فإنه إذا رجع من العوالم المذكورة يجب له التصرف في الكل تصرف تمليك وتحقيق، ثم يذبح نفسه مرة أخرى ذبحاً لا تكاد تعيش أبداً، أي بالحياة الدنيوية المجازية، لأنه صار حياً بالحياة الحقيقية المشار إليها في قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[آل عمران/ ١٦٩]، وفي قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[الأنعام/ ١٢٢]، ثم يحلق رأسه أي رأس النفس عن محبة الدنيا ومتاعها حلقاً لا يكاد يرجع إليها أبداً رجوع نفساني لا غير، فإن حذف الدنيا نفسك يحكم بالتصرف فيه بقدر الحاجة للناقص وبالمجموع للكامل، والمراد اسقاطها عن درجة الاعتبار بالكلية، لأن الدنيا وما فيها ليس عند التحقيق إلا عدم صرف وخيال محض قائمة بأوهام كاذبة لقوله عليه السلام: «الدنيا قائمة بالوهم» ولقول الإمام عليه السلام: «محو الموهوم مع صحو المعلوم» ولهذا قال: «قد طلقتك ثلاثة لا رجعة فيها» وقال عيسى عليه السلام: يا طالب الدنيا ليبر بها تركك لها أبر وأبر وأبر[1]، ثم يرجع من هذا المقام إلى مقام البقاء الذي هو

---

(١) لتبر.

البقاء بعد الفناء ويطوف بالكعبة المذكورة طواف آخر، أي يطلع عليها مرة أخرى بسبع توجهات بمقتضى نشأتها التي هي سبعة أطوار لقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[نوح/ ١٤]، ليحصل بذلك التصرف في سبعة أقاليم الأرض وسبعة أقاليم الأفلاك المعبرة عنهما بالملكوت والجبروت، ثم يصلي في مقام إبراهيم الوحدة الحقيقية ركعتي الصلاة العيدين الأضحى والفطر، لأن اتصافه بالفناء عن الكل عيد وبقاؤه بعد الفناء عيد آخر، ويجب صلاة العيد سيما هذا العيد في مقام المخصوص[١] بها وهو مقام الوحدة الحقيقية، فافهم جيداً فإنه دقيق، ثم يرجع إلى منى عالم الكثرة في المراتب الثلاث التي هي المعدن والنبات والحيوان، ويكون فيه ثلاثة أيام من الأيام الإلهية لتكميل الغير، فإنه نهاية[٢] مقام المرام وغاية مقاصد الكرام، وفيه ورد: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة/ ٣]، والله أعلم وأحكم وهو يقول الحق وهو يهدي السبيل، رزقنا الله الوصول إلى مثل هذا الحج بحق الحق، هذا بيان حج أهل الحقيقة بعد بيان حج أهل الشريعة والطريقة، وإذا فرغنا من هذا فلنشرع في الجهاد وبيانه في المراتب الثلاث كما شرطناه أولاً في الديباجة من كتابنا هذا، والحمد لله وحده وهو المستعان وعليه التكلان.

أما جهاد أهل الشريعة

فالجهاد عندهم فرض من فرائض الإسلام وهو فرض على الكفاية إذا قام به البعض[٣] سقط عن الباقين، وشرائط وجوبه سبعة، الذكورة والبلوغ وكمال العقل والصحة والحرية وأن لا يكون شيخاً ليس به قيام، ويكون

---

(١) الخصوص.

(٢) مقام نهاية.

(٣) بعض.

هناك إمام عادل أو من نصبه الإمام للجهاد، فإذا اختل واحد من هذه الشروط سقط فرضه، وأما الأصناف التي يجب جهادهم من الكفار فهم على ضربين، ضرب يقاتلون إلى أن يسلموا أو يقتلوا أو يقبلوا الجزية وهم ثلاث فرق، اليهود والنصارى والمجوس، والآخر لا يقبل منهم الجزية ويقاتلون حتى يسلموا أو يقتلوا، وهم كل من عدا الثلاث فوق المذكورين، وإذا قبلوا الجزية فليس لها حد محدود على الأقوى، وهو مختار المحققين من فقهاء الإمامية، بل يأخذها على حسب ما يراه الإمام[1]، إما يضعها على رؤوسهم أو أرضيهم ولا يجمع بينهما ويزيد وينقص بحسب ما يراه، فإن وضعها على أرضيهم فأسلموا سقطت عنهم الجزية، ولا تؤخذ الجزية من أربعة أصناف، الصبيان والمجانين والبله والنساء، ولا يبتدؤون بالقتال إلا بعد أن يُدعوا إلى الإسلام من التوحيد والعدل والقيام بأركان الإسلام، فإذا أبوا ذلك كله أو شيئاً منه حل قتالهم، ويكون الداعي الإمام أو من يأمره الإمام، والله أعلم وأحكم.

وأما جهاد أهل الطريقة

فالجهاد عندهم عبارة عن جهاد النفس لقول النبي ﷺ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» لأنه أراد بالجهاد الأصغر جهاد الكفار وبالجهاد الأكبر جهاد النفس، كما ورد أنه سئل عن ذلك فقال: هو جهاد النفس الأمارة، وقد ورد أيضاً: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك» والعقل الصحيح يحكم بأن جهاد أعدى العدو أولى من جهاد العدو، وخصوصاً إذا كان بين جنبيه، وجهاد النفس مخالفتها في كل ما يخالف العقل والشرع لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات/ ٤٠، ٤١]، وذلك لأن النفس الأمارة دائماً تدعو إلى الشر

---

(١) ساقطة.

بمقتضى طبعها لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[يوسف/ ٥٣]، فمخالفتها يكون عين الخير ومحض العدل، كما ورد في الحديث النبوي بالنسبة إلى النساء التي هي في حكم النفس: «شاوروهن وخالفوهن» وقد قرر أهل الله في تطبيقهم أن النفس في الإنسان المعبر عنه بالأنفس بمثابة النساء في الآفاق، فكما يجب مخالفة النساء في أكثر الأحوال فكذلك يجب مخالفة النفس في أكثر الأحوال، ولولا كذلك لم يكن مخالفتها موجب الدخول في الجنة من غير تأخير، والذي ورد أيضاً أن النار حفت بالشهوات وأن الجنة حفت بالمكاره هذا معناه، لأن الشهوات مطلقاً من مقتضى النفس، والنار لازمة لها، والمكاره والمخالفة من مقتضى العقل الصحيح والشرع الإلهي، لا بد وأن تكون ثمرتها الجنة، وإلى هذا المعنى أشار الحق تعالى في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت/ ٦٩]، لأن تقييده بفينا يدل على أن مجاهدة النفس لو لم تكن في الله وفي سبيله لم تنفع، ولا تكون موجب الدخول في الجنة، ولا سبب الهداية إلى الله تعالى وطريقه المستقيم، واتفاق[١] المشايخ على منع السالك عن السلوك بنفسه من غير شيخ كامل، لأن المشايخ لهم بواسطة الاطلاع على حقائق العرفان والعلم بالمقامات وكيفية قطعها والانتقال من كل واحد منها ادنى إلى ما هو أعلى منه قدرة على تعريف السالك وإيقافه في المواقف وتوصيله إلى المطالب بدون تعب كثير وكد متعب، ولا ريب في أن لهم في ذلك مدخل قوي، فإن الشيخ لما سلك الطريق وعرفه وتشعبت له كثرة فنونه صار له خبرة في أن أي[٢] الطريق أقرب وأيها أسهل (وأيها اسرع)[٣]، فيسلك

---

(١) كذا في النسختين والظاهر واتفق.

(٢) ساقطة.

(٣) ساقطة.

بالطالب من ذلك الطريق[1] في أقرب وقت، بخلاف من لم يأخذ عن الشيخ ويريد أن يسلك ويصل بنفسه، فإنه يحتاج إلى معاناة وسلوك طرق متعددة حتى يعرف أيها الطريق الموصلة، فربما سلك طريقاً واتضح له غيره فتركه فكاد أن لا يصل، وإن وصل فبعد كد ومعاناة طويلة متعبة وطول زمان أو إمام أو نبي كان في هذا المقام وذلك لأن الشخص إذا شرع في السلوك بنفسه لم يخلص هو من مطاوعة النفس وملائمتها، أعني طلب ما يلائمها وما لا يلائمها، وسلوك سبيل الله مبني على مخالفتها دائماً فكيف يمكن إصابة ذلك الشخص الذي يسلك بنفسه سلوك سبيل الله وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[السجدة/ ١٢]، لأن المطيع للنفس دائماً حركته منكوسة، وصاحب الحركة المنكوسة بالنسبة إلى صاحب الحركة المستقيمة كشخصين تحرك أحدهما إلى الأعلى والآخر إلى الأسفل، فلا يزيد حركة كل واحد منهما إلا البعد بينهما. والحركة الأسفل هي المنكوسة كحركة النبات المتقدم ذكرها، وهذا أمر حسبي ضروري لا يحتاج إلى دليل وبرهان، عصمنا الله تعالى بفضله من التنكيس إلى أسفل عالم الطبيعة المعبر عنه بالجحيم المسمى بأسفل سافلين في الكتاب الكريم، وفي مثل هذه النفس قيل:

هي النفس إن تهمل تلازم خساسة
وأن تنبعث[2] نحو الفضائل تلهج

وقد سبق كيفية عروج النفس من المرتبة الأمارية إلى اللوامية ومنها إلى الملهمة والمطمئنة، ومن المطمئنة إلى الحضرة الربانية بحكم الرجوع لقوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى

---

(١) الطرق.
(٢) تتبعث.

عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾[الفجر/٢٧ ـ ٣٠]، والدخول عبارة عن الدخول تحت حكمهم وأمرهم وإرشادهم وهدايتهم من غير شك وشبهة أو مخالفة أو مناكرة المعبر عنه بالنبي والإمام والشيخ وغير ذلك، وفي كيفية الوصول أسرار أخر ليس هذا موضعها ولكن تأتي إن شاء الله تعالى في آخر هذا الكتاب في وصيته المتعلقة بكيفية السلوك والتخلق بأخلاق الأفاضل الملوك من أهل السلوك، وإذا عرفت هذا عرفت أن جهاد أهل الطريقة هو جهاد النفس لا غير، وأنهم دائماً في الجهاد ولا يغفلون عنه طرفة عين، وكما أنه عند أهل الشريعة واجب على الكفاية، عندهم واجب على العين بل أول الواجبات، لأن الشروع في السلوك بغير هذا الجهاد مستحيل ممتنع، فيجب حينئذ على كل من يريد سلوك هذا الطريق وهذا هو المطلوب، وحيث عرفت جهاد أهل الطريقة فلنشرع في جهاد أهل الحقيقة بقدر هذا المقام وهو هذا:

وأما جهاد أهل الحقيقة

فالجهاد عندهم بعد القيام بالجهاد المذكور عبارة عن محاربتهم ومعارضتهم مع العقل النظري في دفع شبهاته وشكوكه، فإن العقل النظري دائماً في التقييد والتعيين، والمطلوب والمقصود دائماً لا يوجد إلا في الإطلاق والتجرد الذي هو مقتضى العشق والذوق، وأين ذاك من هذا، وأين العقل من العشق، وورد عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى خلق العقل لأداء حقوق العبودية لا لإدراك حق الربوبية» فيجب حينئذ استعمال العقل في أداء حقوق العبودية لا في إدراك حق الربوبية، فإنه ليس من مقتضياته، ومن هذا قال العارف أيضاً: وهذا لا يعرفه عقل بطريق نظر فكري، بل هذا الفن من الإدراك لا يكون إلا عن كشف الهي، منه يعرف ما أصل صور العالم القابلة للأرواح، وفيه قال فخر الدين الرازي في أبيات له:

نـــهـــايـــة إدراك الـــعـــقـــول عـــقـــال

وأكـــثـــر ســـعـــي الـــعـــالـــمـــيـــن ضـــلال

ولـــم نـــســـتـــفـــد مـــن بـــحـــثـــنـــا طـــول عـــمـــرنـــا

ســـوى أن جـــمـــيـــعـــنـــا فـــيـــه قـــيـــل وقـــال

وعند التحقيق ليس نسبة العقل إلى العشق ومعارفه وكشوفه وشهوده إلا نسبة الوهم إلى العقل في مداركه ومعارفه، فإن الوهم كما لا يصل إلى مدارك العقول بوجه من الوجوه فكذلك العقل، فإنه أيضاً لا يصل إلى مدارك العشق ومعارفه بوجه من الوجوه، بل يقوم في أكثر المواضع بإنكاره ومنعه كما يقوم الوهم في أكثر المواضع بإنكار العقل ومنعه، ومن هذا وقعت المخالفة بين العقليات والبرهانيات والخطابيات والذوقيات، فإن أكثر أحكام الشرع الصادرة من جناب الذوق والعشق المعبر عنه بالنبي والرسول غير مطابقة لصاحب العقل وأحكامه العقلية كما سبق ذكره مفصلاً عند الضوابط الكلية والقوانين الإلهية في أول الكتاب، وشبهات الفلاسفة والبراهمة في متابعتهم في المعارف الإلهية والمدارك العقلية ما نشأت إلا من هذا المقام، فإن الفلاسفة أنكروا المعاد الجسماني والعلم بالجزئيات الزمانية، وأثبتوا لله تعالى صفاتاً ليست في الشرع واردة ولا في العقل جائزة، كالإيجاب والبساطة وغير ذلك، وذهبوا إلى أن العالم قديم والحق تعالى علة فيه وهو معلوله وأمثال ذلك، وكل ذلك من أحكام عقولهم الركيكة العاجزة عن أسرار الشرع ودقائقه، وكذلك البراهمة فإنهم أنكروا المعاد أيضاً وخالفوا الأنبياء ومعجزاتهم وخالفوا النص والشرع في الجميع وقالوا بالفعل وبالذي يصدر منه، وتمسكهم في إنكار الأنبياء ومتابعة عقولهم الركيكة أن الأنبياء إن جاؤوا بما يوافق العقل فلا يحتاج إليهم، وإن جاؤوا بما يخالف العقل فلا يقبل قولهم، فحينئذ عقولنا تكفينا في مصالحنا ومعايشنا، وكل ذلك أيضاً من ذلك النظر الفاسد، لأن العقل لو كان كافياً في أمورنا المعادية والمبدائية لما احتجنا

إلى الكتب والرسل، وكان انزال الكتب وبعثة الرسل عبثاً، وقد سبق أنه لا يفعل العبث، فعرفنا أن العقل في نظره محتاج إلى نظر آخر المعبر عند الحكيم بالمنطق وعند الموحدين بالنور الإلهي والميزان الرباني.

فبناءً على هذا كما يجب الجهاد مع القائلين بإله آخر غير الله بالسيف الصوري، فكذلك يجب الجهاد مع القائلين بوجود غير وجود الله تعالى بالسيف المعنوي، فإن الأول ناشيء[1] من متابعة الهوى والنفس، والثاني من متابعة العقل، والحكم الصادر منه بمجرد الفكر، والشرك الجلي عبارة عن الأول والشرك الخفي عن الثاني ودفعهما واجب على الكل عند التحقيق، ولهذا ما خلا زمان من هذين الجهادين في حالة من الحالات، لأن المسلمين كما أنهم دائماً في المحاربة مع الكفار في أقطار العالم بالسيف الصوري، فكذلك الموحدين فإنهم أيضاً دائماً في المحاربة مع الفلاسفة والبراهمة في أقطار العالم بالسيف المعنوي، فجهاد أهل الحقيقة دائماً ليس إلا جهاد أرباب العقول برفع شبهاتهم ودفع شكوكهم، لكي يرجعوا من متابعة العقل النظري إلى متابعة الذوق الحقيقي والعشق الإلهي المعبر عنهما بالوحي والإلهام، كما أن جهاد أهل الطريقة دائماً ليس إلا جهاد النفس برفع شبهاتها ودفع شهواتها، فالحاصل من الجهاد الأول مع الطائفة المعلومة الاستقامة على طريق التوحيد الجمعي والوصول إلى عالم الوحدة بعد الخلاص من الشرك المعنوي المسمى بالخفي، ومن الثاني مع الطائفة المعلومة التوجه إلى الله تعالى بالعقل الصحيح والمتابعة لأمره ظاهراً وباطناً بعد الخلاص من الشرك الجلّي، وهذا هو الجهاد المقصود بالذات من الوضع الإلهي عند التحقيق، لأن الجهاد الصوري أيضاً غرضه الجهاد المعنوي، وفي مثل هؤلاء[2] المجاهدين القائمين بحجة الله على عبادة

---

(١) وردت في المطبوعة (نشاء). (العاملي).

(٢) هذا.

المشركين ورد: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء/ ٩٥ ـ ٩٦]، لأن المراد بالقاعدين القاعدين والتاركين لهذين الجهادين بالنفس الذي هو العقل، والمال الذي هو البدن وقواه، والمراد بالقائمين القائمين بهما والفاعلين لهما، وإليهم أشار أيضاً وقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء/ ١١٤]، جعلنا الله منهم بفضله وكرمه.

هذا آخر بحث جهاد أهل الحقيقة وأهل الطريقة والشريعة، وآخر بحث الأصول والفروع في المراتب الثلاث، وآخر بحث الشريعة والطريقة والحقيقة.

وأما ما وعدنا به من ذكر باقي أسرار السلوك الموصلة إلى الحق تعالى وإلى حضراته القدسية والعوالم النورية فهو هذا: تعويدك نفسك للخيرات والاتصاف بالكمالات حتى تصير ملكة لك أول مقاماتك وما يعرض لك من الكمال، ثم ينطوي عنك بسرعة حال وما يرد على النفس خاطر، فإن كان عن الوهم فخاطر شيطاني، وما هو عن دواعي الشهوة والغضب نفساني، وما هو في إصلاح القوة العملية ملكي، لأنه يطلب العدالة، والكلمة الزكية خاطر الحق، وتدارك الفائت والندم على فواته توبة وحركة النفس للطلب ارادة، فالطالب للطهارة الحقيقية مريد. وابتهاج النفس بملائمها[1] رجاء وتألمها بمكروه خوف، وامساكها عن الاشتغال بملاذ البدن زهد، وحبسها عن الاضطراب صبر وملاحظتها لنعم الله شكر، وملاحظتها للقضاء والقدر بلا طبيعة توكل، وعدم تألمه بها رضاء، وارتسام الحقائق في مرآتها معرفة،

---

(١) بما يلائمها (العاملي).

وابتهاجها بما هي فيه[1] محبة، والخلسات اللذيذة المنطوية بسرعة نفحات، وإن بقيت زماناً فسكينة، وتصرف النفس في قواها البدنية تفرقة، وحضور الغيبة بخلسة الكلمة عن حواسها غيبة، والسوانح القدسية المبطلة نظام الحركات سكر، وملاحظة مراتب المبادىء هيبة، وانطماس الكلمة بالنسبة إلى المبادىء أنس، وإفرادها عن عالم الأجرام بحيث ينطوي ملاحظة المبادىء والترتيب في عظمة القيومية توحيد، وما يتعلق بالأمور الجزئية من السوانح الغيبية مكاشفة، والهيئات الفلكية الموجبة لحصول هيئة في النفس الناطقة طرأت بطريانها وزالت بزوالها وقت، ولهذا رب هيئة أوجبت حالاً من غير تعب كثير وما عادت لا بد من التعرض لها، ولهذا قال عليه السلام : «إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها» وغيبوبة الكلمة في ملاحظة لذاتها بمحبوبها لشدة استغراقها معه حتى سقط شعورها فناء، وهذا المقام أعني مقام الفناء هو آخر المراتب وأعلى المقامات السلوكية، هذا ما وعدنا به من ذكر مقامات السالكين على سبيل الاختصار، وإلا فالطرق كما ورد في الحديث النبوي إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، وتتعدد بحسب القرب والبعد.

وأما ذكر الوصية

التي وعدنا بها أيضاً الذي يتعلق بالسالكين إلى رب العالمين، وما يجب أن يتصفون به حتى يكون وسيلة لهم إلى نيل مقصودهم ووصولهم إلى حبيبهم واتصالهم به وبقائهم به بعد فنائهم، فهو أن نقول: إذا ادمت فكرك في الملكوت مواظباً على الذكر الصادر عن خضوع، وفكرة لطيفة مستعدة عن تقليل الأغذية وإماتة الشهوات وإسهار الليالي بالذل والاستكانة عند الرب الجليل بالإخلاص وحسن الطوية لا تلبث إلا قليلا وتأتيك البوارق اللامعة والأنوار المشرقة والخلسات اللذيذة، وكمال نفسك إنما هو

---

(١) بما فيه.

بتشبهها بالمبادىء العالية بحسب الطاقة البشرية، فتجرد بحسب القدرة، وتلطف بتلطيف سرك بالأفكار الصحيحة والرياضات المهذبة بتهذيب اخلاقك، وطهارة ظاهرك وباطنك من جميع الكدورات وليكن لنفسك استعلاء على البدن لا العكس، فإن كمالها بعلاقتها معه، وإنما يحصل ذلك بالعدالة المطلقة المركبة تركيباً اجتماعياً من الحكمة والشجاعة والعفة، وكل واحدة منها وسط بين طرفي إفراط وتفريط، فهي فضيلة محفوفة برذيلتين، فالأولى وسط بين البلادة والجريرة، والثانية بين الجبن والتهور، والثالثة بين الشره والجمود[1] وكل الفضائل والرذائل داخلة تحتها، وهذه أُصولها، ففروع الحكمة الفطنة والبيان وإصابة الرأي والحزم والصدق والوفاء والرحمة والحياء والهمة وحسن العهد والتواضع، وفروع العفة القناعة والسخاء والصبر والحلم وسعة الصدر وكتمان السر والأمانة، وفروع الشجاعة الإقدام والقهر والتثبت وقوة العزم والشهامة والنجدة والغيرة، فاستكمل تكمل.

واعلم أعانك الله ووفقك أن هذه الاصطلاحات جميعها وإن اختلفت في عباراتها فإن معانيها متقاربة، ويجمعها[2] أنها سوانح تعرض للكلمة إما من البدن أو من العالم الأعلى الروحاني، ومحو الروحانيات للجرمانيات، وأما المعرفة، فقد تتقدم المحبة عليها[3]. ومتى كملت المعرفة أوجبت[4] المحبة، وإذا تمت المحبة استدعت المعرفة، ومتى كنت ذا فطنة وحدس قوي تحدست أحوالك في تنزلاتك من مكاشفات المفارقات، ونلت مقصودك من دون تعب كثير ما لا يناله غيرك مع شدة التعب، وللمشايخ في

(١) كذا في النسختين والظاهر الخمود.

(٢) كذا في النسختين ويمكن أن يكون يجمعها أي بجمعها.

(٣) فقد تتقدم على المحبة وقد تتقدم المحبة.

(٤) أوجب.

ذلك مدخل عظيم[1]، والأهلية للخدمة إنما تحصل بالمعارف والمكاشفات.

واعلم أن الاتحاد والاتصال لا يتصور على الظواهر فيما ليس بجسم، بل هو راجع إلى استغراق النفس لأجل العلوم، بل راجع إلى انتقاش النفس بأمر غيبي يتأدى إلى الحس المشترك فهو معنى الاتصال والاتحاد، والاتصال بالعالم القدسي والحضور في حضراته هو رفع الحجب فهو[2] اتحاد عقلي، وتحقق أن الشمس الواحدة لا تتعدد بتعدد مظاهرها، بل والواحد الحقيقي لا يتكثر بانطباعه في مرايا متعددة، والمدينة واحدة والطرق إليها كثيرة مختلفة في القرب والبعد والحزونة والسهولة، والحركة متعددة بتعدد المتحركين، والمقصود عزيز المنال، والوصول إليه عسير، وأكثر الطرق خطير، فاجهد في أخذ الأهبة[3] بكثرة الزاد والرواحل وإعداد الآلات، وعليك بعد ذلك كله بتقوى الله والإخلاص في النية بعد حفظ شرائعه بأوامره ونواهيه، فإنها سوطه الذي أدب به عباده، واضبط نفسك عن الاشتغال بالزائد عن مهم بذلك الضروري، واستكمل بالعلم فيتأتى لك كثير من الفضائل، وصم عن الشهوات، وصَلِّ والليل مظلم، وعليك بالأوراد والتسابيح وقطع الخواطر الردية، وأكثر من التطهير بطهارة روح القدس، ونور قلبك باستحضار الأنفس المنورة القدسية، وقابل معهم نفسك لتجذب بالمماثلة وينعكس عليها بعض شعاعاتهم، فتخلق بأخلاقهم، والتزم بالالتجاء إلى نور الأنوار، وقف على باب الملكوت بخضوع واستكانة، وتعرض لنفحاته، وأكثر من الدعاء والابتهال إلى حضرة ذي الوجود والجود والافضال، واسأل منه فإنه معطي الوهاب، وتلاوة كتابه

---

(١) في النسخة الثانية مدخلاً عظيماً.

(٢) هو.

(٣) الأهبة بمعنى العدة.

العزيز الحكيم بالتدبر[١] لمعانيه من أعظم الذخائر وأجدى المنافع في حصول مطلوبك، وقل كما قاله بعض أهل[٢] الطريقة بل صاحب الطريقة بالحقيقة في بعض حالاته: يا قيوم، الظلام أحاط بي، وحيات الشهوات لسعتني، وتماسيح الهوى قصدتني، وعقارب الدنيا لدغتني، فصرت بين خصومي غريباً، فخلصني يا رب، اناديك يا رب غريق في بحر الطبيعة، هالك في نهمة الشهوات، أنا مطروح على باب كبريائك، اتحسن من لطفك رد الفقير؟ عبدك الملتجىء إلى جناب جبروتك، خلصه بجذبة من جذبات نورك، سبحان رب الجبروت، سبوح قدوس رب الملائكة والروح، إلهي أنا العبد الآبق حل بي مرض المعاصي، ساقط على بابك على ظماء، فما بال مريضك لا تعالجه وظمآن لطفك لا تسقيه شربة من زلال عفوك، يا من قذف بنوره في هويات السابقين، وتجلى بجلاله على أرواح السائرين، وانطمس في عظمة ألباب الناظرين، اجعلني من المشتاقين إليك، العالمين بلطائفك يا رب العجائب وصاحب العظائم، ومبدع الماهيات وموجد الإنيات ومنزل البركات ومظهر الخيرات، اجعلنا من المخلصين الشاكرين الذاكرين الذين رضوا بقضائك وصبروا على بلائك، إنك الحي القيوم ذو الجود العظيم والأيد المتين والغفور الرحيم يا رب الأرباب يا ممتد الملكوت بنور جلاله، يا من إذا تجلى لشيء خضع له، يا خفي اللطف، يا من رش نوره على ذوات مظلمة فنورها، وقذف شعلة شوقه على الأفلاك فدورها وسيرها، خضعت لعظمتك الرقاب ولانت لهيبتك الصلاب، وتلذذت بذكرك الأرواح الراقصات، وركدت لبارق عزك الحواس الحائرات، يا من برق غرته في سرائر المنيبين، وزمجر[٣] رعد هيبته في

---

(١) العزيز المحكم بالتدبير.

(٢) أهلة.

(٣) أي أكثر الصياح ـ صوّت.

قلوب الخاشعين، يا صاحب الكلمة العليا ورب السكينة الكبرى، هب لنا من لدنك رحمة أفض على نفوسنا لوامع بركاتك، وعلى أرواحنا سواطع خيراتك، اجعلنا من السعداء العارفين لجلالك، المشاهدين لجمالك، الراهبين[١] منك، إنك على كل شيء قدير.

ولنختم الوصية بوارد ورد على بعض العارفين المكاشفين المسطور[٢] في لوح الذكر من العقول العالمات والنفوس القاهرات، المنتقشة بجميع الكائنات، وهو أن السالكين السائرين إلى نور الأنوار تعالى وتقدس يقرعون أبواب النور ويتوسلون بالعلوم الحقيقية والأخلاق الرضية بالإخلاص والصبر فيحبون بتحائف الملكوت بالإشراقات النورية عليهم، ويفاض عليهم صباً من ماء ينبوع البهاء والجلال ومنبع الكمال والجمال، فيطهرون بالطهارات النورية، فإن ذا الطول يحب طهر الوافدين إليه بالعلوم الحقيقية والأخلاق الرضية، فإن إخوان البصيرة اجتمعوا واتفقوا على التنزيه المعنوي واللساني، ملازمين بخضوع وقنوت، يذكرون ناظم طبقات عالم العناصر وعالم الأفلاك وعالم المثل المعلقة وعالم الأنوار المجردة، ويجتنبون الظلمات وأبناؤها قياماً في هياكل قرباتهم، يناجون أهل الحجرات يطلبون خلاص أسيرهم المحبوس في علائق الغواسق، ويقتبسون النور من معدنه اقتداء بالصافين والملائكة المقربين، فقالوا سبحان من جعل الشمس نوره الأول وسيلة لفيض جوده وإفاضة[٣] وجوده، وجواري شمسه وقمره وسيلة[٤] وباقيها، فيتنعمون وينعمون بفيضهم وإشراقهم وأضوائهم في مدارجهم، فينتفعون[٥] وينفعون النازلين في السوافل من المستعدين، وأهل التطهير في

---

(١) الواهبين.

(٢) مسطور.

(٣) إشاعة.

(٤) خليفة.

(٥) وينتفعون.

محاربتهم في الصلاة خاشعين بالقرآن والأذكار، وينادون ربنا اطمس عنا غياهب ظلمة الجهل إنه دثار الظالمين، إنا أتيناك طائعين، وأشارت إليك أرواحنا بالتقاديس وأنواع التطهير طلباً للترقي والصعود إلى مقاعد جلالك ومطرح نورك فطهرنا بأيدك القوي، وبسطنا أيدينا لرزقك من الكشف والعرفان، وافتح أبصارنا بنورك، فإن جلالك وجدناه فوق أساطين الجبروت، ونظامه من ملوك الحضرة مرتدياً بالكبرياء وتحت شعاعه جميع الأنوار المجردة والقاهرة إليه ينظرون، فأولو العزيمة والكمال في البسيطة يطهرون ليصلحوا لجواره، ويبغضون السيئآت والمعاصي، ولولاهم لقذفت السماء وبالاً وعذاباً على البسيطة، فترتح وترتعد وتطحن الظالمين، ولما بعث الله أنبياءه إلى خلقه ليعبدوه فريق نسكوا وفريق زاغوا فمالوا مبعدين[1] عن الحق، فالناسكون مرفوعون إلى مشاهدة الضياء والعوالم العقلية، ويدخلون في صفوف هذه الملائكة، ويطهرهم[2] الله تعالى فينعمون دائمون، وأما الزائفون فيبعدون عن جواره يلقي عليهم الذكر والهوان، منكسون على الرؤوس في حجاب الظلمات وحنادس الجسمانيات، برزت النفوس الطاهرة في ظلمات الهياكل إلى فضائل الأنوار، وهب لها البسيطة والسعة فرجعوا مكرمين، وضمان الله لهم بقبضهم إلى جناب الحق وعالم العقل في عين الحيوان مع الأنوار وبحر[3] النور وعين الحياة على الأبار، فمطيع الرحمن يغشاه بارق من نوره ويجعلهم بلقائه فائزين، إلا إن رحمة الله قريب من المحسنين، جعلنا وإياكم من المستعدين، وألهمنا وإياكم حسن اليقين، ورزقنا وإياكم الفوز مع الفائزين المتصلين الفانين الباقين إنه أرحم الراحمين وما هو على

---

(١) معتدين.

(٢) فيطهرهم.

(٣) نهر.

ذوي الاستعدادات والقوابل بالإفاضة (من عنده)[1] بضنين.

وفي هذا الوارد من التنبيه على ما هو موصل إلى جناب الحق وما يخرج من هذه القيود والأغلال ما فيه كفاية لطالب النجاة، ولهذا أرشد الله عباده وعلمهم أن يطلبوا منه الاستقامة على صراط من أنعم عليهم بالإنعام الخاص الخالص من شوب الغضب ومحبة الضلال فلسان مقامهم يقول: يا ربنا رحمانيتك الأولى العامة الشاملة قضت بإيجادنا، ورحمتك الأولى خصصتنا بهذه الخصوص الوجودية المختصة بكل واحد منا، كل ذلك من حيث نعمتك الذاتية ورحمتك الامتنانية، ورحمانيتك الثابتة[2] التي أوجبتها على نفسك بكرمك من حيث عموم اسمك الهادي عمتنا معشر المؤمنين، كما أشرت إلى ذلك بقولك: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[الأنعام/ ١٢]، فلما شملتناه بنعمة الإيمان والانقياد لأمرك والاستسلام لحكمك والإقرار بتوحيدك، انبرى كل منا يذكرك ويثني عليك ويمجدك ويفوض إليك ويفردك بالعبادة بعد إقراره لك بالسيادة[3]، ويطلب منك العون بصورة الإبانة عن صفة العجز ونقض الكون، ثم إنك خصصتنا برحيميتك الثانية التي يحكم بالحكم الخاص من أحكام اسمك الهادي المقتضي طلب أشرف صور الهداية والسلوك على أقوم السبل وأقصدها وأسلمها طلبنا ذلك منك لاستلزامه الفوز والاحتظاء بالنعم التي جدت بها على الكمل من احبابك حيث سلكت بهم على سبيل الصراط وأسده وأقومه وأسلمه حتى ألقوا عصى تيارهم[4] بفنائك، وحظوا بعد التحقيق التحقق بمعرفتك وشهودك بسابغ إحسانك وأشرف نعمائك، وأخلص جنابك المقدس عن

(١) ساقطة.

(٢) كذا في النسختين والظاهر الثانية.

(٣) بالسياسة.

(٤) تسيارهم.

شوب المزج وسنن النفاد المقرونين بالنعم المبذولة لأهل الفساد المغضوب عليهم ظاهراً والضالين باطناً عن سبيل الرشاد، فاستجب يا ربنا[1] وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد، فاستجاب لهم ربهم إني لا أضيع عمل عامل منكم يوم القيامة، واجعلنا اللهم ممن استجاب لك وآمن بوعدك ووعيدك وأوفى بعهدك وقام بخلافتك التي خلقته عليها يا رب العالمين.

واعلم أن في العالم العقلي والصنع الإلهي عجائب لا يحيط بها عقول البشر المنغمسة في الظلمات، فما يشاهد في عالم الجرم من الغرائب والعجائب فهناك أطرف وأعجب، فإن تدبير المبدىء الأول المتقن وتنظيمه المحكم لا تدركه أفكارنا، فإن ظلماتنا مانعة عن المشاهدة لتلك العجائب، ومن طمع في الاطلاع على عالم الربوبية وعالم العقل مع تعلقه بعالم الحس كما أن الغائص في قعر اللجة لا يبصر السماء كمن هو في الهواء، فقس ما غاب عنك على ما حضرك يأتك العيان.

هذا آخر الوصية التي تتعلق بك وبما يوصلك إلى مطلوبك، فأما ما يتعلق بوصية الكتاب وهي أن يكون ملحوظاً منك بعين العناية، محفوظاً عندك[2] عن ابقاء الخيانة، مبذولاً لأهل أداء الأمانة، واعتمد[3] عليه في جميع الأحوال، واقبل على استخراج معانيه غاية الإقبال، وليكن في خزانة القلب منك محتضر، ولا يزجرنك عن معاناة معانيه مزدجر، وفتش عن الغرائب المشتمل عليها والبدائع التي استوفى ما لديها، فإنه كتاب عظيم الشأن غريب الأفنان، فكأنه شجرة كثيرة الثمرة قوية الأغصان، وقد أودعت

---

(١) يا رب.

(٢) عبدك ابنا.

(٣) ويعتمد.

لك فيها إلهامات محكمات وغرائب مستحسنات، يسهل عليك بها إن استظهرتها غاية الاستظهار، واستطلعت مطالع أنوارها من وراء الأستار، حتى صارت شموسها لديك في رابعة النهار، وشموسها لقبضتك تحت الذل والانقهار الحقائق الحقية النورية والدقائق القلبية[١] العلية والعلوم الربانية الفيضية، فينتقل بها من أسرار الشريعة ومعاني الطريقة ويترقى إلى حظائر سرائر الحقيقة، فإنها الطرق التي أمّها المتقدمون، وسلكها بعدهم المتأخرون، فقم بذلك حق القيام، واحتفظ بأسراره عن الخونة اللئام، تكن متعرضاً بما اشتمل عليه للقيام بخدمة الملك العلام، وتصير بخدمته من الاقطاب الكمل الأعلام، ولم أقل ذلك لإطراء نفس لأكون من أهل الإعجاب، فادخل بعد الاستضاءة في ظلمة الحجاب، بل ولا أقول إن غيري لم يحرز[٢] هذه الفضيلة ولا اعطي اقتناء هذه الوسيلة، بل فضله تعالى وجوده عميم ومنه وعطاؤه جسيم، فليس العلم وقفاً على قوم لينقطع المزيد عن العالمين، بل المفيض لعين اليقين والشراب المعين ما هو على الغيب بضنين، إلا أني لما نظرت إلى ابناء هذا الزمان وفرسان هذا الميدان قد فشى[٣] فيما بينهم طريقة البحاثين من المعتزلة والأشاعرة، وأظهروا في كلامهم المباحثة والمناظرة، وعرجوا بمباحثتهم إلى طريق المفاخرة والمنافرة، فكثرت بينهم المناكرة والمشاجرة، وجعلوه متجراً ينالون به الأرباح الدنيوية الحاضرة، فلما لم أجد بينهم إلا كثرة القيل والقال وإيراد الجواب والسؤال من غير وصول إلى نهاية، ولا وقوف على غاية، بل تهافتت أفكارهم عن إدراك الحقائق، وتناهت قواهم عن فهم الغوامض والدقائق، حملني ذلك على إظهار هذه الأسرار واستخراجها من معادنها بمحاسن

---

(١) العينية.

(٢) يجوز.

(٣) فشا.

الأفكار، ليسلك السالك بها إلى طريق الآخرة، ويترك تلك المتاجر الخاسرة، وسلكت فيه مسلك أهل السلوك ليرتفع عن التوحيد الحقيقي سائر الشكوك، فأظهرت ما أظهرت وأوضحت بالبيان الشافي ما أثبت، فلذا أوصيتك بهذا الكتاب وأكثرت لديك في مدحه الخطاب، وقد فرقت لك فيه جملاً من الأسرار، وبينت لك فيه طريق الأخيار ومقامات الأبرار على توالي الأعصار من الأقطاب والأولياء الكبار والأنبياء والأولياء الذين هم الحجة والمحجة وبهم الاعتبار وعليهم الإيراد والإصدار، فإن أردت الاطلاع على هذه الجواهر والغوص على هذه اللآلي فأمعن التأمل والمطالعة في هذا الكتاب، والحق آخر الكلام بأوله، واجمع النكت المبثوثة فيه، فإن في الزوايا الخبايا[1]، ولا تقصد الحقائق من موضع منه، فإنها متفرقة فيه، فاجمع وتفطن ترشد وما قصد تفريقه فيه من غامضات الأسرار فإنه العجب العجاب، وما يتوهمه المتأمل تكراراً (فإنه كذلك)[2] وعن[3] عمد فعلته، فإن ما فيه من الخفايا لا يمكن التصريح به دفعة واحدة، فيعاد ذكره بتعريف أو تضمن في كلام آخر في غير محله بلقب غير اللقب وعبارة غير العبارة، لينكشف بذلك قناع الإجمال[4] عن جمائل غرائبه، وينفتح بلسان التكرار أزهار أشجار غرائبه اقتداء بالرب وسنن الكمل من أهل الله وخاصته، فاجمع وتذكر واستبصر، والله يهديك إلى سواء الصراط. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ثم إني اعلمك أيها الواقف عليه إني قد جنيت لك ثماراً طيبة المأكل، لذيذة المطعم من جنات متعددة مسقية بماء النعيم راضية مرضية، وأفدتك خلاصة ما تلقمته بجدي وكدحي من المظان البعيدة المتفرقة، فأرصدته لك

---

(١) خبايا.

(٢) ساقطة.

(٣) فعن.

(٤) الأحمال.

وحويته في دستور وجمعته وطرحته بين يديك، فاستوص به خيراً وقم بواجب حقه غاية القيام واعرف قدره غاية المعرفة، فإنه كتاب جليل في فنه، عجيب في جنسه، قليل وقوع مثله، وقد يسر الله بمنه وكرمه على يدي ما لم يتيسر على يدي غيري من أمثالي، وذلك من فضله علي وإحسانه لدي، فله الشكر كثيراً وله الحمد فاضلاً، فصنه أيها الظافر به عن غير أهله، ولا تكن بالضنين به على من عرف محله ومحل أهله، ولا تؤتِ الحكمة غير أهلها فتكون من أهل ظلمها، ولا تمنعها أهلها فتكون من أهل ظلمهم، وأحسن الظن بجميع ما فيه ولا تسرع بالرد والإنكار لما عساه يعسر عليك العلم بمكنونه، فإن فيه مكتومات كثيرة وعبارات لطيفة يحتاج في معرفتها إلى تلطيف السر وإصلاح المزاج، بل وقد اشتمل على مشكلات لا تكاد تتضح إلا بعد الكشف والمعاينة، فإن هذا الكتاب وأضرابه ليس في مرتبة البحث ولا مقامات أهل الانظار، وليس أقول هذا بمجرد الدعوى بل يعرفه من امتحنه والقائم بمباحثه على جهتها لا يحتاج إلى إعلامه بذلك، فإنه يعرفه ويتحقق عنده عظم موقعه وعلو قدره، فلا يخالطك شك (في شيء)[1] مما[2] أوردته عليك من الغوامض الأبية على ذهنك أو المخالفة لما ظهرت عليه وألفته من الظواهر والصور الجرمية، فإنك إذا فارقت هذه الطريقة متعمقاً في البحث عما وراءها عرفت غرض الكتاب وتحقق عندك علم ما اشتمل عليه من الحقائق الربانية والمعارف الكشفية التي هي لب[3] خلاصة أقوال أهل الله الأقدمين والكمل والعارفين رضوان الله عليهم أجمعين، فأمعن النظر وجد في الطلب واعمل بما فيه لتصل إلى مقصودك، فتقف على ما فيه فاطلب التأله وتوجه كل التوجه على الشرائط المذكورة في الكتاب، لتفوز من مقامات الأبرار بالحظ الأوفر

---

(١) ساقطة.

(٢) فيما.

(٣) ساقطة.

وتنخرط في سلك أنبياء الله وأئمته وأوليائه في يوم[1] المحشر، واحمد الله تعالى واشكره على ما يسره لك على يدي، فإذا وصلت واتصلت فقد فزت فوزاً عظيماً، وحللت بدار تكون عند أهلها كريماً، واسأل منك أن لا تنساني من الذكر الجميل والمكافأة على الإحسان إليك بطلب المغفرة والنجاة من أهوال العرضة[2] والحلول بدار الكرامة والخلاص من فزع يوم القيامة، فلعلي انتفع بدعائك وأُشاركك في ثوابك من غير نقص عليك ولا بخس[3] لديك، فإن المعطي الكريم فضله وجوده لي ولك عميم، وأنا مع ما ذكرته من الإطراء لكتاب لست[4] بمادح نفسي ولا معجب بفضلي، بل مقر بالقصور والنقص والفتور في الفكر والنفس، كيف وكدورات الأزمان متواترة ووقائع المصائب بالأحباب والأصحاب متظافرة، والانشعابات بكثرة الأحزاب متطايرة، ولكن المرجو من كرم الناظر حسن العفو والمسامحة والإغضاء عن المكاشفة والمكافحة، والإصلاح لما يراه من الخلل، والتسديد لما يطلع عليه من الزلل، هذا آخر الكتاب[5].

---

(١) اليوم.

(٢) العرصة.

(٣) بحسن.

(٤) ليس.

(٥) وكان الفراغ من مسعى مشقى أصيل يوم السبت ثاني عشر شهر الله تعالى الأعظم رمضان لسنة ٩٥٠ والحمد لله مالك الحمد والصلاة على محمد وآله تاج ذروة المجد وسلم تسليماً. قال الآخر: بلغ قبالاً وتصحيحاً في السنة المذكورة بنسخة المصنف التي هي بخطه (تمت)
وكان الفراغ عن التصحيح والمقابلة الدقيقة على يد العبد القاصر محمد الخواجوي أصلح الله حاله في الأيام والليالي في الأصيل يوم الاثنين من شهر رجب الأصب سنة ١٤٠٠ هجرية والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

فهرس الآيات والأحاديث

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية

الفهرس